

١٢

الألف كتاب (الثاني)

القاهرة

مدينة ألف ليلة وليلة

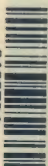
(٩٦٩ - ١٩٦٩)

تأليف: أولج فولكف
ترجمة: أحمد صليحة



المركز القومي للمكتبات والوثائق

0168794



Bibliotheca Alexandrina

القاهرة
مدينة ألف ليلة وليلة
١٩٦٩ - ٩٦٩

الاخراج الفنى : البير جودجى

المراجعة والاشراف الفنى : علفاف ؤوفيق

القاهرة

مدينة ألف ليلة وليلة

٩٦٩ - ١٩٦٩

تأليف: أولج فولكف
ترجمة: أحمد صليحة



المسئول العام: المكتبة الوطنية للكتاب

١٩٨٦

مقدمة

قليل من المدن تلك التي يمكن أن تثير خيال المرء لدى سماع اسمها كمدينة القاهرة إن هذا الاسم يبعث في النفس صورا وخيالات بطولية رائعة أو مفزعة وقاسية . وهناك نرى الأهرامات ، تلك الصروح الهائلة تعبر عن فكرة الخلود في عالم سماوى لاعن نهاية الحياة التي توحى بها المقابر الأوربية . وتبدو لنا قلعتها كقائد حربى مختال يشرف على جنوده اللذين تؤلفهم منائر العاصمة ، فترسم لنا صورة المالك يعمائمهم وثيابهم الفضفاضة وهم منطلقون على صهوة جيادهم المظلمة ، وفي أيديهم سيوفهم مشرعة ينعكس عليها ضياء الشمس .

وقد يثير هذا الاسم صورة مدنية حديثة تذدم بالسيارات وتخترق سماءها الطائرات ، ولكن على تعدد تلك الصور وتباينها ، تشترك جميعا في كونها صورا جذابة تضاعف من روعة تلك المدينة العتيقة .

ولكن اذا ما تسألنا عن ما هو هذا السحر المختص لمدينة القاهرة ، لوجدنا ان الاجابة الدقيقة عسيرة . لذا فكل ما يمكن قول هو ان أسرد بضع عناصر أولها تراث المدينة الثرى الذى يشيع في روح الانسان النشوي وهذا التراث لا يتمثل فقط في الأبنية العتيقة التى شيدت على مدار خمسة آلاف عاما ، ولكن في الشواهد الدالة على حضارات عدة متباعدة ، شكل كل منها وجه المدينة بأسلوبه ، وخلف لنا آثارا تشهد بذلك .

فهنا جامع سامق يدعو المارة الى الاحتماء في ظلال ايوائته الرطبة من قبض الشمس ، وهناك كنيسة قبطية عتيقة تزدان بصورة القديسين الرصينة ، والى جانب هذا تقوم عمائر حديثة الطراز ثقيلة ومتزاحمة تبرز بين الفيلات الأنيقة التى تطل على نهر النيل .

ويبدو ان هذا السحر وليد نعمة خاصة تميز بها تيار الحياة القاهرية نتجت عن صفاء سمائها الحلوة ، التى لا تتخذ المظهر المتجهم للسماء الأوربية ، ومن اعتدال مناخها الذى يخلو من التقلبات الحارة والعواصف المدمرة ، ومن أهلها الذين يفتقرون الى خشونة النوريدين

من أهل الشمال الأوربي والى همجية القبائل الأفريقية ، فخلقهم يتسم
بالسماحة واللين وأخيرا فتلك هي النعومة المميزة لبلد شديد الخصب
يشيع في أرجاء حياته الكسل واللامبالاة ، وهما كلمتان لاثيرا في
النفس الأوروبية المعاصرة سوى ذكريات اليمّة لاسلوب حياة قد مضى
وانتهى .

وهناك سبب آخر لهالة السحر تلك التي تحيط بالمدينة ،
تمثل هذا في الأساطير العديدة التي ترسم لها صورة شاعرية تمس
شغاف القلوب . فيقال أن هناك صخرة تحمل آثار أصابع النبي موسى .
وفي تلك الصخرة أختفى الفرعون من أبي العبرانيين . وقبل أن يخرج
هؤلاء الى سيناء ، قيل أنه تسلم بعضا من الواح الناموس في جبل
المقطم . وتوجد في الجيزة نخلة يعتقد أن « السيدة العزراء » ارضعت في
ظلها الطفل « ياسوع » . وفي جامع عمرو بن العاص يوجد عمود يقال
أنه طار من مكة الى مصر . وبالقرب من جامع ابن طولون يقال أن أرواح
أسرة الرسول صلعم تجتمع كل ليلة تحت رئاسة ملكة عجوز (كذا)
حتى تتباحث في أمور مصر وتوصي لحاكمها بقراراتهم . وفي المعتقدات
الشعبية نرى النيل الذي يحمل الخير أو الدمار لمصر ينبع من الجنة لا من
الهضاب الأفريقية .

ونحن في هذا الكتاب نحاول أن نتبع قصة تلك المدينة التي
لا تتشابه مع غيرها من المدن الأوروبية ، فكما ذكرنا أنفا أن هذه المدينة
لم تكن متجانسة العناصر ولكن كانت مزاجا من عدة مدن متباينة
العصور والحضارات . فاذا كانت لندن وباريس ونيويورك تبدو لنا أشجارا
قوية نمت وترعرعت في جو متجانس حافظ لها دائما على الجنود الأولى ،
أثناء تطورها المستمر ، فإن مدينة الفسطاط القديمة بأكوامها المتزاحمة
حول عدد من الكنائس والأديرة تفتقر الى رباط حضارى مع مدينة القاهرة
الفاطمية بقصورها الزاهرة وحدائقها البديعة . وهذه المدينة بدورها
لا ترتبط مع المدينة الحالية المزدهمة بأى رباط سوى الرقعة الجغرافية .



وحتى يتسنى لنا رؤية هذا الخليط المعماري الرائع يجب علينا
أن نصعد في أحد أيام الصيف الى أعلى جبل المقطم الذي يشكل نصف
دائرة تحيط بالمدينة . وأول ما نراه مرتسما على خط الأفق المنارتين
الرشيقتين اجامص منحند على وقد بدا كرمحين مشرعين . وخائف

الأرض الحضراء التى تمتد الى ما لا نهاية ترتفع الاهرامات فوق الأفق بأحجامها المتدرجة . وبين الأهرامات وجبل المقطم يستند مجرى النيل كتمبان هائل فضى يضفى على هذا المنظر المائل لأعيننا جوا من الضموض الأسطورى . وعلى صفحة النهر تجرى فى خفة قوارب ذات أشعة مثلثة محملة بالقمح أو الفخار . تذكرنا بالصور الملونة التى نراها على جدران المقابر المصرية القديمة . وتمتزج معها القباب التى تبدو كما لو كانت معلقة فى الهواء ، ومئات المناثر التى يحط عليها الطير . وتبدو لنا من أعلى شبكة الطرقات المتشابكة ، كلوحة طليت بطبقة من الطلاء اللامع تشققت تحت وهج شمس مصر الساخنة فيلف الصمت المطبق كسكون المقابر بعض طرقاتها ، وتصخب بعضها بضوضاء كهدير سيل جبلى . وفى الشمال ترتفع على حافة الصحراء الداكنة مجموعة من القباب العالية التى تتناثر فى أرجاء قرافة الممالك ، وتبدو كما لو كانت خوذات سقطت من فريق من العمالقة . فإذا ما جل المساء خلعت عليها أشعة الشمس الغاربة حلة قرمزية . وانتشر فى كل مكان ضياء الشمس النحاسى أو الذهبى المتقاطع مع أجسام النخيل والذى يتسلل الى كل ركن ليمحق الظلال ويمحو زرقة السماء ، فيموج المكان بالضياء ، ويخلع جوا من البهاء حتى على أحقر الأبنية . وهذا الجو اللطيف والسماوى الرائعة أثرا ملطفا على النفس البشرية فلا عجب أن قال ذلك الرحالة الذى وردت قصته فى كتاب ألف ليلة وليلة « من لم يرى القاهرة لم يرى شيئا » .

الفتح العربي - الفسطاط - العسكر

كان عمرو بن العاص في الخامسة والأربعين من عمره عندما فتح مصر . كان معتدل القوام ، ربيعة ، ضخم ، عريض المنكبين ، واسع الصدر ، ضخم الفم ، خاتئ الجبهة وعيناه سوداويتين ثاقبتين . كان غنيقا في غضبه وكانت لحيته مخضبة بالسواد ويوحى مظهره بقوة شديدة ، غير انها كانت خالية من الصرامة التي تشيع الخوف . اما وجهه فكان يترك انطبعا حسنا في النفوس . وكان النبي صلعم يقدره تقديرا كبيرا ويرى فيه مسلما نموذجيا أهلا للثقة . وقد قال عنه انه رجل من خيرة رجال قريش ، وقدره كثيرا لعلمه وشجاعته .

وتظهر روايات عدة نسجت عنه انه كان يجمع بين سلامة العقل وقوة الجسم وحاسبا هائلا وقوة ارادة وشجاعة في مواجهة الصعاب مع رباطة الجأش والبراعة . كان متحدثا لبقا ومنتقيا بمعايير عصره . وكان شغوفًا بالموسيقى والشعر . وقد اختاره محمد صلعم لفصاحته كي يؤم الناس في صلاة الجمعة ابان حياته ، كما اشتهر أيضا بسرعة البديهة . وعندما اراد الخليفة عمر يوما ان يعبر عن تباين مخلوقات الله في اقدارها ، حين سمع رجلا يتأني ، قال « أشهد أن خالق هذا الرجل وعمره واحد » (*) .

(*) ترجمة للنص الفرنسي .

امتزجت في شخصية عمرو ملامح القديس مع الجندي ، والمغامر
مع الشاعر ، وكان يشيع حوله جوا من السحر ، فقد كان صريحا
وواضحا في تصرفاته ، عظيما في أهدافه وأدائه بهذا الطلسم استطاع
ان يكتسب ولاء العديد من الرجال . هذا هو الرجل الذي أراد
بأربعة آلاف فارس ان ينتزع من الامبراطورية البيزنطية أغنى
مقاطعاتها .

وقد نسجت العديد من الأساطير التي لا تخلو من الخرافة حول
الفتح العربي لمصر . فقد ذكر السيوطي ان عمرو كان قد زار مصر
قبل حملته المظفرة في عام ٦٤١ م ففي أثناء سفره من مكة الى مدينة
القدس لأداء بعض الأعمال كان يعبر أحد الجبال حينما وجده راهبا
مسيحيا على وشك ان يهلك عطشا فشقاه ثم نام الراهب ، وأثناء نومه
خرج ثعبان من كهف فأسرع عمرو يقتله . وعندما استيقظ الراهب
قص عليه عمرو الحادثة فطلب الراهب المقعم بالامتنان من عمرو ان
يصحبه الى الاسكندرية حتى يقدم له ألفى دينار هدية وهو ضعف
المبلغ الذي كان يأمل ان يجنيه من رحلته . ووصلا الى الاسكندرية ،
بينما كان الملك ورجاله يحتفلون بعيد . وكان من بين الألعاب لعبة تقذف
فيها كرة من الذهب وعلى اللاعبين ان يحاولوا التقاطها بأكمامهم .
وكان الاعتقاد الشائع ان من يسكنها لا يموت قبل ان يشغل منصبا في
حكومة البلاد . البس الراهب عمرو ثيابا من حرير واصطحبه الى
العيد . وعندما قنفت الكرة سقطت في كم عمرو ، فانفض الناس قائلين
« ما كذبتنا هذه الكرة قط الا هذه المرة . اترى هذا الأعرابي يملكنا ؟
ما يكون هذا أبدا » . وعندما خرجوا من القصر قص الراهب على أهل
الاسكندرية المعروف الذي صنعه عمرو وطلب منهم ان يجمعوا له
ألف دينار مكافأة . فتم له ذلك ثم غادر عمرو البلاد .

في عام ٦٣٨ م التقى عمرو بالخليفة عمر بالقرب من دمشق .
وعقد معه اجتماعا تاريخيا دعاه فيه الى غزو مصر . وطبقا لرواية المؤرخ
العربي ياقوت قال عمرو للخليفة « يا أمير المؤمنين اذن لي ان أسير ،
فانك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم . وهي أكثر الأرض
أموالا ، وأعجزها عن القتال والحرب » . وتردد الخليفة خشية ان
يعرض المسلمين للخطر . لكن عمرو أصر وأخذ يسهب في مدح مصر
مبونا من أمر غزوها . وانتهى الخليفة الى أن وضع تحت تصرف عمرو
قوة من أربعة آلاف فارس قائلا « سر وأنا مستخير الله في مسيرك ،
وسياتيك كتابي سريرا ان شاء الله ، فان أدركك كتابي وامرتك فيه

بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف ،
وإن أنت دخلتها قبل أن ياتيكَ كتابي فادعى لوجهك ويستعن بالله
وامتنع منه » .

رحل عمرو وأخذ عمر رضى الله عنه فى الابتغال لله ، لكن الهواجش
التأبته وخوفا على مصير المسلمين كتب الى عمرو أمرا اياه بالعودة
ووصلت الرسالة عمرو بينما كان لا يزال فى رفح من أرض الشام
خمن عمرو فحوى الرسالة فانتظر حتى وصل الى العريش فى مصر قبل
أن يفتحها . ولما قرأها سأل ضباطه قائلا « أهذا المكان فى مصر أم فى
الشام ؟ » فاجابوه « فى مصر » . فقرأ الرسالة بصوت عال واطلعهم
على ما كان قد اتفق عليه مع الخليفة ثم أمرهم بمواصلة السير .

غزت الجيوش العربية مصرًا وسقطت مدنها تباعا الواحدة بعد
الأخرى . الفرما ثم بلبيس ومدن أخرى أقل أهمية . وبعد أن احتل
العرب قرية أم دين الواقعة على شاطئ النيل الشرقى (ربما فى موقع
الأزبكية الحالى) ، استولى عمرو على القوارب وعبر النهر واستولى على
القيوم ثم دخل الى الصعيد وتهاوت نظريات الحرب القديمة الرومانية
أمام قدرة العرب على الانتشار السريع والمناورة والهجمات الارتجالية
العسكرية لفرسانهم . أثبتت غارتهم المفاجئة البيزنطيين الذين عجزوا
عن مقاومتها ولما فشل البيزنطيون فى قطع اتصالات العرب مع شبه
الجزيرة العربية ، تحصنوا فى داخل قلعة بابليون المنيعة التى تشرف
بأبراجها المنيعة المستديرة على مدينة مصر - خليفة وورثة ممفيس
القديمة . وعندما حاول البيزنطيون فك الحصار منوا بهزيمة ساحقة
فى سهل هليوبوليس - المكان الذى هزم فيه كليبر الانكشارية الأتراك
تحت قيادة يوسف باشا بعد هذا التاريخ بأثنى عشر قرنا من الزمان .
وتحصن ما تبقى من البيزنطيين فى بابليون لكن الحصن استسلم بعد
سنة أشهر فى ابريل سنة ٦٤١ م .

وبقى هذا سقوط الاسكندرية وبلاد ما تبقى من قوات البيزنطيين ،
ثم اخضاع مصر كلها تدريجيا وبذا انتهت سبعة قرون من الاحتلال
البيزنطى تلاشت كخيمة بدوى حملتها بعيدا رياح أعصار .



وضمانا لسيطرة العرب على مصر ، ونظرا لأن بعدنا عن أرض
الجزيرة العربية كان يمكن أن يجعل من استردادها أن سقطت أمرا
صعبا ، فقد اجتمعت العرب الاستقرار فيها . وبمجرد أن وقعت معاهدة
الخلافة واجه العرب مشكلة اختيار العاصمة . أراد عمرو أن يتخذ

من الاسكندرية قاعدة لحكمه نظرا لشهرتها و ثرائها ، لكن عمر رضى الله عنه رفض ان يترك قواته فى مدينة تفصلها مياه الفيضان عن ارض الجزيرة العربية فى كل عام لذا انعقد الاختيار أخيرا على قمة المروحة التى تشكّلها دلتا نهر النيل ، لكن الآراء تضاربت فى اختيار الموقع الفعلى للمدينة : ايكون على الضفة الشرقية أم الغربية . أراد الاتقياء ان يجعلوها على الضفة الغربية ذلك ان الرسول صلعم ذكر ان الجزيرة بها روضة من رياض الجنة . لكن عمرو كان عملي التفكير فقد فصل الضفة الشرقية حتى يكون الخليفة على اتصال قوى بجيشه . وكان من رأى الخليفة انه من الأفضل ان تكون الجزيرة والروضة تغطى ارتكاز وتقل للجيش من الشرق الى الغرب وهكذا وقع الاختيار على الضفة الشرقية فى البقعة المجاورة لحصن بابليون المهيمن على الطرق المؤدية الى الصعيد ، لكن جزءا من الجنود الذين كانوا بالجيزة رفضوا مفادرتها بحجة انهم أمضوا بها أكثر من شهر . وبموافقة الخليفة صرح لهم فى النهاية بالاقامة فيها على أن يشيدوا حصنا بدء فى اقامته فى عام ٦٤١ م وانتهى فى السنة التالية .

وبالقرب من بابليون يفتح وادى التيه الذى كانت تعبره القوافل ذهابا الى الجزيرة العربية محملة بخيرات مصر واياها من المدينة المنورة محملة بالوّن والتعزيّزات . ومن هناك أيضا كان يبدأ الخليج ، وهو قناة تخرج من النيل شمال القسطنطية وتمر بهليوبوليس (عين شمس) وتخترق السهل كله حتى يصب فى البحر الأحمر قرب مدينة السويس الحالية وكانت فى الأصل فرعا من النيل طمته الرمال واعيد شقه كقناة . وقد أعاد عمرو تطهيره من الرمال حتى ينشئ طريقا ملاحيا بين القسطنطية والمدن المقدسة ، سمي « بخليج أمير المؤمنين (١) » .

وقد سدد هذا الخليج فى عام ٦٨٨ م لقطع الامدادات عن أحد منتحلي الخلافة (عبد الله بن الزبير) وكان مقيما فى المدينة . وفى النهاية بطل استعماله وان ظل مستخدما كخزان مياه للسبيل الواقع فى شمال القاهرة لمدة ألف عام . وكان الجزء السليم منه بمثابة نهر لمدينة القاهرة .

(١) تقي اسم الخليج فى عصر الحاكم بأمر الله الذى أدخل عليه تحسينات عدة الى « خليج الملاكم » فضلا عن هذا الاسم فقد أطلقت عليه أسماء أخرى تقرأها على خريطة الحملة الفرنسية للقاهرة فى عام ١٧٩٨ م . وبدلا من أن تصب مياه الخليج فى البحر كانت تنضم لى بركة « الجب » والمنطقة المجاورة لها وأخيرا اندثر الخليج فى نهاية القرن التاسع عشر .

وتعددت مزايا المنطقة المجاورة ، ففي السهل كانت توجد آبار وعيون للماء العذب . ومثلت تلال المقطم محجرا ثريا كانت أحجاره جزءا مكملًا لمواد البناء التي كانت تتوافر بكثرة على طول ضفتي النيل كالطين مثلا والوحل وأحجار العماثر القديمة الخربة ، بالإضافة الى هذا كانت القاهرة تجاور أرضا زراعية خصبة تقوم على هضبتين بئامن من مياه الفيضان . وعلاوة على هذا كان يوجد فى سفح المقطم وادى جاف يصلح كجبانة .

كيف كان يبدو موقع المدينة فى وقت الفتح العربى ؟ الى الشمال من السهل الذى كانت ستشيد عليه المدينة التى سبقت القاهرة كانت تقع مدينة هليوبوليس القديمة التى دعاها العرب عين شمس . والى الجنوب يقع حصن بابليون الذى ازدهرت حوله مدينة قصر الشمع (*) . وفى قلب السهل كانت توجد قريتين منفصلتين هما أم دنين ومصر .

بينما تناثرت بين النيل وجبل المقطم كنائس واديده وحدائق وكرمات .

كانت طبوغرافية هذه المنطقة دائمة التغيير ، فالنيل يغير دائما من مجراه بسبب الرواسب التى تتراكم على قاعه . وفى وقت الغزو كانت ضاحية « قصر الشمع » - وهو الموقع الذى سيشيد فيه جامع عمرو تطل على النيل ، وخلال بضعة عشرات من السنين غير النهر من مجراه الى الغرب مكونا مساحة سمحت باقامة مبان بين قصر الشمع والنيل . ومن الملاحظ أن قمة الدلتا تنزل دائما نحو الشمال ، أما النهر فيتحرك غربا دائما بشكل ملحوظ ، مما يؤدى الى ظهور شواطئ جديدة . كما ان أى عائق فى مجرى النهر كحطام سفينة أو دغل أو لوح خشبي كفييل بأن يجمع حوله رمال وطين يتراكم ويتماسك بفضل الأملاح الكلسية التى تحتويها مياه النيل . ثم يرتفع مستوى القاع تدريجيا ، وينتهى الأمر بأن تظهر من تحت الماء جزيرة تمزل صفحة الماء التى تفصلها عن الشاطئ عن مجرى الماء الرئيسى ، فتتحول الى بركة تمتلئ بالماء فقط أثناء الفيضان . وفى النهاية تجف تماما وتفرس بها الصداق وتقام عليها الابنية ولا يتبقى الا الاسم القديم ليذكرنا بأصل تلك الأرض .

(*) الاسم العربى لحصن بابليون ويبدو انه تحريف لكلمة خيمي القبطية التى

عنى « مصر » .

عندما جاء عمرو الى مصر لم يكن بمجرى النيل سوى جزيرة واحدة . تسمى جزيرة « مصر » أو اختصار الجزيرة ، وهى تطابق الى حد ما جزيرة الروضة الحالية . وكثيرا ما كان الفرين الذى يجلبه النهر يسد الفاصل المائى الذى كان يفصل الجزيرة عن شاطئ النيل . وفى كل مرة كان يعاد تطهيره من الرواسب للحفاظ على الجزيرة التى كانت تلعب دورا هاما فى خطة النظام الدفاعى للقائد العربى .

لم يكن الموقع الذى قدر للقاهرة أن تشغله خواء . فمنذ عصر ما قبل التاريخ سكنته قبائل عاشت فى سفح المقطم على أرض بمتأى من مياه الفيضان . ولقد عثر على مصانع للألات الظروانية على سفح هذا الجبل على ارتفاع أقل من الجبانات والعقيات . وإلى الجنوب قليلا عثر على هياكل عظيمة دفنت فى وضع القرفصاء وعلى فؤوس حجرية مصقولة وأوان ورعى طواحين وآثارا هامة تلقى ضوءا على أسلاف أهل القاهرة .
الحاليين .

وعلى تلك الأرض الواقعة بين المدينتين الفرعونيتين ممفيس وهليوبوليس شيدت مدينة عرفت باسم -بابلليون أو قصر الشمس . وقد خلد اسم بابلليون (مجهول الأصل) فى اسم دير بابلون . أما أصل الاسم الثانى فكانت الشموع التى تضى الحى القبطى (١) .

ومعلوماتنا الضئيلة عن مدينة بابلليون لا تسمح لنا بأن نرسم لها صورة تفصيلية أما عن هليوبوليس التى كانت قد شيدت فى الأصل على أحد فروع النيل فقد اضمحلت تدريجيا . وفى بداية العصر المسيحى لم يكن قد بقى منها الا أكواخا مبشرة فى الصحراء . وكانت ممفيس قد أقيمت يتفرع فيها النيل الى غروب عدة قسمت الأرض الى جزر فكانت ذات نفع عظيم فى المواصلات التى اعتمدت أساسا على القوارب ، لكن المدينة ما لبثت أن خربت بعد أن هجرت . ومن تلك المدن الثلاث لم تمش الا بابلليون لميزات عدة انفردت بها ، فهى متصلة بالشاطئ الغربى عن طريق قنطرة بين ثمران بجزيرة الروضة . وبهذا كانت نقطة هامة من نقاط المواصلات وبذا صارت العاصمة الفعلية لذلك الإقليم قبل أن تستبدل القاهرة القسطنطية .

ازدهرت بابلليون تحت الحكم الرومانى . وكما قيل فى أوراق البردى فقد كان بها أرضة شحن وميناء ومقياسين للنيل . وقد ذكر

(١) قبل أن هذه الشموع كانت توقد للإعلان عن انتقال الشمس من برج الى برج -

سترابون انها كانت مقرا لفرقة من الفرق الثلاث الرومانية التي كانت تشكل حامية مصر . وكانت السواقي تغذيها بالماء فضلا عن طنايب يديرهما مائة من السجناء . وقد شيد الامبراطور تراجان الحصن والقناة التي كانت تخترق المدينة ولذا فقد سميت بقناة تراجان .



كثيرا من الذاكرة وقليل من الآثار تلك التي وصلتنا عن تلك المدن التي سبقت القاهرة التي لم يعلق سكانها أهمية كبيرة على حياتهم الأرضية بل كان جل عنايتهم بالحياة الأخرى ، ولذا فقد شيد سكان مدن ممفيس وهليوبوليس وبابلون مساكنهم من الطوب بينما كانت مقابرهم من الأحجار . ولذا فقد غالبت المقابر الزمان بينما لم تصمد المساكن سوى سنوات .

وتلك المدن القديمة لانتشبه المدن الحديثة بمنازلها المتلاصقة . بل هي أقرب الى مدن العصور الوسطى حيث كانت تفصل كل ابرشية عن الأخرى أرض فضياء مما كان يكسبهم مظهر القرى المتفضلة . وقد عوض جمال مظهرهم الطبيعي هذا عن انعدام الوحدة . كانت تلك التجمعات السكانية اذا ما شوهدت من أعلى أشبه بلعبة مكعبات بعثرها يد طفل عابث . كانت أخلاط من مزارع وأرض مسيجة وآواخ وإبنية دينية مبعثرة على أرض واسعة . كان لكل بناء فيها وحدته المميزة ، تحده حديقة ، ويشيد على مرتفع حتى يتجنب الأرض المنخفضة ، التي يفرقها الفيضان ، وكان يفصل بعضها عن البعض أحيانا قنوات وجسور ، وأحيانا كانت تخاط بأسوار لحمايتها .

ويبدو ان بابليون كانت مدينة سابقة للمفتح العربي رغم مظهرها المتفكك . ولذا فلم يكن قرار القائد العربي بإنشاء عاصمة له في هذا المكان خلقا لمدينة جديدة من العدم ، بل كان بلورة لدافع غير محسوس . كان يدفع الناس حتى ذلك الوقت للاستقرار في المنطقة . فليس من الغريب ان يقبل الناس على سكنى المدينة الجديدة .

جذبت المميزات المادية لهذا الموقع العديد من السكان ، وتكفلت البواصت الدينية بالآخرين . فلقد نسجت الأقاصيص الدينية هالة حول تلك المنطقة . كان من المعتقد أن الدعوات التي تؤدي على جبل المقطم مجابة ، وإن الله قد وعد بأن يجعل من السفح روضة من رياض الجنة ، وأن هذا السفح يتمتع بخاصية خارقة للطبيعة مباركة ، فالجنث التي تدفن فيه لا تبلى لوقت طويل على عكس وادي النيل (وذلك بسبب الجفاف) . وقد اعتقد أن من يدفن في نهاية الطرف الجنوبي يبعث

أيام الأربعاء والخميس والجمعة المقدسين . وطبقا لأحدى الروايات أخبر المقوقس (الذى لا تعرف الكثير عنه فيما خلا دوره فى القتال ضد الفاتحين العرب) لعمر بن العاص القائد العربى أن الموتى المدفونين فى سفح الجبل يبعثوا يوم القيامة دون حساب عن أعمالهم ، وكان هذا خطأ من المقوقس ، فقد نبش العرب القبور القديمة ليحلوا محلها قبورهم . وبالقرب من هذا الجبل قيل إن موسى تسلم العديد من ألواح الشريعة ، وصعد إليه يوسف أثناء إقامته فى مصر . وفى المطرية توجد شجرة العذراء ، التى يبدو أنها خلفت شجرة كانت مكرسة للالهة إيزيس . وفى قصر الشمع تحتفظ أحد الكنائس بأغلال القديس جورج وأخرى تضم الفار الذى اختفت فيه العذراء مع المسيح عليه السلام . تلك الذكريات الدينية دعت الكثيرين إلى أن يشيدوا الأديرة والكنائس ثم إلى السكنى فى جيرة هؤلاء القديسين وبذا عمر الاقليم .



بنيت الكنائس القبطية على نسق واحد . والكنائس الحالية تعطينا صورة عما كانت عليه الكنائس المعاصرة لعمر بن العاص . فلقد اقيمت الواجهات من الطوب أو الحجر وتركزت عارية من الزخرفة ولا تحمل طابعا مميزا مثلها فى ذلك مثل واجهات المنازل الإسلامية . أما من الداخل فيقسمها صفان من الأعمدة إلى صحن أو سط ورواقين جانبيين يتوسطهما دهليز مستعرض . والحوافظ متراكمة وتظهر عليها آثار الرطوبة وتلطخها بقع من الدخان مما يكسبها مظهرا منفرا . وتحمل السقف دعائم سمكية . وتفصل الهيكل ستائر خشبية مطعمة بالعاج وخشب اللوز فتحت فيها أبوابا تفلقها ستائر مخملية . ويمتد الهيكل فى حنية الكنيسة ، وبه المذبح . وفى قلب الكنيسة توجد ستائر من الخشب الغرط تشبه إلى حد كبير المشربيات كانت تفصل أماكن الرجال عن أماكن السيدات . وفى كل مكان عُلقت صور القديسين التى اعتمتها السنون ، فتطالعنا بنظرات متجهة تحمل نبرة تساؤل .

ولانعرف القائمة الكاملة لتلك المنشآت الفنية حيث دمر العديد منها فى القرون الأولى للهجرة - ومن المحتمل أن تكون كنائس أبو مينا وحنا تادروس ودير مارى حنا والمعلقة أسست قبل انشاء القسطنطين . وكانت تقع على شاطئ النيل الذى كان يبعد عن مجراه الحالى ٢٥٠ مترا إلى الشرق . وإن كان انشاء كنيسة أمرا لا يستتبعه بالضرورة عمران

المنطقة المجاورة فان عدد الكنائس لابد انه كان يطابق حجم السكان المحيطين بها . وسجلات الكنيسة تذكر على سبيل المثال اسم أسقف بابليون الذي كان مقره في الاحياء المتداعية حول الكنيسة مثل ممفيس وهليوبوليس . وأخيرا فان فخامة بعض الكنائس مثل الكنيسة المعلقة التي احتفظت دوما بشهرتها لهُو دلالة على قوة الشعور الديني للاقباط .



وكطائر العنقاء (١) الخرافى الذى كان يبعث من رماده آلت الى الخراب كل المدن التى شيدت فى هذا الموقع مثل القسطنطين والعسكر والقطائع والقاهرة . وأعيد فى كل مرة تشييدها على نحو أبهى وأعظم .

كانت ممفيس وهليوبوليس وقصر الشمع ضواح أقام فيها الفاض من سكان العاصمة التى امتدت مساكنهم حتى حافة المقطم . ويتضح الخط الذى كان يربط تلك المدن المتتالية فى اتجاه نمو واتساع مدينة القاهرة . فقد أخذت القسطنطين وخليفاتها فى الاتساع نحو الشمال على نحو متصل . ولما كان المقطم يشكل عقبة فى اتساع المدينة فقد حاذته البيوت متجهة الى الشمال نحو سهل العباسية وأخيرا الى صحراء مصر الجديدة . وقد شهلت القاهرة محاولات غير ناضجة للاتساع نحو الجنوب . فعندما اشتد الوباء فى مصر فى عام ٦٨٠ م حتى أنه كان يحصد فى كل يوم ٧٠٠٠ انسان ، لجأ حاكم مصر فى ذلك الوقت عبد العزيز بن مروان الى حلوان ، وكانت قرية صغيرة تقع الى الجنوب من العاصمة وعند قرية طومة شاهد الحاكم ديرا شبيد على ضفة النيل يسكنه عدد كبير من الرهبان فاشترى بعشرين ألف دينار ، ووسعه باقامة ملحقات فيه حتى يتسع لاقامة حاشيته وحرسه ثم أقام مساجده وغرس حدائق وكرمات . ولكن لم تنقذ حلوان عبد العزيز بن مروان من الموت فعندما عاد الوباء مرة أخرى فى عام ٧٠٥ م توفى عبد العزيز فى مخبئه هناك . وبالرغم من شهرة تلك الضاحية الا انها لم تزدهر الا فى أيام الحديوى توفيق عندما وبطها بخطط حديوى مع العاصمة . لكن القاهرة أو بابليون لم تحاولا أبدا الالتحام بحلوان .



ويرى عن تأسيس مدينة القسطنطين قصة طريفة ربما هى أسطورة لكنها تحمل صدق من الحقيقة . بينما كان عمرو يتأهب للزحف على

(١) طائر البتو أو Phoenix المقدس الذى آمن المصريون القدماء انه يحيا خمسمائة عام فى منطقة الجزيرة العربية . وقبل أن يوائه الأجل كان يعود الى مصر الى معبد الشمس فى القرية (هليوبوليس) حيث يحترق ثم يبعث من جديد .

الاسكندرية وجد حمامة قد بنت عشها على قمة خيمته ، وكان يبضها على وشك الفقس فاستبشع عمرو ان يهدم عش طائر استجار به في شهر محرم وأمر بأن تترك الخيمة حتى حين عودته من الاسكندرية . ويقول ياقوت المؤرخ صاحب تلك الرواية ان عمرا قد نصب حارسا على الخيمة حتى يمنع المارة من مضايقة الطير .

ومن كلمة فسطاط وتعني الخيمة اشتقت المدينة اسمها . لكن هذا الاشتقاق قابل للنقاش ، ذلك ان المؤرخين قد كتبوه في خمسة صور فوسطاط - فسطاط - فوساط - فيساط - فسطاط . وكانت لهم جميعا نفس صيغة الجمع فساطيط ، وتعني مترا من جلد أو شعر الحيوان . وربما كانت الفسطاط هي الصيغة العربية لكلمة فوساتن اليونانية (Fossaton) وتعني المسكر . وأياها كان المصدر غالاسم عاش والتصق بالمكان وباسم مصر . واستخدمت كلمة فسطاط مصر للدلالة على سكان المنطقة بوجه عام .

وحسبما ذكر المؤرخون كان جيش عمرو يضم الى جانب المحاربين نساء وأطفالا وتجارا ومغامرينا ، أى كان بالاختصار أمة متحركة ، ولم يفقد هؤلاء المحاربون للذين اضطروا الى الاستقرار حينئذهم الى الصحراء . وإذا فقد تأثرت الفسطاط بطبيعة منشئها الذين كانوا وسطا بين البداوة والتمدن . وبالرغم من انها كانت معقل القوات العربية في مصر فلم تتخذ شكل المدن المحصنة بل كانت أشبه بمعسكر مؤقت أو أشبه بمدينة في مرحلة التكوين أو بجنين لاشكل له ينمو تدريجيا حتى يتمخض في النهاية عن لؤلؤة الشرق مدينة القاهرة .

لكن النمو كان بطيئا فقد أراد عمرو ان تكون مدينته مدينة بسيطة حتى يجنب جنوده دعة الحياة التي هي عدوة للشجاعة والصلابة . وأراد ان يبعدهم عن امتهان المهن السلمية كالزراعة التي تضعف الشخصية . لكنه أخطأ التقدير فالاحتكاك بحضارة أرقى يولد الرغبة في الاستمتاع بترف الحياة التي تفرى البدوى بسكنى المدن الحقيقية وعندئذ يتعلمون قيم العمل الجماعي وتحل المدينة محل القبيلة في احساس المرء بالانتماء . وسرعان ما يتخلص البدو من طبيعتهم الفوضوية وتحول معسكراتهم الى مدن منظمة تحميها الشرطة .

كانت منازل أهل الفسطاط في البداية شديدة البساطة تتألف من جرتين أو ثلاثة وجهدا كانت أقرب الى الأكواخ منها الى المنازل . وحول « الديوان » (مقر الادارة) خطت كل مجموعة عرقية لها قسما مستقلا من المدينة « خطة » كحارات مدينة القاهرة المستقبلية ، ومنها

على سبيل المثال « خطة الفارسيين » التي ذكرها المقرئزي ، وكانت مقرا للفرس الذين اعتنقوا الاسلام وشاركوا في فتح مصر . وصبت بعض الخطط اناسا من قبائل عربية مختلفة مثل « خطة أهل الراية » التي شيدت حول جامع عمرو ، « وخطة اللقيف » الى الشمال منها ، وخطة « أهل الظاهر » وقد خصصت لاستقبال القادمين الجدد الذين لا يستطيعون الإقامة في خطط قبائلهم .

وكما ذكرنا من قبل فقد استقرت بعض القبائل في الجزيرة تحت حماية إحدى القلاع .

وكانت كل خطة تضم حظائرا للماشية وللحيوانات ويفصل بعضها عن بعض أرض فضاء قليلة لاستزراع أو تغطيتها آكوام قمامة مما كان يعطى للسكان انطبعا بانهم مازالوا يحيون في الصحراء ، ويجنبهم في نفس الوقت الأحقاد التي تلازم المجتمعات العشائرية وبالتدريج عبرت تلك الأرض بالمهاجرين الجدد والتجار الأقباط حتى ان الخازن عبد الله في سنة ٧٣١ م استقدم خمسة آلاف رجل من قبيلة قيس وأنزلهم بالضاحية الشمالية الشرقية حتى يحقق التوازن مع الأقباط الذي رغب معظمهم اعتناق الاسلام .

يقول المؤرخ العربي « زيدان » أن العرب اعتادوا النزول على أطراف المدن التي يفتحونها لكن الآن اختلف في الفسطاط ، فالى الجنوب من بابلليون امتدت بركة الحبش التي كانت موطننا للأوبئة والناموس ، أما الى الشمال الغربي في المنطقة التي كان يحصرها مرتفعين هما جبلا « بشكر » « والرصد » فقد كانت توجد هضبة مقعرة الشكل . وبهدم بعض المباني الدينية أوجدت المساحة اللازمة لبناء المدينة العربية التي امتدت من النيل غربا ، حيث كان مجراه الى الشرق قليلا من الجبلى الحالى ولأمتست أطرافها المرتفعات الصحراوية الواقعة شرقا .

في شتاء ٦٤١ - ٦٤٢ م شيد عمرو مسجده في الموقع الذي كان قد نصب فيه رايته عندما كان يحاصر حصن بابلليون ، ولذا عرف الموقع بميدان الراية . كان هذا الموقع أصلا جبانا قديمة تقوم وسط مزارع للخضروات وكرومات . وكان مملوكا لرجل يدعى عبد الرحمن ابن قيسبة الذي منحه هبة للمسلمين بدون مقابل بناء على طلب عمرو ولقد ذكرت إحدى الروايات المشكوك في صحتها ان الأرض كانت تشغلها كنيسة . وربما نشأت تلك الأسطورة بسبب الأعمدة بقطية الطراز التي توجد في بيت الصلاة . وفي رواية أخرى قيل ان الأرض

كانت بحوزة أرملة يهودية طلب منها عمرو ان تبيعها ، فرفضت ،
 فاعتزم أن يأخذها بالقوة ، لكنه أراد استشارة الخليفة أولا . فارسل
 الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى كان فى يتبع حينذاك على ساحل
 البحر الأحمر . ووجد الرسول الخليفة يتنزه على أطراف المدينة وكان
 بالقرب منه كوم مهملات . انصت للرسول ثم انحنى والتقط جمجمة
 خروف بيضاء وخط عليها بالحبر خطين أحدهما مستقيم والآخر أعوج ،
 ثم استدار الى الرسول وطلب منه أن يحمل الجمجمة الى عمرو ، الذى
 تأملها محاولا أن يفهم لها معنى وأخيرا اتضح له معناها فصاح قائلا :
 ان الخليفة لعل حق . يجب اتباع الطريق القويم ، سبيل الله ،
 لا الطريق المعوج ، سبيل الشيطان الرجيم » (١) . واستدعى عمرو
 المرأة وطلب منها ان تبيعه قطعة ارض يمكن ان يغطيها بجلد ثور ،
 فوافقت المرأة . وكما فعلت « ديدون » (٢) - وعلى النقيض من أمر
 الخليفة قطع جلد ثور حديث الذبح الى فتائل رفيعة أحاط بها مسافة
 الأرض التى شيد عليها مسجده الذى يحمل اسمه .

كان المسجد الأصلى شديد البساطة اشبه بمنزل عادى مستطيل
 الشكل ، طوله ٢٨ مترا وعرضه ١٧ مترا ، وسقفه ، وطىء شيد من
 سعف النخيل ومحمول على دعائم . ولم يكن به منبر ولا مئذنة
 ولا أبراج بالزوايا . وكان مزودا بستة أبواب . وقد استخدم لاغراض
 شتى : كمحكمة وقاعة مجلس وماوى . ويروى ان ثمانين من الصحابة
 رضوان الله عليهم قد حددوا اتجاه قبلته ، وكان بها خطا طفيفا صلح
 عندما أعيد بناؤه . وقد اختط خيرة المحاربين منازلهم حول الجامع
 وأحاطت به مكونة نصف حلقة وقد عرفت خطتهم باسم « خطة أهل
 الراية » .

وسرعان ما ضاق المسجد بجموع المصلين الذين اضطروا الى
 الجلوس فى صفوف فى الفضاء الواقع خارج المسجد ، وقد أمر الخليفة
 عمر رضى الله عنه بكسر المنبر الذى أقامه عمرو فى مسجده ، وويحه
 على رغبته فى ان يعلو بأى صورة على رؤوس المسلمين . وتمت الزيادة
 الأولى فى مساحة الجامع فى عهد مسلمة بن مخلد فى عام ٦٧٣ م .
 فقد ضاف رواق فى الجانب الشمالى وكسى أرضية الجامع بالحصى بدلا
 من الحصباء . وقد بنى أبرجا صغيرة فى أطراف الجامع ، وشيد عليها
 منائر تحمل اسمه . وقد زاد فى عدد المؤذنين ، وأمرهم بالأذان لصلاة

(١) مؤسسة مدينة قرطاجنة .

(٢) لم أعثر على النص الأصلى لذا ترجمت كلام المؤلف .

الفجر بدلا من استخدام الناقوس الخشبي hagsiode وفي عام ٦٩٦م أعاد عبد العزيز بن مروان بناء جزء من الجامع أو بالأحرى أعاد بناء الرواق الشمالي الذي كان قد أضيف من قبل . وفي عام ٧١١ م كتب الخليفة الوليد بن عبد الملك الى واليه على مصر قرة بن شريك بأن يهدم الجامع ويميد بنائه من جديد . وفي تلك المرة بنى المحراب على هيئة تجويف غائر . ثم يأتي عبد الله بن طاهر في عام ٨٢٧ م ويزيد مساحة الجامع الى الضعف تقريبا . وأخيرا وبعد ما كان الجامع على وشك الاندثار رممه مراد بك في عام ١٧٩٢ م ليتخذ الصورة التي هو عليها الآن . ذلك الجامع الذي يعد أقدم جامع في مصر وبالتالي من أقدم الآثار الاسلامية . وفي عصرنا الحاضر أهمل الجامع القديم ولم يعد يمثل بالمصلين الا مرة واحدة في كل عام في الجمعة الأخيرة من رمضان .

ولقد أتى عليه حين من الدهر كانت فيه جدرانه الملونة مزخرفة بهاء الذهب وقد أودع فيه ١٢٩٠ مصسحفا وأثارت جنباته ١٨٠٠٠ مصباحا . وخلعت عليه أعمدته الرخامية ، التي ربما كانت قد جلبت من معبد لافروديت حيث شاهدت خلاعة طقوس عبادتها أو ظلت في يوم ما مذبحا مكرسا لديانة العذراء ماري الحفيفة ، مظهرا لغاية قد كسى الصقيع أشجارها . وكما امتلا صدر عمرو بالفخار وهو يشاهد جنوده يصلون في جامعة وقد انتظموا صفوفًا كصفوف المجاهدين أثناء القتال أمام المحراب ، الذي يذكره بكلمة الحرب والجهاد . فبعد المعارك التي وضعت ثروة مصر في أيدي العرب كان عليهم ان يخوضوا جهادا روحيا من أجل سعادتهم في العالم الآخر .

وتحيط بقصة بناء الجامع سحابة من الأساطير . فثناؤه بنائه طلب عمرو من الخليفة ان يرسل له عمودا من مكة فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمودا بأن يطير الى القسطنطين ، لكن العمود أبى الحركة بالرغم من إعادة الأمر عليه . وبعد ان أعاد عليه الرسول صلعم (وفي رواية أخرى عمر بن الخطاب رضي الله عنه) الأمر ثلاثة مرات ضربة بسوطه ومازال أثر الضربة باقيا في صورة عرق على بدن العمود الرخامي ، ثم أمره بسم الله ان يطيع ، وعندئذ ارتفع العمود في الهواء وعبر الفضاء كالسهم ، وهبط في المكان الذي كان المسجد يبنى فيه . وعلى العرق أو ما يقال عليه أثر الضربة يقرأ نقش غير ملموس نقشته يد غير بشرية ، وقيل أيضا ان هناك عمودين في بيت الصلاة لا يمكن ان يمر من بينهما الا الصالحين .

يرتبط اسم الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى توفى عام ٦٤٤ م بالقضاء على العادة الوحشية المعروفة باسم عروس النيل . فطبقا لعادة قديمة اعتاد المصريون ان يلقوا بفتاة صغيرة فى النيل كل عام كتعبير عن امتنانهم للخير الذى يجلبه اليهم . ويروى لنا المؤرخ ابن عبد الحكم كيف تم القضاء على تلك العادة البربرية فبعد الفتح العربى أتى المصريون الى القائد العربى عمرو فى شهر بؤنة قائلين :

« ايها الأمير ، لنيلنا هذا سنة لا يجرى الا بها » فسألهم عمرو :

« وما ذاك ؟ » فأجابوا : « انه اذا كان لثنتى عشرة ليلة تغلو من هذا الشهر ، عمدنا الى جارية بكر من أبويها ، فأرضينا أبويها ، وجعلنا عليها من الحل والسياب الفصل ما يكون ، ثم القيناها فى النيل » . فقال عمرو : « ان هذا لا يكون فى الاسلام » وان الاسلام يهدم ما كان قبله » .

وظل منسوب النهر منخفضا أثناء الشهور الثلاثة التالية لتلك الحادثة . ففهم الناس بمفادرة البلاد خوفا من المجاعة المنتظرة . فأرسل عمرو يستشير الخليفة الذى أجابه « أصبت » ان الاسلام يهدم ما كان قبله ، وقد بعثت اليك بطاقة فالتفتها فى داخل النيل » . وكان نص البطاقة : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى مصر ، أما بعد فإن كنت تجسرى من قبلك فلا تجسر ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فנסأله ان يجريك .

نفذ عمرو أمر الخليفة فى ليلة كانت عشية « عيد الصليب » عند الأقباط وفى ليلة واحدة كما يروى المؤرخ زاد النيل ستة عشر ذراعا وبذا نجا الناس من القحط والمجاعة .

وبعد تلك الحادثة استبدل الأقباط طقس « عروس النيل » بعيد يدعى « عيد الشهيد » . وكان يحتفل به فى شبرا ولكننا لانعرف الغرض منه وقد قيل ان الناس كانوا يحملون فى موكب كبير مقصورة بها ثلاث أصابع قيل عنها انها أصابع الشهيد بشون أدنى ايضاح (١) .

واستمر الاحتفال السنوى بالتضحية بعروس النيل ، لكن الفتاة استبدلت بعروس من الطين تكسوها ثياب العروس .

(١) يذكر القزوينى أن المقصورة كان بها أصبع واحد وفى عهد السلطان الصالح صالح بن قلاوون أمرت هذا الاصبع وألقى رماده فى النيل .

نمت الفسطاط وازداد تنسيقها وقد صارت العاصمة الادارية للاقليم . وقد غطت في نهاية الأمر مساحة على شاطئ النيل طولها خمسة كيلو مترات وعرضها كيلو متر واحد . فقد امتدت من بركة الحبش الواقعة الى الجنوب من دير الطين حتى جبل يشكر الذي سميني عليه فيما بعد جامع ابن طولون . وكانت المنطقة المحاذية للنيل تدعى « الحمراء » ومعظم أهلها من المسيحيين واليهود السوريين الذين كانوا قد انضموا للمسلمين لأسباب سياسية وقد انقسمت تلك المنطقة الى ثلاثة أجزاء هي على التوالي من الجنوب الى الشمال : الحمراء الدنيا (قرب نابليون) ، الحمراء الوسطى (أو الحمراء القنطرة) حيث نصبت الراية الحمراء أثناء الفتح العربي ، وأخيرا الحمراء القصوى ، وقد ازدادت أهمية هذا الجزء الأخير في عام ٦٤٢ م عند ما أعيد تطهير الخليج (وهو القناة التي كانت تربط البحر الأحمر والنيل) وذلك لارسال المؤن من الجنوب الى الجزيرة العربية .

لم يكن بالفسطاط منشآت ذات أغراض دفاعية عدا بناء واحد محاط بسيج من البوص (زربية) ، ربما تخلف من التحصينات التي كانت قد شيدت أثناء حصار حصن بابليون . ثم بعد أربعين عاما نسمح عن سياج من الكتان شيدته الخوارج وحفروا خلفه خندقا لحماية المدينة من قوات الخليفة مروان بن الحكم . ويحدثنا المؤرخ اليعقوبي عن منازل محصنة أقيمت بين الخطط كنوع من التحصين . كانت المدينة آمنة من أى اعتداء وفي حالة الهجوم عليها كان من اليسير على أهلها الفرار الى الصحراء التي شكلت لهم ملجأ آمنا .

وبالإضافة الى جامع عمرو كان لكل خطة مسجد لها الخاص فضلا عن المصل الذي شيد خارج المدينة ، وكانت تؤدي فيه الصلاة الجامعة في بعض المناسبات الخاصة . أما عن المنازل فكان محظورا عليها أن تتجاوز طابقا واحدا ارتفاعا ، لأن المسلمين كرهوا المنازل العالية التي يمكن منها اختراق حرمت الجيران . وبمرور الوقت شيدت الكثير من العمارات الهامة . ففي عام ٧٣٣ م نسمح عن دار الصناعة (١) « في الروضة » وعن ميناء « المقس » الذي يرجع تاريخه الى القرن الأول الميلادي . وقد أقيم على النيل جسرا بأمر الخليفة المأمون . وأقام الوالي عبد العزيز بن مروان منازل وأسواقا مسقوفة وحمامات . وعلى ضفاف النيل أقيمت مخازن عدة لاستقبال البضائع الواردة بطريق النهر . ونسمح في القرن

الثامن الميلادي عن بناء شونة للحبوب وعن منشأة لأمير المؤمنين كانت بدون شك مقرا للإدارة الحكومية . ثم شيد في القسطنطينية بعد ذلك بسنوات قليلة خزانة (بيت المال) . وفي عام ٧٥٠ م عندما كانت الدولة الأموية تحتضر ، فر الخليفة مروان الثاني من العباسيين الى مصر . و أمر بالقسطنطينية حيث وجد فيها مخازن عامرة بالفلل والقطن والتبن . وإلى الشرق من المدينة في المنطقة المحصورة بينها وبين المقطم تقع جبانها المعروفة باسم القرافة . وبالقرب من بوابات قصر الشمع كان يوجد في القسطنطينية تماثيل أحدهما عرف باسم أبو الهول وقد اندثر في القرن الرابع عشر والثاني أطلق عليه أبو مرة وهو اسم من أسماء الشيطان المعروفة . وكانا التمثالين يمثلان أوثانا حيوانية ، وقد صنع أولهما من الديوريت أما الثاني فكان منحوتا من الجرانيت الوردي .

وقيل أن عمرو قد شيد حماما عاما صغيرا عرف لصغره الشديد بحمام الفار . وكان بالمدينة حمامان آخران هما « حمام وردان » والآخر « حمام بصره بن ارنه » ، ولابد أنهما كانا شديدا القدم إذ أنهما يحملان اسمي اثنين من أصحاب عمرو .



أخذت المدينة تنمو تدريجيا وقد انقسمت الى قسمين ، كان من الممكن أن نميزهما بوضوح في عام ٧٥٠ م ، أحدهما كان يعلو الآخر . الأول كان يسمى « عمل فوق » والثاني « عمل تحت » ويحيط الأول بالثاني كنصف دائرة تمتد من جبل يشكر شمالا حتى جبل الرصد جنوبا مارا بالهضبة الرملية المجاورة لجبل المقطم ، أخذت منطقة « عمل فوق » في الامتداد شمالا على حساب منطقة « عمل تحت » التي عانت من أبخرة المستنقعات وكانت عرضة لأخطار الفيضان وغطتها سحابة دائمة من الأتربة والدخان الذي تحمله الرياح . وفي الصيف كانت تنفثها أبخرة سوداء ومن ناحية أخرى اعتاد السكان أن يلقوا بالقمامة والرم في الطرقات . وكثيرا ما عاقت الصخور السطحية تصريف المراحيض مما كان يؤدي الى تصاعد الروائح الكريهة التي تؤدي المناطق المجاورة . وقد ذكر المقرئ ان تلك المراحيض كانت تصرف في النيل رغم انه كان مصدر مياه الشرب الوحيد للمدينة ولذا لم يقطن « عمل تحت » سوى الفقراء أو من تتصل أعمالهم بشكل مباشر بنهر النيل الذي كان طريقا ملاعبيا هاما . أما الآخرين فقد هجروها تدريجيا صاعدين أعلى الى المناطق الشمالية والشرقية . وفي عام ٨٢٠ م بنى الوالي العباسي حاتم بن هرثة قبة الهواء في المنطقة التي شيدت عليها فيما بعد قلعة

الجبل وذلك حتى يستمتع بالنسيم الغليل الذي كان يداعب منحدرات الهضبة طيلة العام . وفي نهاية القرن العاشر أقام الخصى كافور دار الفيل بالقرب من « بركة قارون » حيث كان الناس يذهبون للاستمتاع بمياه النهر الساحرة والتنزه في القوارب ، لكنه سرعان ما أدرك أن الموقع غير صحي . ولذا شيد إلى الشمال القصر الذي حمل اسمه والذي أدمج بستانه فيما بعد في مدينة القاهرة الفاطمية .



كان نمو القاهرة ارتجاليا لا تحكمه خطة ولا نظام ، فهي تمتد في اتجاه تارة ثم في اتجاه آخر تارة أخرى . وبمرور الوقت أخذت المدينة تعي مشاكلها . ومن ثم سئل حظ اتجاه المدينة المستمر إلى التوسع شرقا وشمالا . ملا العمران قلبه الفسطاط الذي كان يمتد بمحاذاة النيل من قصر الشمع جنوبا إلى جبل الكبش بالقرب من غم الخليج شمالا ، لكنها لم تشغل الحيز الكلي للمدينة القديمة ، فقد ارتكبت بعض المناطق صحراء ، مثل المنطقة الشمالية (الحمراء القصوى) وأرض جبل يشكر . ولكن ليس لفترة طويلة ، ففي عام ٧٥٠ م دخلت مصر القوات العباسية التي كانت تطارد الخليفة مروان الثاني ، الذي كان قد أحرق الفسطاط . لم يبق السادة الجدد بالفسطاط لكنهم شيدوا لهم مقرا يدعى دار الامارة في منطقة « الحمراء القصوى » - وحولها ظهر حي جديد اضم لمسجدنا وتكنات للجنود وأسواق ومنشآت مختلفة ، وعرفت تلك المنطقة باسم العسكر في عام ٧٥١ م ، وقد قصد بها العسكر ، وفيها أقام ٦٥ وإلى عباسي خلال ١١٨ عاما .

وبالرغم من ذلك كانت الغلبة للمناطق المجاذبة للنهر فقد استفادت الفسطاط من سقوط الطولونيين ، وتراجع النهر ، ومن استخدامه كطريق للنقل التجاري . فضلا عن هذا كان من السهل تغذيتها بالمياه من النهر . وأخيرا انتهت العسكر بأن ذابت في الفسطاط بعد أن فقدت اسمها .



اتخذت الفسطاط تدريجيا شكل مثلث ذو ثلاثة أبواب من : « باب الصفا » في الشرق و « باب خصر » في الشمال و « باب القنطرة » في الجنوب وكان النيل هنا بمثابة وتر المثلث . واشتهر إتصاف المدينة بالنهر لأنه مكنها من احتكار التجارة وبالتالي الصناعة .

فيقبله صارت مركزا هاما للتبادل التجاري وكانت مركزا للطرق التجارية التي وصلت الى الجزيرة العربية والمغرب وسوريا والجزر اليونانية وأفريقيا السوداء .

كما ذكرنا فيما سبق واصلت المدينة تقسمها في الاتجاه الشمالي الشرقي لكن على مضض ، فقد جاهدت الا تفقد ارتباطها بالنهر . أما المنطقة البعيدة المجاورة لجبل المقطم فقد تركت للموتى . وقد أقيمت فيها مقابر للأقباط والمسلمين ، وقد عرفت جبانة المسلمين « بالقرافه الكبرى » وربطت بقلب القسبطاط عن طريق شارع جنازى سمي « طريق الوداع » . وفي تلك المنطقة أقيمت أضرحة للسيدة نفيسة وللائمة المبجلون « الشافعى والليثى وسيدى عقبة » . وبهذا تشكلت مدينتين متجاورتين ، أحدهما من منازل والأخرى من مقابر . وقد واصلتا الزحف جنباً الى جنب على نحو متماثل .

دام ازدهار القسبطاط وقد أدمجت فيها العسكر قرونا عدة . وقد أولى الرحالة الذين زاروا مصر في أوج ازدهار الحكم الفاطمى القسبطاط اهتماما كبيرا . ووصفوها بأنها أشبه بمدينة اقليمية لكنها عامرة بالسكان ومفعمة بالحياة . وقد قدرها ابن حوقل والاصطخرى سنة ٩٧٧ م بثلاث مساحة بغداد . ولكن في خلال بضعة سنوات صارت القسبطاط قلب الامة الاسلامية ، حيث أولى كافور الاخشيدى العلوم والآداب عناية كبيرة وشيّد بها مدرسة . والى جانب جامع عمرو أضيفت ستة جوامع أخرى ، لكن جامع عمرو حافظ على مكانته كمركز تدور حوله كل أنشطة المدينة . كانت الأسواق تشقى بالناس والمصانع التي تنتج السكر والورق وعلى النيل أقام ميناء المقدس ودارا لصناعة السفن بنيت في عام ٩٣٦ م . وفي عصر الخليفة الحاكم بأمر الله عمر الفضاء الكائن بين جبل يشكر والقسبطاط . وغطت الحدائق أطراف بركة الفيل ومنحدرات جبل يشكر الفضاء الواقع بين الخليج والنيل .



وقد دهش المقدسى لعظم عدد سكان القسبطاط في عام ٩٨٥ م . ففي يوم الجمعة كان يؤدى الصلاة عشرة آلاف رجل خلف الامام . واحتكر سوق القناديل الكائن جامع عمرو التجارة والعمالات وانتشرت في كل مكان منازل من أربع أو خمس طوابق كان بعضها يتسع لمائتى نفس وقد وصفها هذا المؤرخ بأنها أبهى مدن الاسلام وأكثرها عمراناً ، وفضلاً عن ذلك كان المرء يجد فيها كل الأشياء التي قد يحتاجها في حياته بأسعار زهيدة حيث كانت تتدفق عليها البضائع من أرجاء العالم

باستمرار . وطبقا للتقشندى فقد كان الرخاء عاما في الفسطاط في نهاية القرن الميلادي حتى ان الأغنياء لم يجدوا فقراء يؤدون اليهم الزكاة ، فشكوا الى الوزير كافور الذي أشبى عليهم ببناء المساجد وتورث اموالهم . ووصف الرحالة الفارسي « ناصري خسروي » سوق القناديل في عام ١٠٤٦ م بأنه أغنى أسواق الدنيا ويشير بدهشة فائقة الى ارتفاع منازلها فيذكر أن منها من كان ذو أربعة عشر طابقا ويذكر ان الحنائق كانت تفرس على السطح المنازل ، وقد عدد صنف البضائع الفاخرة والنادرة التي كانت تباع في الفسطاط وتحدث عن مصنوعات المحلية . وقد امتدح هدوتها وأمنها وحسن سياحة حاكمها .

ولقد ترك لنا الرحالة المسعودي وصفا للاحتفال بعيد الفطاس كما دار في ١٠ يناير ٩٤١ م وهو وقت تكون فيه مياه النهر على درجة كبيرة من النقاء . وكانت تغلق فيه فتحات الأحوسة الممتدة من تانيس الى دمياط وفي مدن أخرى في منطقة البحيرة وقد أمر والى مصر (١) باضاعة شاطئه جزيرة الروضة . وشاطئ الفسطاط المقابل له بالفي مشعل فضلا عن المصاييح التي أوقدها خاصة القوم وأسرع الألوف من المسلمين والمسيحيين الى شاطئ النهر للتنزه في القوارب ، وفيها كانوا يتبارون في اظهار الفراء ، وكانوا يأكلون في أواني من الذهب كما يذكر المسعودي ، ويتزينون بفاخر الحل ، بينما تصمدح الموسيقى في كل مكان ، وعليها تمايل الراقصات . وفي تلك الليلة كان الناس يغطسون في النهر اعتقادا منهم أن ذلك الحمام كفيل بوقايتهم من الأمراض .



اتصلت ضاحيتي الجيزة وجزيرة الروضة بالشاطئ الشرقي عن طريق جسر مزدوج وكان بالروضة جامع وفيلات أنيقة ، أما طرفها الجنوبي فكان يضم مقياس النيل الذي يقيس ارتفاع فيضان النيل . وقد شيد في عام ٧٥١ م . ثم أعيد بناؤه في عام ٨٦١ م بأمر من الخليفة المأمون ثم الخليفة المتوكل الذي أوفد من العراق معماري مشهور هو محمد بن كثير الفرغاني وقد صممه رياضي يدعى محمد النصيب الفلكي ، ثم رعمه الخليفة المستنصر بالله في القرن الحادي عشر الميلادي . ويتألف مقياس النيل من بئر مستطيل متصل بقاع النهر ، ومن أعلى يفتح على فناء مربع مزين بأربع حنيات بيضاوية . وفي مركز البئر ينتصب عمود رخامي مثنى قسم الى درجات أو أذرع تحدد ارتفاع الماء . ويمكن عن طريق سلم دائري قد في الحوائط البئر ان تنزل حتى سطح

(١) محمد بن طليح الأغنياء .

الماء الذى يكسبه الفلام مظهر مرمر أسود سائل • وعلى الضفة المقابلة
مثلث الحيزة مدينة صناعية صغيرة • على أطرافها شيدت خيلات فاخرة
وجهت بطريقة تسمح لها باستقبال نسيم النيل •

لم يكن بناء العسكر ثم ألقاطع ثم القاهرة على التوالي نهاية
الفسطاط • التى ظلت لمدة طويلة إحدى أهم مدن العالم الإسلامى • وكان
على القاهرة ان تنتظر سنوات طويلة قبلما تتمكن من التفوق على شقيقتها
الكبرى الفسطاط • وعندما اتخذ الخلفاء والاستقراطيون من القاهرة
سكنا لهم • لعبت الفسطاط المزدحمة بالسكان دور المدينة الصناعية
والتجارية • كما يشهد بهذا ما عثر عليه فى خزائنها من خزف قديم
ومصنوعات زجاجية • واستمرت فيها مصانع الحديد والنحاس والصابون
والزجاج والورق والسكر والمنسوجات دائرة حتى القرن الثالث عشر
الميلادى • وفى عام ١١١٩ م صنعت فيها حلقة من النحاس المطروق
مقسمة الى درجات يبلغ قطرها أقدام وتزن بضع أطنان • وقد استخدمت
كحامل لآلة للرصد الفلكى •

زار الرحالة الفارسى ناصرى خسرو الفسطاط فى عهد الخليفة
المستنصر • فى أوج ازدهار الامبراطورية الفاطمية • ثم بدأ الضعف يلب
فيها فى النصف الثانى من مدة خلافته الطويلة التى امتدت بين عامى
١٠٣٥ - ١٠٩٤ حيث قضت المجاعة والفتن العسكرية على رخاء هذا
العهد • وكانت ضربة قاصمة للفسطاط التى اعتمدت على تجارتها
السلمية • وكانت أكثر مناطقها تأثرا هى المنطقة الشمالية والقطائع
مدينة الطولونيين ومدينة العسكر المتينة • فقد هجرها أهلها واستحوالت
الى خرائب • واعيد استخدام ما أمكن نقله منها فى أبنية القاهرة فى عصر
بدر الجمالى • وتبع ذلك بناء حوائط حتى تحجب منظر الخرائب الكئيب
عن نظر الخليفة اذا ما غادر القاهرة متوجها الى الفسطاط مارا بالشارع
الأعظم • وفى عصر الخليفة الأمر (١١٠١ - ١١٣٠ م) أمر وزيره المأمون
البطائى كل من يملك عقارا خربا بأن يصلحه أو يسكنه أو يبيعه
أو يؤجره والا فقد حق ملكيته • لكن هذا الأمر أدى فقط الى ظهور احياء
جديدة جنوب القاهرة بين ميدان الرملية وباب زويلة •



أتت نهاية الفسطاط فى عصر الخليفة العاضد بينما كان جيش
الصلبيين يزحف عليها • فعلى النقيض من القاهرة الجاورة لها • ظلت
الفسطاط عارية من التحصينات • وخشى الوزير شاور ان يتخذ

الضالبيون الفسطاط قاعدة لهم ، فأمر سكانها بالرحيل ، فغادروها كلهم
« كأننا خرجوا من قبورهم الى المحشر : لا يعاى والد بوته ولا يلتفت أخ
الى أخيه » وفي القاهرة أوى المهاجرون فى المساجد والحمامات والشوارع

وبمجرد ان أخلت المدينة حمل إليها شاور فى ٢٢ نوفمبر ١١٦٨م
عشرين ألف قدرة نبط وعشرة آلاف مشعل ، وأضرم فيها النار . تحولت
المدينة الى موقد ملتهب رهيب واستمرت النار متأججة أربعة وخمسين
يوما محت فيها المدينة ، ولم تترك منها الا هيكل هزيل . لكن بقايا تلك
المدينة ، جدة القاهرة ، التى قاومت النار كان اعلانا منها بأنها ترفض
الإنذار دونما ان تترك أثرا مهما كانت سوء حالته .

أخذت القاهرة الفتية فى التبعاد عن الفسطاط الميتة وقد فصلتها
تلال من الركام ، يخرقها طريق ترابى يبدأ من باب زويلة (جنوب
القاهرة) ، ويمتد الى المنازل القليلة المحيطة بجامع عمرو ، وهى المنطقة
الوحيدة التى عمرت بعد الحريق . وقد أخذت المدينة تناضل للبقاء .
فبالرغم من الأوبئة والمجاعات التى فتكت بسكانها مرات ، الا انها استمرت
تغلب دورا هاما فى اقتصاد البلاد ، ولكن دون ان تصل أبدا الى سالف
مجدها الذى بهر ناصرى خسرو . ذات يوم . لقد تحولت بوابة المدينة
والكثير من المنازل الى خرائب وصاوت شوارعها ضيقة قدرة ، اما جامعها
الذى كان قد أصلحه صلاح الدين بعناية فائقة فقد هجر من جديد وأصبح
طريقا للسيارة . ورغم هذا فعنما كان المرء يلتفت بنظره الى النيل كان
يرى عددا من السفن التجارية الراسية يفوق كل مارآه من قبل ابن سعيد
الرحالة المغربى فى القرن الثالث . واستمر السكر والحريز يصنعا بها
واستمرت أيضا مركزا للتجارة والصناعة ومنها تنقل البضائع الى
القاهرة . وعلى النقيض من القاهرة المدينة الحديثة الحربية مثلت
الفسطاط مدينة تجارية مشغولة بمصالحها المادية . وقد امتدح ابن سعيد
وداعة أهلها فقال « لم أوقف فى أى من البلاد أكثر من أهل الفسطاط مودة »
ويصفهم بالركة وذلاقة اللسان والتسامح كتجار اصلاء يحاولون
مضاغة معارفهم .

ولدة قرن من الزمان يمكننا متابعة تاريخ الفسطاط عن كتب ،
لقد تداولتها النواذب وأخذ أهلها يهجرونها وأخيرا عجزت عن منافسة
القاهرة بشارها الذى لمع كفتاو يرسل ضومه عبر مصر . وتدرجيا أخذت
القاهرة فى اجتذاب التجارة إليها على حساب الفسطاط ففى المصور
الوسطى لم تعد أسواقها تجلب انتباه الرحالة الذين اهتموا بوصف

أسواق القاهرة التي أدهشتهم • ويختفى اسم المدينة في الظلام ولا يبق
منها سوى اسم مصر •

ويكاد يكون تاريخ الفسطاط مجهولا بدءا من القرن السادس عشر
ميلادى بينما أخذت القاهرة فى الازدهار وتعاطمت سطوتها حتى صارت
الفسطاط تعرف فى النهاية بمصر القديمة •



بلغ عدد سكان مصر القديمة أثناء حملة نابليون عشرة آلاف نسمة
تقريبا من بينهم ستمائة مسيحي • وقد أشار علماء الحملة الى أهمية
مينائها فى الملاحة النهرية الى مصر العليا وفى القرن التاسع عشر صارت
منطقة نشطة ، وبلغ عدد سكانها فى احصاء ١٨٩٧ م واحد وثلاثين
ألف نسمة •

وفى الواقع تمتد مصر القديمة بحذاء شاطئ النيل ويلتحم طرفها
الشمالى مع مدينة القاهرة • وباستثناء جامع عمرو لم يبق من آثارها
القديمة شئ ، فمتذ نهاية العصر الفاطمى غطت بقاياها آكوام من الأتربة
تمتد حتى جبل المقطم ويذكرنا مرآها بالصحراء لكنها صحراء تربتها
داكنة وزلطية تثير انقباضا فى النفس كأنها بحر رهيب من الرماد متميزة
عن الصحراء اللانهائية المحيطة به والتي تنبسط الى الجنوب بلونها ،
الذى يتراوح بين الذهبى والأحمر النارى •

القطائع

ولد أحمد بن طولون في بغداد في عام ٨٣٥ لأب من العبيد الأتراك . وتلقى تعليما جيدا ، ففضلا عن دراسة العربية وحفظ القرآن درس الفقه والالهييات . وعندما عين حماء بكياك واليا على مصر ، أرسله اليها ككاتب عنه . وبعد فترة من الزمن عينه الخليفة العباسي حاكما من قبله على مصر ووصف ابن خليكان أحمد بن طولون بأنه أمير عادل كريم ، شجاع ، تقي ، وحاكم كفء صادق الفراسة ، مترفع عن الدنيا . فقد رفض أن يسمم بانه خمر الخليفة المنصور بعد أن عزل . وعندما أتى مصر رد عشرة آلاف دينار أرسلها اليه كهدية القائم على خراج البلاد وبذا اكتسب سمعة كرجل نزيه اهل لأن يحفظ أدق الأسرار .

كان محبا للعلماء ، وقد حرص على أن يجعل مائدته مفتوحة لأصدقائه وزائريه ، وكان يخصص ألف دينار للفقراء في كل شهر . فضلا عما كان ينفقه من نفور وهبات يبتغى بها مرضاة الله ، ولحمه على نعمائه ، مثل توزيع الطعام في كل يوم على أهل المدينة . وكان يضيف كل مسكين أربع أرغفة اثنان منهما بالقالودج (عجينة من النشأ والعسل) والآخران حشويا بالطعمة مختلفة . وكان التوزيع يتم في دار ابن طولون الذي كان يشعر بسعادة حينما يرى الفقراء يتسلمون حصصهم من الطعام . « فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته » (المقريزي) وقد أنفق الكثير على تشييد عمارته الفاخرة وأنقص الضرائب ولم يلجأ

الى الابتزاز من أجل توفير المال اللازم لمنشأته بل عمده الى تحسين استغلال الأموال العامة . كان قد جاء مصر شابا في السادسة والثلاثين ، فقيرا حتى انه اضطر الى اقتراض عشرة آلاف دينار من صديق له حتى يغطي مصاريفه الاولى ، لكنه عندما مات بعد ستة عشر عاما خلف عشرة ملايين دينار في الخزانة العامة وحرسا من سبعة الى عشرة آلاف مملوك وأربعة وعشرين ألف عبد واصطبلا به ثلاثمائة جواد وألوف البغال والحمير والجمال فضلا عن أسطول من مائة مركب حربي .

لقد كان قاسيا ، لكنه ، كان عادلا ، وعرف كيف يخلب الباب الناس ويكتسب احترامهم وتعاطفهم . سأله أحد أتباعه يوما هل يجوز أن يمنح صدقة لسائلة حسنة الهندام وتلبس في أصبعها خاتما من ذهب . فأجاب ابن طولون : أعط من يبد لك يده . وفي عصر نفس هذا الأمير مات في السجن أو محبسا ثمانية عشر ألف نفس .

*

سرعان ما ضاقت دار الامارة في مدينة العسكر بجموع حاشيته وجيشه . ولم يكن هناك قصر مهما عظمت مساحته يكفي ابن طولون الذي كان يحتاج لمدينة كاملة شيدتها على جبل يشكر في عام ٨٧٠ م شرق القسطنطينية . وقد أمر ابن طولون بحرق الأرض التي ستقام عليها بمدينة القطن (أو الأحساء) وبسبب هذه التسمية أن كل طبقة أو حنسية عاشت في حي مستقل بها مثل (خدم القصر والروم والسودانيون) . وقد اختير هذا الموقع لأسباب عدة : أولا : رغب ابن طولون في أن يحيا في مكان أقل رطوبة من العسكر وأكثر انعاشا . فضلا عن أن هذا الموقع يسهل الدفاع عنه ضد أي عدو . محتمل لقربه من جبل المقطم (ولا يجب أن ننسى أن النيل في هذا العهد كان قريبا من جبل يشكر مما أدى الى ظهور برك ومستنقعات بتلك المنطقة) . ثانيا يبدو أن ابن طولون قد تأثر بعبادة الملوك الشرقيين في تجنبهم سكنى خيام أو خفافاتهم وتفضيلهم لبناء قصور جديدة أما ليبرها رعاياهم ، وأما للحفاظ على جلال سلطانهم بابتعادهم عن رعاياهم المدنيين الذين غالبا ما تملأهم روح الثورة وبالتالي يمثلوا خطرا عليهم وربما دفعه الى هذا أيضا تعاؤمه من سكنى مساكن قوم قد أصابهم سوء الحظ . وهكذا فإن سقوط أسرة حاكمة في الشرق كان يعنى النهاية لمدينة وتأسيس أسرة حاكمة يؤدي الى بناء مدينة جديدة .

*

امتدت القطن من ميدان الرميطة في سفح المقطم حتى جامع زين العابدين ، وكانت مساحتها ميلا مربعا واحدا ، على جبل المقطم بنى

قصر بديع لابن طولون فى الموقع الذى كانت تشغله قبة الهواء وكانت به حديقة كبيرة وحديقة للسباق (ميلان) * وأفراد فيه بناء مستقل للحريم * وبالمثل أقام الموطفون لهم مساكن فى أماكن متفرقة وازدانت المدينة بمبائر جيله مثل القصور والحمامات والأسواق التى تقطعها السكك والأزقة * وكان بها أسواقا عديدة سميت بأسماء لا علاقة لها فى الغالب بالبضائع التى كانت تباع فيها * فعلى سبيل المثال كان فى سوق الحدادين تجار للأقمشة وضم « سوق القماحين » حوانيت قصاين وفاكهيين وشوائين * وفى سوق الطباخين أقام الصرافون والخبازون والحلوانيون الى جانب الطهاة *



كان لمدينة القطائع طابعا عسكريا شاركتها فيه مدينتي القسطنطينية والعسكر فحواطئ الجامع الضخم الذى أقامه ابن طولون كانت مزودة بشرفات أضفت عليه طابع القلعة * ويكشف تخطيط المدينة عن منشآت ابن طولون الضخمة التى كان يقطعها شارع تجارى ممتد بين الجامع والقصر والميدان * وعلى جانبي المدينة امتد طريقان كبيران متوازيان يبدأ من الميدان وسمحت الشوارع العرضية التى ربطت بينهما لرياح الشمال وللحواء بأن يدخلتا الى كل مكان * وسرعان ما التحمت مبان القطائع بحدود القسطنطينية والعسكر واختفت خرائب البيوت القديمة التى كانت قائمة حول بركتي قادون والفيل * شيد ابن طولون جامع بين عامي ٨٧٦ - ٨٧٧ م * وهو الأثر الذى وصلنا من مدينة القطائع الصغيرة ويعتبر من أهم آثار مصر الإسلامية ومعلما هاما وانشأؤه يعد بداية لعصر جديد فى فن العمارة * وهو يتميز بميزتين عن الجوامع الأخرى التى كانت قد بنيت من قبل فقد بنى كلية من مواد جديدة ولم يدخل فى بناءه مواد جلبت من المعابد أو الكنائس القديمة * وتظهر فيه لأول مرة العقود المدببة تدبيرا خفيفا * وقد نحتت الزخارف على الجص بدلا من استخدام القوالب وتميزت بليوننة كبيرة * ويروى المقرئ أن ابن طولون عثر على المال اللازم ، لبنائه فى صورة كنز مخبئ فى جبل المقطم وقد اعتمد بنائه بحيث يتسع لكل أهل القطائع لأن جامع عمرو كان قد ضايق بالمصلين منذ وقت طويل * واختار موقعه على القمة الشل الصخرى الموجود على قمة يشكر المسطحة لأنه موقع تجاب فيه الدعوات حيث اعتقله أن موسى النبى كان قد خاطب الله على ذلك التل *

وبمجرد أن وضع الأساس سار العمل بخطوات سريعة وتم البناء بعد عامين وأودى فيه الصلاة الجامعة بحضرة الأمير . وفي بادئ الأمر واجهت ابن طولون مشكلة تدوير ٣٠٠ عمود من الرخام ضرورية لحمل عقود الجامع وكان لابن طولون مهندس مسيحي أو ربما قبطي (١) ، وكان قد سجن لأمر قافه ، وأرسل هنا لابن طولون قائلا انه يستطيع بناء الجامع بالأبعاد المطلوبة دون استخدام أعمدة عدا عمودى المحراب فاستلغاه فوراً وطلب منه ان يرسم تخطيطاً للجامع الجديد ، ونفذه المهندس وأعجب به ابن طولون فخلع عليه ثوب شرقي ومنحه ألف دينار لبناء الجامع . وبمجرد ان أقيمت حوائطه منحه عشرة آلاف دينار أخرى وفي النهاية بلغت جملة تكلفة الجامع مائة وعشرون ألف دينار . وبدلاً من الأعمدة شيدت دعائم من الحجر غطيت بطبقة سميكة من الحجر شكلت بزواياها أعمدة ملتصقة .

فضل ابن طولون الا يستخدم أعمدة في جامع له لسببين أولهما انهم كانوا سيجلبونها من كنائس قبطية مما يؤدي الى تعكر صفو العلاقات الطيبة بين المسلمين والمسيحيين ، وثانيهما ان المواد الجديدة التي اقترحها المعماري كانت أكثر مقاومة للنار اذا ما اشتعل حريق . وأخيراً يرجع بعض مؤرخي الفن الاسلامي ان ابن طولون قد قلده الاسلوب المعماري الذي كان سائداً في وطنه ، أي العراق ، حتى انه اقتبس من الزاقورة الاشورية شكل مذنبته . لكن الاسطورة دائماً أجمل من الحقيقة وهي تقص علينا ان ابن طولون كان دائم المباهاة بأنه لا يضيع وقته أبداً فيما لا يفيد لكنه رأى في ذات يوم يعيث بورقة وهو شارد الذهن وقد شكلها بأصابعه على هيئة قرطاس ، فسخر من هذا أحد أتباعه . فأله هذا ولكي ينقذ ماء وجهه تظاهر بأنه كان يصنع نموذجاً للمذبة الجامع الجديد وأرسل يستدعي معماريه وأمره بأن يصنع المذبة طبقاً للشكل الذي عمله بأصابعه .

ولابد ان مظهر الجامع كان خلافاً في لحظة افتتاحه . فقد كسيت الجدران بالسيفسقاء حتى الأمايز . وبلطت أرضيته بالمرمر وغطيت بحصر بديعة من Samanah ومسجاجيد من البهنية . وقد كتب القرآن كله بحروف ذهبية على افريز يجري أعلى البوالتك يعلوه افريز آخر بزخارف مفرغة ، قيل انه كان مشغولاً على نحو بديع بالمعبر :

(١) تستخدم هذه الكلمة اليوم للدلالة على مسيحي من أتباع الكنيسة المصرية .
وان كانت في الأصل تعني مصري . ويبدو انها تحريف للكلمة « حوت » كان يتاح «
المصرية القديمة وكانت اسماً لمدينة ممفيس القديمة .

لها القبة التي كانت تغطي نافورة الوضوء فقد كانت محمولة على أعمدة رخامية في وسطها تماما توجد الفوزة المثبتة في حوض من المرمر الشرقي . وبين الأعمدة الصغيرة امتدت مشبكات ذهبية . وتدلّت من السقف المزين بنجوم مصابيح ومباخر . أما المحراب الموجود في بيت الصلاة فقد تألق من التذهيب وطلى بروح الورد والصندل والزعفران . وكان انبهر ودكه المبلغ من الأخشاب الثمينة . وفي المساء حينما يحل ظلام الليل ترسل المصابيح البرونزية الضخمة (الثنائير) خيوطا من ضياء لا تبدد الظلام تماما الذي ينكمش الى ظلال متناثرة على أرض الأروقة وينطلق كسحابات في فضاء الجامع فتجرد المادة من أبعادها فلا يبق من الأشياء سوى ظلالها ولمعات من ألوان متغايرة في جو تعبقة رائحة البخور .

ويروي القلقشندي أن ابن طولون ، بعد أن غرغ من بناء جامعہ حلم أن نارا قد هبطت من السماء والتهمت الجامع الجديد دونسا أن تمس ما حوله . وفسره له حكيم من الحكماء فقال : « أبشر يقبول الجامع ، لأن النار كانت في الزمان الماضي إذا قبل الله قربانا نزلت نار من السماء أخذته ، ودليله قصة قابيل وهابيل » .

استمر الجامع عامرا بالصلاة فترة طويلة لكنه في النهاية هجر . واحترقت النافورة الرخامية وقبتها التي شيدت في قلب المسجد سنة ٩٨٦ م . وفي وقت من الأوقات اتخذ بيت الصلاة المهمل مأوى للحجاج القادمين من أفريقيا الشمالية قاصدين مكة المكرمة ويزعم الرحالة الفارسي ناصري خسرو أن أحفاد ابن طولون قد باعوا الجامع للخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢٠ م) بمبلغ ثلاثين ألف دينار وبعد فترة من الوقت شرعوا في هدم المئذنة ، وعندما علم الحاكم بذلك أرسل اليهم قائلا : « ألم تبيعوني الجامع فكيف إذا تهدموا ؟ فرد الطولونيون : « نحن لم نبيع المئذنة » . فاشتراها منهم الخليفة بخمسة آلاف دينار . وهذه القصة سواء صدقت أم كذبت تظهر لنا أن هذا الجامع العظيم كان قد هجر .

لجأ الأمير لاجين الى الجامع في عام ١٢٩٦ م واختفى فيه عن عيون أعدائه ، وهناك نذر أن ظل على قيد الحياة ليعمرن الجامع . وعندما صار سلطانا وفي بذرته ليتألق الجامع مرة أخرى قرونا عديدة مياها بفنونه .

والجامع الآن وإن حافظ على ضخامته إلا أن بهاؤه قد ذبل وشاب بناؤه الهرم ولث الصمت جوانب الجامع العتيق فلا يسمح صوت الا صرخات الطيور تتردد في جنباته من حين الى حين ، ساد الظلام رحابه وأروقته العديدة التي يخيل للناظر إليها أن عشرات الرايا تضاعفها .

وانقطعت فيه العبادة ولم تعد الصلوات تسبح في رحاب بيت الصلاة العتيق .



ذكرنا من قبل « الميدان » وهو ميدان واسع استخلف للتدريب على المصارعة وركوب الخيل وكساحة للاستعراضات العسكرية ويمكن ان يلهو فيه عليه القوم بلعبة البولو وذكر المقرئ انه عندما كان يسأل امرئ الى أين هو ذاهب كان يجيب دائما بأنه ذاهب الى الميدان . وقد احاطه ابن طولون بسور فتحت فيه أبواب عدة جعل كل منها اسما خاصا وأدى دورا محددا . فمن « باب الميدان » كان الجيش يدخل ويخرج . وخصص بابي « الصوالجة » و « الخاصة » للمقربين من ابن طولون . وقصر « باب الحرم » على النساء والتطفيات . وغرف « باب الدرهم » بهذا الاسم نسبة لاسم عبد اسود ضخم المثبة كان يجلس بجواره وكان مكلفا بتأديب من يخطئ من العبيد السود . أما « باب الساج » فقد كان مصنوعا من خشب الساج . وسمى « باب الصلاة » بهذا الاسم لأنه كان مشيدا على الشوارع الأعظم (الطريق الرئيسي) الذي كان يؤدي الى جامع ابن طولون حيث كانت تقام الصلاة .

وقد عرفه أيضا باسم « باب السباع » بسبب وجود أسدين من الجبس عليه

سد ابن طولون الطريق الواسع الذي كان يؤدي الى قصره بحائط فتحت فيه ثلاثة أبواب متجاورة ، الأوسط منها كان مخصصا للأمير ولم يكن لمخلوق أن يدخل منه الا يوم توزيع الصدقات اذ تفتح البوابات الثلاث معا .

كان بالقصر قاعة « مجلس » يجلس فيها ابن طولون حينما يستعرض جيشه أو توزع الصدقات ، حتى يشاهد من أعلى جموع الناس التي تدخل من باب الصوالجة وتخرج من باب السباع وفوق هذا الباب كانت توجد قاعة « مجلس » أخرى يشاهد منها ابن طولون تدريبات وأسلحة جنوده . فان أعجبهته مهارة أحدهم منحه هبة تمكنه من العيش واللبس طبقا لرتبته . كان هذا المرقب مكان جلوسه المفضل . وكثير ما كان طولون يسرح ببصره الى النيل والفسطاط وضواحيها التي كانت تبدو بوضوح من هذا المكان .

كانت إحدى القناطر تغذى قصر ابن طولون بالماء ، الذى كانت تجلبه من عين بالصحرَاء بالقرب من عين الصيرة . وذات يوم نما إلى علمه ان الناس يشكون من نوعية الماء فأرسل فى استدعاء العالم والطبيب ابن عبد الحكم ليعرف اذا ما كانت شكوى الناس تستند الى أساس صحيح أم لا . ويقول ابن عبد الحكم : « كنت ليلة فى دارى ، اذ طرقت بخادم من خدام أحمد بن طولون . فقال لى : الأمير يدعوك . فركبت مزعورا مرعوبا ، فطلعت بى عن الطريق ، فقلت : أين تذهب بى ؟

فقال : الى الصحراء ، والأمير فيها .

فايقنت بالهلاك ، وقلت للخادم : الله الله فى ، فاني شيخ ضعيف مسن ، أفتدري ما يراد منى فأرحمنى .

فقال : احذر ان يكون لك فى الساقية قول . وسرت معه واذا بالتشاعل فى الصحراء واحمد بن طولون راكب على باب الساقية وبين يديه الشمع ، فتركت وسلمت عليه ، فلم يرد على ،

فقلت : ايها الأمير ان الرسول اعتننى وكندنى وقد عطشت . احيأذن لى الأمير فى الشرب فأراد الفلمان ان يسقونى .

فقلت : انا آخذ لنفسى . فاستقيت وهو يرانى وازددت فى الشرب حتى كنت أنشق ، ثم قلت ايها الأمير ، سقاء الله من انهار الجنة ، فلقد أرويت وأغنيت ، لا ادرى ما اصف ، اطيب الماء فى حلاته وبرده ، ام صفاته او طيب ريح الساقية ، فنظر الى وقال : أريدك لأمر وليس هذا وقته ، فأصرفوه .

فصرقت .

فقال لى الخادم : اصبت .

أقام ابن طولون فى القطائع فارميتانا (مستشفى) فى عام ٨٧٢
أو ٨٧٤ م .



وصار محل عناية كبيرة منه . وقد خصصه لعلاج المدنيين وحرم على العسكريين والماليك أن يعالجوا فيه . وكان موضعه بين جامع ابن طولون وتل الجرة algarah من ناحية وقتطرة الخليج والفسور الذى يفصل جبانة الفسطاط من ناحية أخرى ، وأوقفت عليه عوائد دار الديوان ومساكنه فى حي الاسكافية والقيصرية وسوق العبيد ، كما شيده

فيه حمامين أحدهما للرجال والآخر للسيدات ، وأوقف إيرادهما على
البيمارستان أيضا .

كان على المرضى أن يخلعوا ملابسهم عند الدخول ويسلمونها إلى
الخازن . مع نقودهم ليحفظها . ثم يلبسون ثيابا خاصة ويرقدون في أسرة
يتناولون فيها الطعام والفلاج .

ثم يقوم الأطباء بفحصهم والعناية لهم حتى يتم شفاؤهم أى تسمح
لهم حالتهم الصحية بتناول طعاما مؤلفا من خبز ودجاج - وعندئذ ترد
اليهم نقودهم وملابسهم التي كانوا قد أودعوها .

اعتاد ابن طولون أن يزور المارستان يوم الجمعة من كل أسبوع
فيستفقد المخازن والأطباء ويعود المرضى والمجانين . وبينما كان يوما
يزور قسم المجانين خاطبه أحدهم وكان مكبلا بسلاسل ، قائلا :
« أيها الأمير اسمع كلامي ما أنا بمجنون ولكن عملت على حيلة . وفي
نفسى أن أكل رمانة عريشية أكبر ما يكون » فعل الفور أمر ابن طولون
بأن تعطى له واحدة فأخذها المجنون فزحها وأخذ يتسلى بقلعها من يد
ليد حتى أنسى غلظه من ابن طولون فقلعه بها في صدره ، فانشقت
ولطخ ماؤها ثيابه فاشتد غضبه وأمر بحبس المريض . ومنذ ذلك الوقت
امتنع الأمير عن زيارة المارستان .

وطبقا لرواية المقرئى فقد تم بناؤه ، كالجامع ، من ألف دينار
وبعدما الأمير في صورة كنز منحها الله له مكافأة لابطاله « المعونات »
و « المرافق » (نوع من الضرائب) فعندما كان يعلو بجواده في الصحراء
تعثر جواد أحد أتباعه وانفردت سبابه في أحد النقر ، وعندما وخضت
الفجوة تبين أن بها مليون دينار . (في الحقيقة يبدو أن ابن طولون قد
أحس بقوته فامتنع عن إرسال الجزية السنوية إلى بغداد عاصمة الخلافة
فتوغل له ما لا اعترم اتفاقه في تجويل القطاع) ويذكر المقرئى أيضا
أن ابن طولون شيد قلعة في الروضة سنة ٨٧٦ م لتكون ملجأ لحرية
وكنوزه إذا ما داهمه خطر . وأيضا للدفاع عن الممر المائي الذي فصل
الجزيرة عن القسطنطينية ، لكن فيضانا غالبا دمرها . ويذكر الإدريسي أن
ابن طولون شيد جامعين أحدهما في حن القرافة والآخر في الجزيرة التي
شكلها فرع النيل (الروضة) ومسجد ثالث في الجزيرة . وأخيرا فقد
شيد مسجد الثور على المقطم وفي العسكرك بني « ديوان الخراج »
وضاعفت من القنوات التي تمتد المدينة بالماء أو تصرفه مما أدى إلى تحسن
الأحوال الصحية .

بعد وفاة ابن طولون اعتلى العرش خمارويه ثانياً ابنائه البالغ عددهم ثلاثة وثلاثون . وكان الابن الأكبر عباس مسجوناً حينذاك عقاباً له على تمرده على أبيه ، وحتى يتجنب أى صراع فى المستقبل على العرش قام الحاكم الجديد بختق أخيه الذى رفض أن يبايعه . كان خمارويه فى الحادية والعشرين من عمره وكان مولعاً بالترف ، فمن الطبيعى أن يتوقع المرء أن يقع فريسة سهلة لشهوة السلطة فيسء استخدامها . وبالرغم من قراره المشين أمام أعدائه اتباع الخليفة العباسى فى أول معركة له معهم ، إلا أن خمارويه ما لبث أن ثاب إلى رشده وصار ملكاً نشطاً لم يحافظ على ملك أبيه وحسب بل استطاع أن يمد سلطانه إلى مناطق أبعد .

وفى أول مسنة من عهده تعرضت مصر لزلزال دمر العديد من المنازل وأصاب جامع عمرو والقبطاط بأضرار وراح ضحيته ألفاً من الأرواح . وعندما تأكد من شدة قبضته على أمور البلاد انصرف إلى تطوير القطائع ، فهلم بعض منشآت أبيه ليعيد بنائها على نطاق أعظم فزاد فى مساحة القصر وحول الميخان إلى حديقة غرس فيها زهوراً وأشجاراً من أنواع شديدة الندرة منها نخلة قصيرة يمكن لرجل واقف إلى جوارها أن يجمع ثمارها . وعلى جذوع بعض النخيل بُنيت أنابيب من رصاص أحيطت بغلاف من النحاس المذهب ، وعندما كان الماء يخرج من الأنابيب كان يخيّل للناس أنه يخرج من جذع النخلة نفسه يسقط فى أحواض نظمت بحيث يمكن منها توزيع المياه على القنوات العديدة التى كانت تروى الحديقة . وكان بها أحواض ريحان أعنتى البستانيون بتنسيقها عناية فائقة وشكلوا من الأزهار صوراً من كل نوع أو حروف . ومن بين زهور الحديقة البديعة كانت الزنايق وزهر المنثور (١) . ومن أجل خمارويه هجنت بعض أشجار الشمس مع أشجار اللوز . وقصد شيد فى وسط الحديقة برج من خشب « الساج » اتخذ بيتاً للطيور وقد زينت جدرانه بنقوش بارزة ملونة بألوان عدة . كانت قنوات المياه تخرق أرض الحديقة المبلطة وكانت تغنى دائماً بالماء عن طريق سواق . وفى تلك القنوات كانت الطيور تسبح وقد أسفت بأصواتها وألوانها الحياة على تلك الحديقة الباسمة التى أخذت الطيور تجوس فى ربوعها منها الطواويس والنساج الغينى وطيور أخرى كبيرة الحجم .

وفى داخل القصر بنيت قاعة عرفت « ببيت الذهب » كانت

جلسانها الرائعة تلمع ببريق الألوان التي اتخذت من الذهب • واللازورد،
وعليها نقشت صورته نقشاً بارزاً مع صور لزوجاته وموسيقى البلاط •
وقد نفذت الرسوم بأناقة ومثلت الشخصيات ترتدى تيجاناً من الذهب
الخالص أو عاتم مثقلة بالأحجار الكريمة وفي أذانهم أقراط ثقيلة •

وأمام القصر كانت توجد بركة لامعة من الزئبق فقد شكى خماروية
لطبيبها من الارق فنصحها بالتدليك ، لكن خماروية لم يكن يحب أن يلمس
جسده ، فنصحها الطبيب بأن يحفر حوضاً ويملأه بالزئبق • فصنع حوضاً
مربعاً طول ضلعه خمسون ذراعاً في كل زاوية منه عموداً من الفضة
الخالصة • وثبتت اليهم ستائر حريرية رائعة تتحرك بواسطة حلقات
من الفضة • وأمر خماروية بصناعة حاشية من الجلد ، فإذا ما نفخت
وضعها على الزئبق وأغلق الستائر ونام على الحاشية التي كانت تتأرجح
مع حركات الزئبق فتساعدك تلك الهزات على النوم وفي الليالي المقمرة
كان نور القصر المنعكس على سطح البركة الزئبقية يخلع على المنظر ثوباً
سحرياً يبعده عن عالم الواقع •

وينى في قصره بيتاً للأسود ، كان أحدهم يسمى زريق لزرقه
عينيه ، وكان شديد التعلق بخماروية ، وكان يتمتع بحرية كاملة ، فكان
يجوس في القصر دون أن يؤذنه مخلوق وفي الليل كان يرتدى طوقاً ذهبياً
ويسهر بجوار الأمير النائم ليحرسه ، وقد ضمت بيوت الحيوانات الأخرى
شوراً وفهوداً وقيلة وزراف •

✱

بنى خماروية حرمياً ليجمع فيه نسائه ونساء أبيه وقد خص كل
منهن مسكناً شديداً الاتساع ، حتى أنه اتسع لايواء قائده وأتباعه عندما
سقطت الاسرة الطولونية ، وكان الفائض من طعام كل وجبة في القصر
عظيماً ، واعتاد ختم القصر أن يبيعونه ، فإذا ما حل ضيف مفاجئ بمنزل
ولم يكن لدى صاحبه وقت كاف لاعداد الطعام كان يكفيه ببساطة أن
يلهب للقصر ليشتري بعضاً من بقايا المائدة •

وقد كون خمارويه حرساً عظيماً كان بعضه من رجال « الحوف »
وهم قوم عرفوا بالشجاعة وإن اشتهوا قطع الطريق • أما باقي أفراد
الحرس فكانوا ألف زنجي ، وقد تألف زعيم من درع جلدي وثياب
وعمامة سوداء • وكانوا إذا ما خرجوا للاستعراض مسلحين بسيفهم
الكثير بدوا للرأي كنهر أسود متساب تتناثر عليه لمعات بيضاء هي

خواف الكالوتات (١) البيضاء التي تظهر من تحت عمامتهم .

وأثناء المواكب كانوا يهرون أولا ثم يأتي خماروية محاطة باتباعه وكانت رهبته عظيمة حتى ان مخلوقا لم يكن ليجرؤ على ان يشير اليه بأصبعه أو أن يتحدث اليه أثناء سيره أو أن يحاول الاقتراب منه خشية العواقب . فإذا ما سار ساد الصمت جموع الناس فلا يسمح كلام ولا سعال أو عطس أو حتى أقل نفس . فكانهم واقفون وعلى رؤوسهم الطير .

كان سباق الخيل موضحة هنا العصر وكان الاحتفال به عظيما كاحتفال بالمعيد . وقد بنى خماروية « ميلانا » آخر أكبر من ميدان أبيه . وبنى قبة في قصره تشبه قبة الهواء صياها « الدكة » وقد زودت باستار يمكن عن طريقها التحكم في درجة حرارة الغرفة وكان من الممكن تحريكها الى أعلى أو الى أسفل . وفرضت أرضياتها بسجاجيد منتقاة صنعت كل واحدة بنفس أبعاد الغرفة . وكثيرا ما كان يجلس في هذا المكان ليتأمل قصره وملحقاته وحديقته والمنظر الرائع الذي يستد أمامه .



قتل خماروية أثناء تومه وعلى سريوه على يد بعض حظاياه وخدامه ، كانت جنازته مشهدة كثيرا فقد أخذت نساؤه ونساء خدمه وموظفيه في النواح والوعول ولطخ بعض العبيد ملابسهم بالسواد ومزقوها . كان البكاء عظيما يمزق نباط القلوب واستمر حتى وري التراب .

أما القنلة فكان عليهم أن يغالبوا الألم المبرح لساعات قبل أن يموتوا على صليبانهم .



وسرعان ما انكشف عجز أبناء خماروية عن صيانة ارنهم ودخل القائد العباسي محمد ابن سليمان القطائع غازيا على رأس جيش من جيوش خليفة بغداد في ١٠ يناير ٩٠٥ م ، فذبح الحرس الاسود وأحرق أحيائهم ونهب المدينة تماما لكنه احترم جامع ابن طولون الا انه لم يتورع عن نهب المنازل ومعاملة السكان معاملة الكفار .

وشيتا قشيء تهاوت بيوت القطائع المائة ألف ، وأجهزت الفوضى

(١) نوع من الغطية الرأس .

والمجاعة التي أصابت مصر في القرن الحادى عشر الميلادى على البقية
الباقية منها . وحتى يجنبوا الخليفة منظر تلك الأطلال المحزنة شيده
حائط فى عام ١٠٧٠ م يصل بين القاهرة والفسطاط من باب زويلة حتى
جامع عمرو . وصارت تلك الخرائب محجرا يقصدها الناس بحثا عما
قبله ينقبهم في تسميته بيوتهم .



عاشت الدولة الطولونية ٢٧ عاما تمتعت خلالها القطائع بدرجة
من الثراء والرفاهية لم تشهدها مصر منذ الفتح العربى . وإذا ما كانت
المثمنة التي شيدتها ابن طولون وجميها خماروية قد آلت رمادا فإن ذكرها
عاشت طويلا في ذاكرة الأجيال التالية . وقد تغنى بعظمتها الشعراء وبكوا
نهايتها المبكرة .

وقال في رثائهم الشاعر اسماعيل بن أبى هاشم .

كانوا مصايحا لدى ظلم الدجى
يسرى بها السارون فى الأدلاج

وكان أوجههم اذا أبصرتها
من فجة يفسه أو من عاج
ويختم رثائه قائلا :

وعليهم ما عشت لا ادع البكا
مع كل ذى نلر وطرف ساج

القاهرة

عاصر انشاء القاهرة فترة عانى فيها العالم الاسلامى من اضطرابات عاصفة . فقد أخذت شمس العباسيين فى المغرب بعد ان كانت قد وصلت الى ذروتها فى امان حكم هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٨ م) وابتلعها الأمواج التى أثارها الصراعات المتوالية على العرش وثورات الأمراء وأطماع الحرس التركى . وقد رأى العباسيون (أحفاد العباس عم النبى صلعم) من مقدمهم فى بغداد ظهور الأئمة الفاطمية المنافسة (وهم أنسال ابنة الرسول صلعم) فى القيروان . وبينهما صارت مصر محصورة وكان عليها الاختيار بين الولاء لأسرة العباسيين الهرمة والأخنة فى الضعف وبين الولاء للأسرة الفاطمية المفعمة بالفتوة والقوة .

تولى المعز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين العرش سنة ٩٥٣ م . وعلى النقيض من أسلافه تبوأ مكانا فى التاريخ . فلقد كان الخلفاء السابقون رجال حرب لم يدركوا لغير القوة معنى أما هو فكان رجل دولة ذا عقلية سياسية فعرف كيف ينتصر على عدوه فى ميدان القتال ثم يتبع هذا بإعمال دبلوماسية تمكنه من استغلال النصر خير استغلال . وحلت بهذا الحركة المدروسة المثالية محل الحماسة الانفعالية . ولم يكن أجدادهم يتمتعون بقسط كبير من الثقافة ، بل قليلا ما اهتموا بالثقافة أو بالعلوم . غير انه كان رجلا متعلما ينظم الشعر ويولع بالأدب العربى ويعرف

السلافية والافريقية واللهجات البربرية والسودانية ، وجمع الى هذا فصاحة تأخذ بالآلباب فهو قادر على أن يوقد الحماس فى قلوب الناس تارة وتارة أخرى يفجر من عيونهم الدمع .

وكان ضميمنا بالمال العام جوادا بماله . وأظهر حبه للعدالة نبيل غايته . وكان شديدا على قومه حتى يحفظ الأمن والاستقرار فى أرضه بيد أنه أظهر لنا وتسامحا مع انقطاعات البعيدة التى حافظت على ولائها له بذلك .

ولما كانت الرغبة تملأه فى توسيع ملكه فقد كان من حسن طالعاه أن يجده شخص جوهر الذى كان عبدا من أصل صقلى أو يونانى ثم ارتقى الى مرتبة سكرتير الخليفة السابق وعندما اعتلى المعز العرش جعله وزيرا وقائدا لجيوشه . ولنتوقف برهة أمام شخصية جوهر المؤسس الحقيقي للقاهرة .

ولد جوهر عام ٩٠٣ م فى جزيرة صقلية . لصقلى يدعى عبده الله كان قد اعتنق الاسلام ولا نعرف شيئا عن جده حتى اسمه . وتلقى جوهر تعليميا جيدا اوروبا وعربيا مما جعله قادرا على فهم التيارين الثقافيين اللذين سادا منطقة البحر المتوسط فى هذا العهد . ونجح عن جدارة فى اكتساب اعجاب المعز الذى قدر فيه مواهبه وعلمه . وعين وزيرا فى عام ٩٥٨ م ثم قائدا للقواد ، ونفذ بنجاح باهر العديد من المهام الصعبة . وبذلك أظهر جوهر نفسه كمحارب عظيم ودبلوماسى كفء وادارى ناجح وأخيرا كرئيس عادل ورحيم . وقد كلف فى عام ٩٥٨ م بتهدئة شمال غرب افريقيا فغادر القيروان وقاد جيشه المظفر حتى وصل الى ساحل الأطلنطي وهناك ملاأنا باسماك حية وأرسلها الى الخليفة كدلالة على أن امبراطوريتها تمتد الى ساحل المحيط .

وكما ان أهم أعمال المعز لدين الله كان غزو مصر ، كان تأسيس القاهرة أهم أعمال جوهر الصقلى . كان الفارق شاسعا بين افريقيا الشمالية يهضابها الواسعة المرداء وقبائلها المتحفزة دائما للثورة وبين سهول مصر الواسعة الثنية وشعبها الطيب المحب للسلام الذى لا يجنح لتحدى ملك قوى مقع بالحموية والطموح .

ويروى المقرئ حكاية تعبر عن رأى الشائع لاهل القيروان عن المصريين حينذاك . أرسل أحد المغاربة جارية الى مصر لتباع بألف دينار . فأتت سيده وسأومت على شرائها بعد أن فحصتها ثم اشترتها بستمائة دينار . وكانت السيدة ابنة الأخشيد محمد بن طفح ملك مصر حينذاك .

وعندما عاد التاجر الى وطنه روى الحكاية للمعز الذى أرسل فى استدعاء الشيخوخ وأمر التاجر برواية المسكاية مرة أخرى . وعندئذ صاح : « يا اخواننا انهضوا الى مصر ، فلن يحول بينكم وبينهم شيء فان القوم قد بلغ بهم الترف الى ان صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشترى جنزيره لتتمتع بها وبما هذا الا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم فانهضوا لمسيرنا اليهم » . فاجاب الشيخوخ « سمعنا وطاعة » وأعلنوا على استعدادهم للانضمام الى جيوش الخليفة التى تقصد مصر لغزوها ولادة عامين اخذ المعز فى تجهيز حملته . حفرت الآبار وشيدت استراحات للجيش على طول الطريق من القيروان الى الاسكندرية . وفى مصر مهدت الطريق للحملة دعاية للشيعيين والعلويين . وقد جنت سياسة التسرب ثمارها فقد وجعت بنور الثورة التى بذرها الفاطميون فى أرض مصر التى أهلها العباسيون أرضا خصبة قوية وامتدت فيها جذورها .

بعد وفاة كافور العظيم تولى العرش طفل . وقد كره رعاياه ، الذين كانوا دائما عرضة للاعتقال والمصادرة ، وزيرة ابن الفرات . وفى عام ٩٦٧ م كان فيضان النيل شديدا مما أدى الى مجاعة أعقبتها الوباء . ثم أضيف لكل تلك المصائب هجوم الفتران والجراد . فبات فى القسطنطينة وضواحيها أكثر من ستمائة ألف رجل . وفضلا عن هذا أخذ القرامطة فى مهاجمة القوافل وعاث النوبيون فسادا فى أسوان فهاجر الناس وقد ملأهم اليأس الى البلاد المجاورة .

وقد فر من مظالم ابن الفرات يهودى اعتنق الاسلام هو يعقوب ابن كلس الذى كان صاحب حظوة لدى كافور فى السابق . وقد لجأ الى بلاط المعز وأمد به بكثير من المعلومات النافعة عن مصر . جمع المعز جيشا كبيرا ودعيت القبائل العربية الى الانضمام تحت لواء المعز . وقد حمل الجيش معه ٢٤ مليون دينار وقرقت عطايا ثمينة بين الجنود . غادر جوهر القيروان فى فبراير عام ٩٦٩ م على رأس جيش بلغ تعداده مائة ألف مقاتل مجهزين بخير عتد وبصحبته ألف جمل وعدد لا يحصى من الخيول التى حملت بالفضة والمزّن والذخائر وقد استعرضهم الخليفة بنفسه وعندئذ قبل القائد يد الخليفة وحوافر جواده ثم مر الأمراء والقادة وعلية القوم فى صفوف سائرين على أقدامهم أمام جوهر الذى خلع عليه الخليفة بردته وحصانه تعبيرا عن حظوة جوهر الفائقة لديه .

ولم ياق جيش المعز سوى مناوشات بسيطة عندما وصل الى مصر ويروى ناصرى خسرو اسطورة تحكى ان المغاربة كانوا يخشون عبور

النيل الذي كان يعج بالتماسيح . لكن المعز طمانهم وتنبأ لهم بأنهم سيرون كلبا أسودا سيقتودهم الى ضفة النيل وسيرهم الطريق الذي عليهم أتباعه . وجرت الامور كما تنبأ الخليفة وتمضى الاسطورة زاعمة ان الجيش بأكمله قد عبر النيل دونما أن يفرق فارس واحد وان يلتصح تمساح جنديا .

واستسلمت أغلبية السكان دون قتال ، أما مراكز المقاومة النادرة فقد صفت بسرعة وقد رغب أهل القسطنطين في تجنب أهوال القتال ولذا قطعوا رؤوس بعض من قاوموا الفاطميين وارسلوها الى جوهر الذي أرسلها بدوره الى المعز ثم أرسل رسولا يحمل رايه بيضاء وأخذ الرسول يطوف بشوارع القسطنطين متاديا بالأمان ويمنع السلب . وفي اليوم التالي الخامس من أغسطس ٩٦٩ م دخل الجيش الفاطمي القسطنطين رافعا رايته وداقا طبوله . وتوجه جوهر الصقلي مرتديا ثوبا من الحرير مطرزا بالذهب الى جامع عمرو على صهوة جواده البني وقد غطى سرجه بقماش مصري . وهناك ألقى الامام وهو متشبع بالبياض خطبة في المصلين باسم الخليفة الجديد المعز لدين الله الفاطمي وترحم على أجداده فاطمة وعلى . ثم ضربت عملة شيعية ويلذا فقد العباسيون مصر الى الأبد وانتقلت السيادة الى الفاطميين لمدة قرنين من الزمان . وبعد ان مر جوهر بالقسطنطين استمر استعراض القوات الافريقية لمسدة سبعة أيام ثم استتب الهدوء مريعا . وملأت خيام الجند الارض الرملية التي تحف بالمدينة وفتحت الأسواق أبوابها وأخذ الغزاة في شراء البضائع المصرية الجيدة .



كان للغزو الفاطمي عواقب هامة لمصر . فلقد اعتبر السنيون الفاطميون هراطقة وعملت باقى أجزاء العالم الاسلامي الى تجنبهم . لذا فقد انعزلت القسامة فكريا عن الفكر والأدب العربي اللذين ازدهرا في القرنين الحادى والثانى عشر . وتجنب العلماء الكبار والطلاب جوامع القاهرة حيث تتردد دعاوى الفاطميين . وخلال تلك الفترة لم يكن لمصر أن تجنى نفعا علميا من أوروبا التي لم يكن لديها في ذلك الوقت ما تقدمه لمصر . واذا ما كانت تلك الفترة قد شيدت ضعفا ثقافيا الا ان مصر ارتقت الى درجة من الثراء المادى لم تتجاوزه أبدا في أى من القرون التالية . واذا ما كانت المنازل والمساجد والقصور الفاطمية قليلة العدد نسبيا الا ان ثراء زخارفها التي اسرف في استخدام الذهب والاحجار الكريمة بها لن يدانى أبدا في العصور اللاحقة .

أدى قيام الدولة الفاطمية الى تغيير كبير في أوضاع المسيحيين في

مصر فقد حاول الخلفاء الفاطميون استئالة الأقباط اليهم ، وعاملوهم بعناية وتسامح كبير وهذا يفسر العدد الكبير من الكنائس التي شيدت في ذلك العهد . فقد صرح المعز للبطريرك افرام (١) بتجديد كنيسة القديس مرقوريوس (أبو السيفين) (٢) وإعادة بناء الكنيسة المعلقة . وعندما أراد بعض غلاة المتعصبين إيقاف العمل ، ذهب المعز بنفسه الى المنطقة وأمر بوضع الأساس في حضرته وبعد هذا تم البناء في سلام .

ويُفسر نص منسوب الى الكاتب الارمني أبي صالح سبب اهتمام العزيز (ثاني الخلفاء الفاطميين في مصر) بأمر الأقباط : فهو يعزو هذا الى معجزة تمت على يد البطريرك القبطي الذي أراد ان يظهر للخليفة مدى صدق العقيدة المسيحية فلما الرب ان يصنع معجزة وثبت بها صحة ما ورد في الانجيل بأن الايمان يمكن ان يحرك الجبال وتحقق المعجزة فتحرك جزء من جبل المقطم بالقرب من تل الكيش .

وقد تزوج العزيز من مسيحية وكان واحد من صهرية بطريركا ملكانيا (الروم الارثوذكس) وعين في منصب الوزارة يهودا ومسيحيين . اعتنقوا الاسلام . وأولع الكثير من الخلفاء الفاطميين بزيارة الكنائس والأديرة القبطية .

كيف كانت تبدو المنطقة التي قدر للقاهرة ان تشارك عليها ؟ كان هناك طريق يخترق المنطقة طوليا ويربط بين الفسطاط الواقعة في الجنوب وعين شمس في الشمال والى الشرق كانت هناك قناة عرفت باسم خليج البحامين al-Yahmim (١) وقد ظهرت في تاريخ لاحق . والى الغرب امتدت قناة خليج أمير المؤمنين . والى الشمال الشرقي ينتصب الجبل الأحمر وبنيته من حجر الكوارتزيت ذي اللون متفاوت الدرجات من الحمار والصفار والزرق .

وكان بتلك المنطقة بعض المنشآت : مثل الحديقة المعروفة باسم حديقة كافور التي شيدها الأمير محمد بن طنجج الأحمليط والحق بهذا اصطبلات وحلبة للخيول وقد لامست أطراف الحديقة خليج أمير المؤمنين .

(١) يقال ان جثمانه دفن في الكنيسة المعلقة تحت منبرها .

(٢) قديس مسيحي عاش في القرن الثالث الميلادي وكان ضابطا في الجيش الروماني وقيل ان ملاك الرب تجل له قبل ان يخوض أحد المعارك وأعطاه سيفاً وأمره ان يذكر الله ما من عليه بال نصر . وقد كان . وعندما عاد رفض ان يحرق في السجود لآلهة روما فقبض عليه وعذب ثم قطعت رأسه .

(٣) خليج كان يصل بين السهل الذي بنيت عليه القاهرة وقبة أم دين (القس فيما بعد) .

وكان هناك أيضا « دير العظام » وهو دير قبطى سمى بهذا الاسم لأنه كان يضم عظام بعض من تلاميذ المسيح . وكان بالمنطقة أيضا قلعة بدائية احتلتها قبيلة بنو عزرا وكانت تعرف باسم « قصر الشوك » .

وكان هناك أيضا مسجده شيد فى عام ٧٦٢ م بين خليج أمير المؤمنين والجبل ، وقد أقيم على البقعة التى دفن فيها رأس « إبراهيم » حفيد « أبو طالب » زوج أخت رسول الله صلعم . وقد حمل هذا المسجد الكثير من الاسماء آخرها « مسجده تبر » نسبة الى الأمير « تبر الأخشيد » الذى دفن فيه .

والى الغرب بين خليج أمير المؤمنين وبين النيل الذى لم يكن بعيدا عنه فى ذلك الوقت امتدت حمائق يانعة . وقد عرفت تلك المنطقة بالحمراء كما ذكرنا من قبل ، وانقسمت الى ثلاث مناطق من الجنوب الى الشمال : الحمراء الدنية والوسطى والقصى . والأخيرة تقع الى جوار جبل يشكر الذى شيد عليه جامع ابن طولون ، ثم يواصل النيل مجراه حتى قرية أم دتني ويحاذى منطقة سميت آنساء حكم الخليفة المستنصر « بأرض الطبالة » تكريما لراقصة كانت قد نظمت بعض الأبيات فى تمجيد أحد الانتصارات على العباسيين ، وقد منحها الخليفة تلك الأرض كمكافأة على تلك الأبيات ، ثم يتجه النهر الى « أرض البعل حيث امتدت « منية الأصبغ » حتى يصل الى « منية السرج » .



فى الجزء الجنوبى لتلك المنطقة نصب الجيش المغربى خيامه فى سنة ٩٦٩ م وعندئذ بدأ العمل بحراسة فى تشييد عاصمة جديدة . وطبقا لتعليمات الخليفة المحددة كان على جوهر الخيار بين ثلاث مناطق : الأولى : أن يقلد ابن طولون ويشيد المدينة الجديدة على الأرض الرملية الجافة الواقعة الى الشمال ، بين خليج أمير المؤمنين والمقطم ، والثانية شاطئ النيل الذى سيضمن للمدينة الحصول على الماء باستمرار فضلا عن استخدامه كطريق للنقل التجارى عليه ميناء مزدحم بالراكب ، والثالثة : جبل الرصد الذى يجمع الى المزايا السابقة ذكرها ارتفاعه الذى يحضى المدينة من مياه الفيضان ، وقربه من النيل الذى يضمن امدادات المياه فضلا عن القوائد المادية التى ستجنيها مدينة مشيدة فوقه من النقل النهري . وفضل جوهر الموقع الأول ، وطبقا للقلقشندى فقد وبخه الخليفة المزم على هذا الاختيار لبعده الموقع عن النهر مصدر المياه .

وقه أوضح المقرئى ان جوهر كان يريد تشييده قلعة تحمى الفسطاط من غارات القرامطة لا مدينة. توفر حياة هائلة لسكانها . وارتبطت ببناء تلك المدينة اسطورة كما حدث للفسطاط من قبل وقد قيل ان جوهر اختار موقع المدينة الجديدة على بعد ميل تقريبا من النهر فى الليلة نفسها التى نصب فيها معسكره قرب الفسطاط . ورسم على الموقع مربع طول ضلعه ٣٦٠ مترا وغرست على طول محيطه أعمدة متصلة ببعضها علققت فيها أجراس . وكان على الفلكيين ، ان يجتمعوا ليحددوا لحظة مناسبة لبدا العمل أى حينما يظهر فى السماء كوكب ذو قأل حسن . وفى تلك اللحظة كان على الفلكيين ان يهزوا الحبال حتى تدق الأجراس وبذا تعطى اشارة لبدا العمل فى كل أرجاء المدينة . وبينما هم ينتظرون اذا بقراب يحط على أحد الحبال فتدق الأجراس ، فيظن العمال انها الاشارة فيشرعون فى العمل بينما أخذت صرخات فزع تنطلق من الفلكيين فقه كان كوكب المريخ صاعدا فى الفلك وظهره فى تلك اللحظة العرجة كان يعنى ان المدينة ستستعيد لأن المريخ كان قاهر الفلك . ولا كان مستحيل الرجوع فيما قد تم أو تغيير ارادة السماء فقه قرر ان تسمى المدينة بالمنصورة حتى يتغير القأل السئ لصالح المدينة . لكن المز غير هذا الاسم الى قاهرة المز على اسم نفس الكوكب الذى ظهر فى السماء لحظة بنائها .

وفى رواية أخرى كان المز قد اختار اسم المدينة الجديدة القاهرة وهو ما يزال فى القديوان قبل ان يرحل جيشه لغزو مصر .

ومهما كان أصل الاسم فقد رأى الفلكيون انه اسم على غير مسمى وأعلنوا ان المدينة ستسقط فى يوم ما تحت ضربات غازى من تركيا - الأرض التى يحكمها كوكب القاهرة (كوكب الحرب) ، وبعد خمسة قرون من هذا التاريخ استولى السلطان سليم العثمانى على المدينة فى عام ١٥١٧ .

*

كان فى ذهن معمارى القاهرة حقيقتان سياسيتان . ان الفاطميين شيعيون يحيط بهم فى مصر شعب سنى . وانهم أعداء للعباسيين سادة خراسان والعراق وأرض بلاد النهرين ولذا فلا بد ان تنافس عاصمتهم بغداد العظيمة وان تليق بدولة عظيمة من دول حوض البحر المتوسط ، لا أن تكون مجرد عاصمة لولاية . ولذا كان لابد للمدينة الجديدة من ان تكون محصنة تحصينا يكفل الحماية للخليفة المقيم بها ضد أى تمرد محتمل وان تكون لاقعة يسكنها ملك عظيم ، ولذا فلم يدرج وسعاً فى تجميلها .

لقد بنيت تلك المدينة ليسكنها الغزاة المنتصرون لا رعاياهم ولذا فقد كانت القاهرة في ذلك العصر مدينة ارسنراطية للخاصة تذكرنا بالمدينة الامبراطورية في بكين أم الكرملين في موسكو . وشيئا فشيئا اتخذت مظهر مدينة محرمة : فقد كان على من يريد ان يدخلها . ان يذكر سببا قويا وان يحصل تصريحاً ، ولنا فليس من الغريب ان تدعى « القاهرة المحروسة » وبدون تصريح كان من المستحيل ان تدخلها شحنة من خشب أو حتى من قش ، وكان على السفراء الأجانب ان يسروا بين صفوف الحرس اذا دخلوها ، كما كان على الفارس ان يترجل عن جواده عندما يدخل من باب الفسطاط ، وعلى هذا الباب كان الوزراء المقضوب عليهم يقفون منتظرين ان يتعطف مولاهم يسمح لهم بالثول أمامه . وعند تنويع الخليفة كان النبلاء يسرون خلف الخليفة على أقدامهم حتى باب زويلة وباب الفتوح . وقد عاش هذا التقليد في احتفال المحمل عندما كانت مصر ترسل الى مكة المكرمة أمستارا جديدة للكعبة في كل عام . محمولة على جمل ، وكانت المدينة كلها بمبانيها وأرضها الفضاء ملكا للخليفة يؤجر فيها المباني وينح الأرض الفضلاء حصصا لجنوده . وكان الخليفة ورجال بلاطه هم المستهلكون الوحيدون للبضائع التي تعرضها أسواق ومتاجر المدينة .

ويقول ناصري خسرو الذي زار مصر بين ١٠٤٦ - ١٠٤٩ م ان القاهرة واحدة من أكبر مدن العالم ، وبها مالا يقل عن عشرين ألف متجرا مملوكة للخليفة ، وبها أيضا خانات وحمامات ومبان عامة أخرى ، كثيرة العدد حتى ان مؤرخنا يعجز عن حصرها .

وقد شيدت الفسطاط والعسكر حول جامعين كرسا لعبادة الله ، أما القاهرة فقد التفت حول قصر ، هو مقر للخليفة . وبينما كان نمو كلا من العسكر والفسطاط اطراديا كقصن وضع في منجم للملح فأخذت تكسو تدريجيا بلورات لامعة فحولته في النهاية الى جوهرة بديعة ، كانت القاهرة تحفة فنية شكلها صائغ ماهر في أيام ثم وضعت كما لو كانت توضع في صينية وسط السهل الذي « ينحصر بين النيل والمطم » .



كانت للمدينة شخصية ميزتها عن المدن العربية الأخرى التي تقاطع شوارعها الضيقة الكثيرة مكونة شبكة متعرجة ، فليقل بنيت القاهرة وفق تخطيط هندسي سابق لانشائها جعل لشوارعها انتظاما معقولا وقد خطط منها جوهر بنفسه سبع شوارع . وقد اخترقها من الشمال الى الجنوب .

شارع كبير حتى لا يجيب انسام ربح الشمال المنعشة ، وقد اتبع بشكل ما اتجاه الطريق التاريخي الذي سلكه الغزاة الذين هاجموا مصر بين حين وآخر . وقد حافظ شارع النحاسين الحالي على خط هذا الشارع القديم تقريبا .

وكان هذا الشارع (بين القصرين أو قسبة القاهرة) يفصل بين قصرين كبيرين . وفي تلك المنطقة يزداد اتساعه الى ١٥ متر مكونا ميدانا كبيرا مستطيل الشكل (رجة بين القصرين) . وتتعامد على هذا الشارع أزقة صغيرة تمتد من الشرق الى الغرب وتؤدي الى قنطرة الخليج والمقس . وقد كان الشارع الرئيسي مخصصا للمواكب الهامة وترك للطرق الأخرى الوغاء بالحاجات المادية . وعبر قسبة القاهرة كان السلطان يمر محاطا بالخصيان الذين يحملون في أيديهم مجاهرا يحترق فيها العنبر والصبر . وكان البروتوكول يحتم على الناس ان يسجدوا على الأرض لحظة مرور الخليفة داعين له الله بالخير . أما في الشوارع الجانبية فقد كانت تمر فيها عربات محملة بالأخشاب أو الأحجار أو الماء أو البضائع المفرغة في ميناء المقس .

وقد شيدت المنازل بعناية فائقة حتى ليخال الى الراي انها قد شيدت من أحجار كريمة لا من ملاط وقرميد وأحجار عادية وكانت منازلها منفصلة الواحدة عن الأخرى حتى ان الأشجار المزروعة في واجدة منها لا تلامس أحصانها المنزل الآخر وكل منها مزودة بحديقة أجملها يحيط قصر الخليفة .

ومن كتاب ناصري خسرو اقتبس الفقرة التالية التي تظهر مدى أهمية الحدائق في مدينة القاهرة في ذلك الوقت . « من أهم خصائص مصر ان من يريد ان يعمل حديقة يمكنه ان يحقق رغبته في أي فصل من فصول السنة . فمن اليسر هناك على المرء ان يزرع أو يحصل على نبات سواء كان أشجار للزينة أو أشجار فاكهة محملة بالثمار . فهناك اناس يمارسون هذا النوع من التجارة وهم على استعداد دائم لتوريد أي صنف ولديهم أشجار مزروعة في براميل خشبية موضوعة على أسطح منازلهم التي تشبه الحدائق . وهي أشجار في الغالب مغطاة بالفاكهة من البرتقال السكري أو البلدي أو الرمان أو التفاح أو السفرجل ولديهم أيضا مشاتل للورود الرباحين والنباتات العطرية . فإذا ما رغب انسان في شيء منها أتى الحمالون لنقل الصناديق الخشبية التي زُرعت فيها الأشجار ؛ وترتبط الصناديق الى قوائم خشبية يحملها الحمالون الذين ينقلونها الى المكان

المطلوب : وبعد أن تفرغ الصناديق من محتوياتها تزرع الأشجار التي
لم يلحق بها أدنى ضرر . ولم أشهد لهذا مثيلا في أى بلد في العالم ولم
أسمع بهذا في أى مكان آخر ولا بد أن أضيف أنها عادة لطيفة جدا .

وكانت السواقي ترغف الماء اللازم لتلك الحدائق . وعلى الاسطح
زرعت الأشجار وبنيت جواسق .

أما الماء اللازم للمدينة فقد كان يجلبه السقاؤون من النيل . وروى
ناصرى خسرو انه قد كان ينقل على ظهر ٥٢ ألف جمل خصصت لهذا
الغرض . وبالطبع فقد بالغ كثيرا في هذا الرقم وإن كان على أية حال
يدل على مدى ضخامة هذه المهمة في العصور الوسطى .

(وزودت المدينة أيضا آبار حفرت بالقرب من النيل بالماء العذب
لكن ماؤها كان يتحول الى ملحي كلما بعدت المسافة عن شاطئ النهر) .

كان السقاء يحمل الماء على ظهره في اناء من الفخار المسامي وكان
القادرون يدفعون ثمنا مقابل أكواب الماء أما الفقراء فكانوا يشربون مجانا
أو مقابل قطعة من الخبز يضعها السقاء في جراب معلق على جانبه .
ولتشجيع هذا العمل النبيل سمح للسقائين بأخذ الماء بدون مقابل من
الأسبلة (وهي خزانات ماء شيدها الأثرياء وحرسوا على تزويدها دائما
بالماء العذب) فضلا عن انهم أعفوا من دفع الضرائب . وفي الموالد كان
الاتقياء يستأجرون الساقين لتوزيع الماء مجانا على الحجاج وعلى من
يريد الشرب .

ولا بد أن منازل القاهرة الفارقة في الخضرة كانت تؤلف مجموعة
بديعة منتقاه . وكان من الممكن للمدينة - لولا وجود العمارات العالية -
أن يكون لها شكل مدن الحدائق المنتشرة في أوروبا الآن . وإلى الجنوب
خارج الأسوار كانت توجد بركة الفيل التي سميت على اسم واحد من
أتباع ابن طولون . وعلى مياهها كان الخليفة مولع بالتنزه في قاربه
ولا بد أن المشهد كان ساحرا حينما كانت الجواسق التي تحف بها تضاء
وقد نظم فيها الشاعر ابن سعيد المغربي قصيدة يقول فيها :

انظر الى بركة الفيل التي اكتنفت

بها المناظر كالأهداب للبصر

كانما هي والأبصار ترمقها

كواكب قد أداروها على القمر

وقد بنى جوهر فى شمال القاهرة ديرًا للأقباط مكان الدير الذى هدمه عندما شرع فى بناء القاهرة • ويقع بالقرب من جامع الأقصر وكان يعرف بدير العظام وكان به بئرا ما زال موجودا خلف الجامع الى وقتنا هذا ، وقد نقل جوهر رفات القديسين التى كانت محفوظة فى هذا الدير الى دير بنى حديثا هو دير الخندق •



أحاط المدينة الجديدة سور من اللبن يعلوه طريق دائرى يتسع لمرور فارسين ومن الصعب تتبع آثار هذا السور على وجه دقيق فلم يكن منتظم البناء وكانت أضلاعه تقريبا موجهة الى الجهات الأصلية • وفى السور الذى كان يفصل المدينة عن القطائع والعسكر فتح بابين متقاربين هما « بابا زويلة » وكانا واقعين الى الشمال قليلا من الباب الحالى الذى يحمل نفس الاسم وهو اسم قبيلة من البربر أتت مع جوهر وعندما جاء المعز من القيروان سنة ٩٧٢ م دخل المدينة من الباب الأيمن فتدافع الناس للدخول من الباب الأيسر ليلحقوا به ، وقد أدى هذا الى إشاعة أن الباب الثانى مشنوم ويفسد مشاريع من يعبره ، بينما أخذ الاعتقاد يرسخ فى سعه طالع الباب الأول • وقد قيل أن مفصلات ضلعتى الباب اتخذت من الزجاج وكان باب زويلة مسرحا لتنفيذ أحكام الإعدام العلنى مما ساعد على تدعيم السمعة السيئة للباب الأيسر ، فضلا عن وجود سوق لألات الموسيقى كالعود والرباب ... إلخ ، التى كرهها الدين •

فصار هذا المكان مقصدا للمغنيين وللراقصين وهم قوم سيئو السمعة • واشتد تطاير الناس من هذا الباب حتى انتهى الأمر الى سده تماما •

أما حائط المدينة الضامى المواز للحائط السابق فكان به بابان هما « باب الفتوح » و « باب النصر » ، وقد شيدهما معماريون من « الرها » (وكان يقعا الى الجنوب من البابين الحاليين اللذين يحملان نفس الاسم) • وفتح فى الحائط الغربى ثلاثة أبواب باب سعادة و « باب الفرج » و « باب القنطرة » ، وبالقرب منه كانت توجد قنطرة على الخليج تربط المدينة بضواحيها وبميناء القس وأم دنين (الألبكية الحالية) والمنطقة الواقعة شمالها وكان بالحائط الشرقى بابين باب البرقية و « باب المحروق » وإقام جوهر قنطرة على النيل تربط الجيزة بالضفة الشرقية • وحفر خندقا فى عام ٩٧١ الى الشمال من القاهرة قرب « منية الاصبع » عرضه عشرة أذرع ومثلها عمقه ، وكان يمتد من الصحراء الى الأرض الزراعية وقد حفر لحماية المدينة من غازات القرامطة المتواصلة •

وقد تمت المساحة المربعة التي أحاطها السور بـ ١٤٠ هيكارا • وكان طول كل جانب من جوانبها يتراوح ما بين ١١٠٠ و ١٢٠٠ مترا وهي أبعد الفسطاط والمسكر لكن تخطيط القاهرة كان أعظم وأكثر تناسقا • وقد أحسن تخطيطها فأفرخ تحفة فنية قيض لها أن تعيش أطول مما بقيت عمارات العباسيين وابن طولون المتعجلة •

لكن أهم أحداث تلك الفترة كان إنشاء الجامع الأزهر الذي استغرق بناؤه سنتين وقد بدأ فيه العمل في ٤ إبريل سنة ٩٧٢ م في المنطقة المجاورة لقصر المعز • ويرجع الفضل في إنشاءه إلى يعقوب بن كلس وكان في الأصل يهوديا ثم اعتدى للإسلام • وقد كان يدعى هذا الجامع أحيانا جامع القاهرة وقد حرف الرحالة الأوروبيون اسمه إلى Giamalazer وترجموه « منزل لازار » وقد لعب جامع الأزهر في المدينة الجديدة نفس الدور الذي لعبه جامع عمرو في الفسطاط وجامع ابن طولون في القطائع فكل منهم كان مركزا دينيا لمدينته • وفيهم كانت تؤدي صلاة الجمعة ويخطب فيهم الخليفة في جموع المصلين • وفي عام ٩٩٠ م بنى الجامع الأنور (فيما بعد الحاكم) على الطرف الشمالى لمدينة القاهرة وقد تمتع هذا الجامع بنفس امتيازات الجامع الأزهر •

ويزين الجامع الأزهر - أشهر جوامع العالم الاسلامى - ٣٨٠ عمودا تضفى عليه سموقا ترى اروعاصاته في جامع ابن طولون • وقد احتفظ صحنه بالشكل المربع الذي رآه عليه المعز عام ٩٧٣ م عندما دخله حاملا زفات أجداده ، وصلى فيه عليهم ، ثم اتجه إلى قصره يسبقه موكبا من حرسه وأربع من أبنائه وفيلين • وعلى مر الزمان تغيرت هيئة الجامع حتى وصلت لما هي عليه الآن • لقد عمد الكثير من الملوك خاصة الفاطميون منهم إلى توسيعه وإثرائه بالهبات أو بالاضافات المعمارية • ونحن نهمل متى تمت تعلية سقفه المنخفض ، لكن يحتمل أن العزيز نزار (٩٧٦ - ٩٩٦) هو الذي أضاف الأيوانيين الجانبيين (الشمالى والجنوبى) اللذان ضمما ثلاثة بوائك على كل جانب وأدخل الحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢٠ م) عليه تحصينات في هذا العهد اتخذ الصحن الأوسط شكله النهائي كغناء تحيط به بوائك ذات عقود فارسية • وكان الأمر كذلك بالنسبة لبنيى الصلاة الذى تألف من خمس بلاطات موازية لمناطئ القبلة • وقد بنى الجامع من القرميد وجصصت جدرانه التى تركت فى بعض المواضع عارية من الزخرفة وفى مواضع أخرى حُفرت الزخارف على الجص • وتحمل عقود الجامع أعمدة رشيقة جلبت من عمار أخرى •

لعب الأزهر دورا هاما فى السياسة والدعاية الفاطمية بسبب

نشاطه التعليمي . ولذا قاسى الأزهر أثناء حركة الردة الى المذهب السنى .
أثناء حكم الأسرة الأيوبية التى حكمت مصر ابتداء من عام ١١٧١ -
١١٧٢ م فعرضت للاهمال مبانيه وانتزع صلاح الدين بعض زخارفه مثل
الطوق الفضى الذى كان يزين محرابه ومنع فيه الخطبة واقتصرت صلاة
الجمعة فى القاهرة على جامع الحاكم .

لكن الحال تغيرت تحت حكم المماليك ، فقد ساء الأمر ايندر الحل
الذى كان يسكن بالقرب منه ما آل اليه الجامع فقرر اصلاحه على نفقته
بمساعدة السلطان الظاهر بيبرس الذى سمح باعادة الخطبة اليه .

وبين عامى ١٣٠٢ - ١٣٠٣ م أصيب الجامع بأضرار نتيجة لزلزال
وأصلحه الأمير سلار .

وفى القرن الرابع عشر الميلادى أصلح الجامع واستخدم الرخام بقدر
ضئيل فى محراب ، لكن هذا الاصلاح لم يؤرخ على وجه التحديد . أما
محاربي المدارس الثلاث التى أنشئت فى العصر المملوكى خارجه ثم الحق
به فقد جللت بالرخام على نحو رائع .

وأولها مدرسة « الأمير طرس » وبنيت بين عامى ١٣٠٩ - ١٣١٠ م
والثانية مدرسة « الأمير اقبعا عبد الواحد » بين عامى ١٣٣٩ - ١٣٤٠ م ،
وتنحضا على يمين وشمال الداخل من الباب البحرى . أما المدرسة الرائعة
الثالثة فقد شيدها الحصن جوهر القنباثى ودفن بها (١٤٤٠ -
١٤٤١ م) . ثم حدث أن مالت إحدى المآذن على نحو خطير فهدمت وأعيد
بناؤها ثلاث مرات (١٣٩٧ - ١٣٩٨ / ١٤١٤ - ١٤١٥ / ١٤٢٣ - ١٤٢٤ م)
وفى عام ١٤٢٣ - ١٤٢٤ م بنى صهرىج فى وسط الحصن به مئذنة .
وقد فشلت محاولة لزorc أربعة أشجار فيه . واهتم بعمارته السلطان
قايتباى فأعاد تشييده الباب البحرى على نحو بديع وأضاف اليه مئذنة
وأمر باصلاحه اصلاحا شاملا . ثم أقام السلطان الفورى مئذنة من طراز
فريد فى عام ١٥١٠ م وازدادت مساحة الجامع مرة أخرى فى القرن
السابع عشر وأصبح الجامعة الوحيدة للدراسات الدينية فى مصر .

ونفذ عبد الرحمن كتنخدا أو كخيا (الذى مات فى ١٧٧٦ م ودفن
فى جامع الأزهر) أعمال عدة فيه مثل بناء محراب واقامة منبر جديد
وصهرىج ومدرسة للأطفال .

ونفذ مرة أخرى الخديوى توفيق وعباس حلمى الثانى ترميمات
هامة فهيمت مئذنة عبد الرحمن كتنخدا وأقيم مكانها الزواق العباسى الذى
افتتح فى عام ١٨٩٨ م .

وفى عام ١٩٣٠ م تفرعت منه ثلاث كليات للتعليم العالى اتخذت لها مقارا منفصلة فى القاهرة ، لكنها سرعان أن انتقلت الى مبان حديثة شيدت خلف الجامع الأزهر وصار الطلاب يجلسون على مقاعد وقماطير فى فصول ، وقد زودت أيضا تلك المنشآت بمعامل لإجراء التجارب العلمية . وبين عامي ١٩٣٥ - ١٩٣٦ م شيد مبنى الخدمات العامة فى ميدان الأزهر الى شمال الجامع أما فى الناحية القبلية للأزهر فقد أقيمت ثلاث مبان أخرى ذات أربع طوابق للتعليم الأزهرى الابتدائى والثانوى وللخدمات الصحية مزودة بمستشفى . وفى عام ١٩٥٠ وعلى الناحية القبلية أيضا افتتحت جامعة ذات أربعة آلاف غرفة ومتدنة عالية . وافتتحت أيضا كلية (الشريعة) . وبنيت كلية اللغة العربية فى عام ١٩٥١ م . وهدمت المنازل القديمة فى الجانب الشرقى لبناء كلية أصول الدين .

وتوجد مكتبة الأزهر التى تضم بين كتبها عشرين ألف مخطوط فى داخل المدرسة الإقباقوية . وقد بنيت مدينة جامعية لايواء الطلبة الأجانب فى ميدان « الفقير » سابقا فى العباسية .



وكما كانت القسطنطينية مقسمة الى خطط ، قسمت القاهرة كذلك الى حارات . لكن تلك الأقسام لم تكن موزعة على القبائل العربية المختلفة بل على قبائل وأجناس أجنبية متباعدة . ولذا نسمع عن حارات الروم والكرد والبربر والترك ، « وحارة برجوان » و « حارة الأمراء » .

ولم يسمح الا للجنود الموثوق تماما بأخلاصهم بالإقامة داخل أسوار القاهرة أما الآخرين والعناصر المشاغبة فقد أقاموا خارج الأسوار ، وكانوا كلهم أشبه بحرس امبراطورى وقد وطن جوهر عن عمد الروم بنى جلدته الاماكن المجاورة لأبواب المدينة ووزعت باقى فرق الجند فى مناطق مختلفة . فقد وطن الجنود الزنوج (عرفوا اختصارا بالعبيد) الذين اشتبهوا بعدم الانضباط فى المنطقة الواقعة الى شمال باب الفتوح ، خارج أسوار المدينة بالقرب من الخندق الذى حفره جوهر لوقاية المدينة من أى هجمة تأتى من سوريا . ولذا عرفت تلك المنطقة « بخندق العبيد » . وقد أوت ضواحي القاهرة الجنود الجلد الذين وصلوا بعد تقسيم أراضى المدينة . واسم أحد الضواحي يكشف عن أن جوهر كان يتمتع بروح الدعابة ، جاء بعض الجنود المتأخرين وطالبوه بقطعة أرض . فأوضح لهم أن الأرض كلها قد وزعت فقالوا « رحنا نحن فى الباطل » أى كان مجيئنا

بلا فائدة • ولصق هذا الاسم « حى الباطلية » بالجزء الذى سكنوه بالقرب من « الباب المحروق » •

وتعكس المساحات الواسعة من الأرض الفضضاء التى تركت بين المباني رغبة جوهر الأساسية من بناء القاهرة • فقد تحتم أن يكون فى تلك المدينة عاصمة الخلافة ، أماكن واسعة يمكن فيها اشباع رغبة الخليفة فى الظهور بمواكب وإقامة فيها احتفالات باهرة • قالى جوار « باب العيد » كانت توجد قطعة من الأرض مساحتها ٢٠ ألف متر مربع وأخرى عند قصر الشوك ومساحتها ٧ آلاف متر مربع ، أما ميدان الأزهر فقد كان يقدر بـ ٨ آلاف متر مربع •

وكمعطف فاخر يتدل ذيله فى الوجهل ، امتدت مدينة الخلفاء الرائعة الى الجنوب على جانبي الشارع الأعظم الذى كان يؤدى الى جامع ابن طولون مكونة أحياء مزدهمة شوارعها ضيقة يصعب الوصول إليها • وقد انقسمت المنطقة الى ثماني حارات عسكرية أسكنها الجند وأغلبهم من السودانيين الذين كونوا الى الشمال والشرق من بركة الفيل نجا من خمسين ألف نسمة •



وهذه المدينة (القاهرة) التى أمر بإنشائها المعز وبناها جوهر ثم أكملها المعز وخلفائه تعرضت لتغيرات عدة فبعد أن تلاشى الخوف من ثورة أو غزو ، فقدت الأسوار معناها وبدأ طوفان من المنازل يغمرها رويدا رويدا حتى ان ناصرى خسروى الذى زار المدينة بعد خمسين عاما من تشييدها عجز عن أن يميز أسوارها لكثرة المباني التى تكتنفه على الجانبين • وقد ذكر المقرئى فى القرن الخامس عشر الميلادى أن آخر أثر لتلك الأسوار قد تلاشى تماما • ومن ناحية أخرى ضاقت المدينة بسكانها بمرور الوقت مما اضطرهم للزحف خارج أسوارها • ولما كان الخلفاء زاهدين فى التضيعة بقصورهم أو بمبانيهم فقد اضطروا الى توسيع نطاق المدينة حتى يحفظوا لها وحدتها • فعندما بنى الحاكم بأمر الله ، الخليفة المعتوه ، جامع خارج أسوار المدينة ، هدمت الأسوار وأعيد بنائها بحيث أدخل الجامع فى نطاق المدينة • وفيما بعد يعيد بدر الجمالى ، وزير الخليفة المستنصر ، بناء الأسوار مرة أخرى لتوسيع المدينة •

يبد أن الحائط الشمالى الشرقى للمدينة ، الذى كان يفصله عن الخليج منطقة بين السورين ، لم يتعرض لتغيير • لكن النبلاء والأغنياء شيدوا لهم هناك قصورا وقيلات ، أما الأرض الفضاء استغلها البسطاء

لإقامة احتفالاتهم وللمنزعة • وبنى المعز من جديد أرصفة ميناء المقس الواقع الى شمال الفسطاط والروضة • ولقد ظلت المقس الميناء الرئيسى ودار لصناعة السفن حتى غير النيل مجراه بعد ظهور يولاى • وبالقرب من باب البحر شيد الحاكم بأمر الله مسجدا • ومما سبق يتبين لنا سبب اجتذاب السكان الى تلك المنطقة • وبعد ان ظهر الخليج ومصار صالحا للاستعمال بين الفسطاط وعين شمس ازداد عمران المقس تدريجيا حتى أصبح جزءا من القاهرة •



كان قصر الخليفة مشيدا فى الزاوية الشمالية الشرقية للمدينة • وعندما كان يرى من بعد • كما يروى ناصرى خسرو فى عام ١٠٤٦ م • كان يبدو كالجبل نظرا لصلخامته وارتفاع مبانيه • وقد بنى فى عام ٩٧٢ م على مكان « بستان كافور » و « دير العظيم » وقصر الشوك • وعرف « بالقصر الكبير » • وكان يضم حجرات واسعة للخليفة وأسراته ومخازن للأثاث ومطابخ ومصالح حكومية ومخازن تجم الغلال والسكر والزيت والصابون والشمع والمعادن • وفيما بعد أقام العزيز ابن المعز قسرا (القصر الصغير الغربى) على الجانب الآخر « لقصبة القاهرة » وخصصه لابنته ست الملك وقد أكمله الخليفة المستنصر فى عام ١٠٥٨ • وكان ظهر البناء يطل على الخليج • وعلى جانبى الواجهة الشرقية امتد جناحين للبناء مما جعل القصر يشبه فى مخططة حدود الحصان التى يمتد فرعها تجاه القصر الكبير • وبين القصرين امتد ميدان عظيم عرف بهذا الاسم « رحبة بين القصرين » وكانت قصبة القاهرة تخترقه • وموقعه يمكن تحديده فى المنطقة المحصورة حاليا بين جامع الحسين وخان الخليل ومارستان قلاوون •



كان مجيء « المعز » الى القاهرة فى عام ٩٧٢ م • وبعد ان دخل الى قصره • بحر الله ساجدا وصلى متبوعا بأعوانه • ثم أنزل أولاده وحريره وخدمه بالقصر • وفى منتصف شهر رمضان الذى لم يكن بعيدا جلس المعز على عرش من الذهب نصبه له جوهر فى الايوان الجديد • واستقبل الأشراف (أحفاد رسول الله صلى الله عليه وسلم) والولاة والنبلاء • وفى حضرته كان الكل وقوفا وقد انقسموا الى مجموعات صغيرة تقدمت الواحدة منهم بعد الأخرى الى الخليفة بينما قائد القواد جوهر يعرض عليه هداياها التى اشتملت على مائة وخمسين فرسا مطهمة بالجمية من ذهب وورصة بالأحجار الكريمة أو بالمعبر الرامدى • ثم دخل الخدم

حاملين واحد وثلاثين هودجا مفروشا ومطرزا بالقصب ثم قدم ثلاثة وثلاثين بغلا مسرجة ومائة وثلاثين بغلا مخصصة للحمل وتسعين جملا ثم أربع صناديق مشبكة تبدو منها أواني ذهبية وفضية . ثم مائة سيف دمشقى من الذهب والفضة وصناديق مكفتة بالفضة مليئة بالأحجار الكريمة ، وأخيرا تسعمائة سلة مملوءة بكل ما أمكن تدبيره له من كنوز مصر .



وتدريجيا أخذت العمائر ترتفع حول القصرين الأساسيين فشيده العزيز « قصر الذهب » و « الديوان الكبير » و « قصر اللؤلؤ » وأضاف الخلفاء الآخرون والوزراء مبدن أخرى كثيرة أو أصلحوا القائم منها حتى جعلوا منها فى النهاية عشرة قصور عرف كل منها باسم خاص مثل « قصر الغزال » و « قصر المظفر » الخ . . ، اشتمل كل واحد منهم على قاعات كثيرة بالإضافة الى حوض ماء لمقاومة أى حريق محتمل . وشهدت تلك المجموعة الرائعة المتناسقة من القصور على ولع هائل بالترف . وعلى جانبي القصر الغربى امتد الميدان وحديقة كافور .

وأخذت القصور الزاهرة ، كما كانت تعرف تلك المجموعة ، فى الاتساع حتى انها كانت تأوى فى القرن الحادى عشر اثنى عشر ألفا من الخدم معظمهم من السود أو الروم أما حريم القصر فقد ضم ثلاثين ألفا من نساء وخصيان . ويروى المقرئى ان صلاح الدين قد وجد فى القصر عندما أخرج منه العاضد آخر خلفاء الفاطميين اثنى عشر ألف امرأة من الجوارى . أما من الرجال فلم يكن هناك سوى الخليفة وأقربائه وأولاده . وقد خلف لنا نفس هذا المؤرخ وصفا دقيقا للقصرين الرئيسيين . كان بالقصر الكبير الشرقي تسع بوابات ، تعلو احدىها منظره يظهر الخليفة فى شرفاتها عند الاحتفال بمواسم معينة ، أما أسماء الأبواب الأخرى فتذكرنا يقصص ألف ليلة وليلة « باب الزمرد » و « باب السلام » و « باب الفتوح » الخ . . وكان بالقرب من القصر بئر يدعى « بئر الصنم » تلقى فيه أجساد من يأمر الخليفة بأعدامهم . وقد قيل ان به كنز مخبوء . وعندما صار صلاح الدين سلطانا على مصر بعد قرنين من الزمان ، أمر بحفر قاع البئر . لكن البئر كان مسكونا بالجن - كما يروى المقرئى - الذين قتلوا الكثير من العمال وفى النهاية أضر بردم البئر . وربطت القصور سراديب مجفورة تحت سطح الأرض معدة لانتقال الخليفة من قصر لآخر . ويقول المقرئى ان الخليفة كان يمتطي البغال أو الحمير التى كانت الجوارى تقودهم فى تنقلاتهم عبر تلك السراديب .

وفضلا عن هذا كان القصر يضم « الاسطبل البائرى » ، وقد كان

مخصصا أساسا للخيل التى يمتطيها الخليفة ، وجامع الأزهر الذى كان يؤدى فيه الخليفة صلاة الجمعة بنفسه ، و « ميدان العيد » حيث كانت تتجمع فرق الجيش أيام الأعياد الكبرى كعيد الفطر أو الأضحية ، وهناك يداعب الهواء ريش عمائمها ويخطف بريق جواهرها الإبصار وتختال خيولها على وقع خطواتها . وهناك أيضا كان من الممكن رؤية باب تربة الزعفران ، وهى مقصورة جترية خصصت للخليفة وزوجاته وأطفاله ، والسبع أبواب الخليفة ، للقصر التى كان الخليفة يخرج منها قاصدا الجامع الأزهر فى ليلتى الوقود ، وعلى مقربة من هذا المكان كان يقع بيت العلم ، و « خزنة السلاح » .

وعلى الجانب الآخر لميدان العيد شيد « بيت الضيافة » و « خان الوزراء » و « اصطبل الجمال » .

وأمام « باب الزهور » (روائح الطعام) بنيت المطابخ التى كانت تمد مائدة الخليفة بالطعام . أما حلوى الخليفة فكانت تصنع فى دار القطرة (دار الحلوى) ، واختصت بالتوابل دار خاصة (دار التوابل) . وعند الانتهاء من إعداد الطعام للخليفة وحريمه والعاملين بقصره كان يرسل عبر باب الزهومة ومن هذا اشتق الباب اسمه . وقد ذكر ناصرى خسرو أن الباب كان يؤدى الى ممر سفلى يربط بين القصر والمطابخ (وهو أمر ليس ببعيد إذا أن من الصعب تخيل أن طعام الخليفة ينقل فى الهواء الطلق معرضا للتراب) . وكان بالقصر ممرات سفلى أخرى تقود الى الخارج وكما نعلم فقد عبرها جثث ثلاثة من الخلفاء . ويروى ناصرى خسرو عن مطابخ القصر انه كان من المعتاد أن يرسل للخليفة أربعة عشر حمل جمل من الثلج فى كل يوم . « وكان معظم الموظفون الكبار والنبلاء يتسلمون أنصبة معينة من الطعام وكذا كل من يطلب من أهل المدينة من أجل مريض وكان القصر يفرق على كل راغب مشروبات ومراهم مثل زيت البلسم . ولم يكن يرد سائلا أبدا » .



كان ثراء تلك القصور خرافيا ، ففي قصر الذهب كانت توجد قاعتين « قاعة الذهب » و « قاعة الفضة » . الأولى كانت قاعة العرش ، والثانية قاعة المقابلات . وقد كسيت الجدران بالذهب أما العرش فقد طعم بالأحجار الكريمة ووضع على منصة مذهبة ، وأحاطت به إجماع من نخل من ذهب مثقل بفواكه وأزهار من الأحجار الكريمة وبه طيور من ذهب ومزخرفة بمينا متنوعة الألوان يسمع لها تفريد .

وقد ترك لنا ناصرى خسرو وصفا للقصر « عندما دخلت من باب القصر رايت حشدا من العماقر والقاعات لو وصفته لتضخم كتابي . كان هناك اثني عشر جوسقا مربع الشكل متصلة ببعضها مساحة الواحد منها مائة اوش (اربعين مترا) مربعا عدا واحدا منها كانت مساحته فقط ٦٠ اوش مربعا (٢٤ مترا) . وفي هذا الأخير وضع عرشا يمتد بعرض الجوسق وطوله ٤ قيز (القير يساوى ٢٤ شبرا) وارتفاعه مثله ، وثلاث من اوجهه كسيت بالذهب وعليها مثلث مناظر صيد وفرسان يرمعون بجيادهم ومواضيع اخرى . وعليه نقشت كتابات بديعة وقد فرشت تلك القاعة بستان رومى وبوكالمون (وهو قماش يتغير لونه حسب انعكاسات الضوء) وبانسجة صنعت بمقاييس تتواءم مع المكان الذى ستوضع فيه . واحاط العرش سياج مشعر من الذهب يعجز البيان عن وصفه وكانت هناك درجات من الفضة خلف العرش ملاصقة للحائط . واذا اراد المرء ان يوفى هذا العرش الرائع حقه من الوصف فلن يكفيه كتاب واحد . وقد قيل لى ان راتب مائدة الخليفة من السكر كان خمسين ألف مين (المين يساوى ١٥٢٦٤ كجم) وقد رايت هناك شجرة تحاكي شجر البرتقال فاكهتها واوراقها من السكر وكانت المائدة تزين بالف تمثال صغير من السكر ايضا » .

ولدينا رواية لجويوم دوتير (طرابلس) Guillaume de Tyr عن بعثة أرسلها أمورى الأول ملك القدس للخليفة العاضد تعطى لنا فكرة عن الانطباع الذى تركه القصر الكبير على الأوربيين وهى تفضل روايات المؤرخين العرب التى كثيرا ما تكون مبالغة .

« وفى عام ١١٦٧ حصل الى مصر الفرنسيان اى دوجزير Hues de Gesaire وجوفروافوشبيه Jeufrois Fouchier رسالة من أمورى الأول الى الخليفة العاضد وفى القاهرة اصطحبهم الى قصر يسميه العرب فى لغتهم « قصرا » وهو بناء فاخر شديد الثراء . واستقبلهم هناك حراس شاهرى السيوف وقادوهم عبر سرايب مظلمة وعبر ثلاثة أبواب يحرس كل منها سودانى ، ثم وصلوا الى فناء واسع مفروش برخام متعدد الألوان مزين باللوان ذهبية فنية . وكان به نوافذ بانابيب من ذهب وقضه . وبكل مكان كان المرء يرى مجموعات كبيرة من الطيور النادرة . واستلم الحرس الرسبولين الى آخرين الذين اصطحبوهم الى فناء آخر فى مبنى آخر كان مثل المبنى السابق فى

فخامته وراثته الذى لم يروا له مثيلا من قبل • وراؤ هناك حيوانات من أنواع متعددة ومختلفة الى حد لا يصدق •

وبعد أن عبروا من جديد عددا من الأبواب والمنطقات دخلوا أخيرا القصر الكبير حيث استقبلهم عدد من الجنود جيدي التسليح ويبرقون بالذهب والفضة • ثم أدخلوا الى حجرة بها ستار ضخم ممتد من حائط الى حائط وقد زخرف تماما بالحرير متعدد الألوان وبخيوط الذهب وقه مثلت عليه صور بشرية عدة وهيئات طيور وحيوانات ، تتألق تماما بأحجار الزمرد والياقوت والأحجار الكريمة من كل نوع وسجد الوزراء على الأرض ثلاثة مرات ثم فتح الستار ، فظهر الخليفة جالسا على مقعد من الذهب والأحجار الكريمة ويحيط به خاصة مستشاريه وقد كساهم الوقار • وتقدم أحد الوزراء من الخليفة وقبل قدميه ثم جلس على الأرض قرب العرش •

وكاد تعالى الخليفة أن يؤدي الى أزمة دبلوماسية أثناء الحديث الذي دار بينه وبين السفيرين ، فقد طلب منه أى Hues أن يتصافحا كعلامة على موافقته على المقترحات التي قدمها المبعوثان • تردد الخليفة لحظة لاعتقاده أن هذا العمل لا يتفق مع مكانته • وأخيرا مد يده ، لكنه كان يرتدى قفازا ، وأصر الأفرنجي على أن تكون يده عارية كالحقيقة فخلع على مضض قفازه حتى يقسم ويده فى يد أى Hues على أن يرمى المعاهدة بأمانة •



عرف الباب الرئيسى للقصر الكبير « بباب الذهب » ، كما لو كان بابا يؤدي الى مملكة ساحرة ، وقد نسجت حوله أسطورة ، عندما عاد الجيز من المغرب قاصدا مصرا ، جمع كنوزه وصهرهم وصيهم فى هيئة أحجار طواحين ثم حملها على مائة جمل وفى قول آخر مائة وخمسين لينقلها الى مصر • وتمر الشهور وهذا الثعبان المبرقش بالذهب يتلوى زاحفا عبر الصحراء • وعندما وصل مصر وضع السبائك الذهبية بجوار باب قصره الجديد • وعندما رأى الناس تلك الأكوام الذهبية دعوها « الحشرات » وهو اسم يعكس إعجابهم الساذج بتلك الكنوز ولعل تلك التسمية قد أتت من لمعة ذلك المعدن الثمين التي أوجت اليهم بمنظر حشرات صغيرة تلمع أجندحتها تحت الأشعة كالذهب • وقد وضعت السبائك فوق بعضها البعض حتى كومت عوارض الباب الذى يسمى باب الذهب •

وبعد سبعين عام ، أى فى عام ١٠٥٤ م ، تسبب فيضان شحيح للنيل فى حدوث مجاعة • فارتفع سعر القمح الى ثمانى دنانير تقريبا للاردب الصغير مما أدى الى ندرة متزايدة فى الخبز • فاشفق الخليفة العزيز بالله على الفقراء أن يموتوا جوعا ، فصرح لهم بأن ينتزعوا بآراميلهم شققا من المعدن الثمين الذى ألف عارضى باب القصر وكما يتوقع فقد اختفى الجزء الأكبر من العارضيين فى لمح البصر • فاضطر السلطان لنقل الباقي الى داخل القصر • ولا يعلم أحد مصير هذا الجزء الباقي من الذهب •



ولن نعرف أبدا حقيقة هذه القصة لأن المؤرخون العرب اعتادوا أن ينقلوا من بعضهم البعض •

وقد أتاحت الفرصة لناصرى خسرو أكثر من مرة لرؤية « باب الذهب » وللدخول القصر نفسه ، لكنه لم يتحدث مطلقا عن أحجار طواحين المعن الذهبية • ولو كانت قد كوتت جزءا من باب القصر ، لما فات به أن يذكر هذا •

كان يقوم على حراسة باب الذهب مائة من الفرسان فى كل ليلة وعندما كان مؤذن القصر يرفع صوته بأذان المشاء أمام أهل القصر الموجودين فى تلك اللحظة ، يسرع أحد الأمراء الى « باب الذهب » وبجرد الانتهاء من الصلاة يعطى أمرا بنفخ البوق ثم تقرر الطبول وتستمر الموسيقى لمدة ساعة • وعندئذ يخرج ضابط مكلف من القصر وينادى أمير المؤمنين يسلم على الأمير فلان ، فيتناول هذا رمحا ويفرسه بحركة قوية فى الأرض على عتبة الباب ثم ينتزعه ، ثم يفلق الباب ويدور بالقصر سبع مرات • وعندئذ تنتهى نوبة الحراسة ، فيضع حراسا لليل ، وينهب الآخرون الى مخادعهم المشيئة على مقربة من هذا المكان ، ثم تبدأ سلسلة يمرض ميدان باب القصرين تطلقه فى وجه المارة ، حتى يعلن صوت النغير وقرع الطبول من جديد عن مجيء يوم آخر ، وعندئذ ترفع السلسلة وتعود حركة المرور •

وقد « استخدم باب الذهب » أجمل أبواب القصر التسع لزور الأمراء والعلماء وكبار رجال الأسرة وجموع الحرس الى داخل القصر أيام الجمع والأعياد من كل أسبوع لحضور مجلس الخليفة فى قاعة العرش • وكانت تلك مشيدة فى الايوان الكبير داخل القصر حتى عصر الحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢٠) • وبهذا من هذا العصر نقلت الى قصر الذهب

وهو واحد من عشرة قصور كانت تمتد بين « باب الذهب » و « باب النهر » واستمر القصر الكبير الذي شيده المعز وأتمه ابنه العزيز وخلفاؤه ثلاثة قرون قبل أن يؤول تدريجيا إلى الخراب :

ومحاولة حصر الثروات التي ضمتها يوما تلك القصور أمر لا يثير خيال المرء فحسب بل يملأ النفس بهشة شديدة . فما الذي يمكن للمرء أن يصنعه باثني عشر ألفا ردا (كما قيل) من مختلف الألوان وبمئات الصناديق المملوءة بكاפור القصير ورشيد . ولقد تركت ابنة المعز رشيدة التي ماتت في عام ١٠٥٠م ؟ ثروة قدرت باثنين مليون وسبعمائة ألف دينار . وقدر وزن الأختام التي وضعتها أختها عیدان على حجراتها وصناديقها وصواوينها بأربعين رطل . وقد أحصى منها بين كثير ثلاثمائة وألف نصيصا من الفضة المزينة بالملينا ومزخرف بنقوش بارزة وأربعمائة سيف مفشق بالذهب وثلاثين ألف شقة قماش صقلى .



تعددت الأعياد التي أضفت البهجة على حياة أهل القاهرة في العصور الوسطى . وكان كل منها فرصة لاستعراض الثراء الخرافي . ففي يوم عرفات على سبيل المثال كان المعز يجهز شمسية (كسوة) للكعبة المشرفة في مكة المكرمة . وكانت الشمسية مربعة طول كل جانب منها اثنا عشر شبرا (الشبر يساوى ٢٢ر٥ سم) وكانت تزينها خمسون لؤلؤة كل منها بحجم بيضة الحمامة ، وكانت الكتابات القرآنية عليها من اللؤلؤ أيضا وقد شكلت بالزمرد . وقد قيل انها حوت ثلاثين ألف مثقالا من الذهب وعشرين ألف درهم من الفضة وستمائة وثلاثة آلاف جوهرة متنوعة الألوان وفي أول أيام عيد الفطر كان الخليفة يخرج على صهوة جواده إلى مصلى في الهواء الطلق متبوعا بموكب . وبعد انتهاء الصلاة يعود إلى قصره ويتوقف عند باب القاعة حتى يطلع عنه الوزير ثوب العيد ويلبسه ثوبا آخر . وفي هذا الوقت يكون قد تم نصب العرش في قاعة المائدة . وتوضع أمامه مائدة من الفضة وعليها أواني من نفس المعدن وأخرى من الذهب أو الصيني مملوءة بأطعمة مختلفة . وكانت تمتد بطول القاعة مائدة ضخمة من خشب مصقول أشبه بمنصة منخفضة تغطيها الأزهار ويطولها امتد صفان من أرغفة الخبز الدائري الأبيض بين كل منها ثلاثة أرتال صنعت من خميرة شديدة النقاء . أما القسم الأوسط من المائدة فقد امتدت على طوله واحد وعشرون طبقا مستديرا ومستطيلا حوت خرافا محمرة ساخنة محاطة بنساجات وطيور أخرى وعلى جانبي تلك الأوكوم من الأطعمة امتد حائطان من المربي المحققة

قطعت الى شرائح عريضة تلتصق بالوان عديدة . وبين الأطباق وضع خمسمائة طبق صغير من الفاينس بكل منها سبع دجاجات محشوة بالخلطة فضلا عن اللحم المفروم جيد الاعداد . وعند الفراغ من تناول الطعام ، يأتي بالحلوى ، وكانت فى هيئة قصيرين كل منهما وزن صبعه عشر قنطارا محمولة على محفات وكانت مغطاة بأوراق الذهب ومزينة بنقوش بارزة .

وبمجرد أن يجلس الخليفة على العرش كان الوزير يتخذ مجلسه على يمينه ، وعلى جانبيهما يقف أربعة من السياس وأربعة من الخدم الخصوصيون . وعندئذ يجلس الأمراء وعلية القوم الى المائدة دونما أى ترتيب مسبق ثم تبدأ المائدة .

ولاضفاء لمسة من المرح على تلك المآدب كان يدعى اليها عادة ضابطان يدعيا كما يذكر المقرئى ، ابن الفايى والآخر الديلمى . وكان الواحد منهما قادرا على التهام خروف محمر وعشر دجاجات محشوة بمفرده فضلا عن رغيف من الحلوى وزن عشرة أرباط . وكان أحدهما قد سجن فى عسقلان فى إحدى الحملات الحربية على تلك المدينة . وكان الموظف الذى سجنه يمتلك عجلا سمينا وزن بضعة قناطير . وقد قال لسجينه ضاحكا « أن أكلت هذا العجل اعتقت » فقبل هذا الرهان . وحرر الخروف ونجح السجين فى تناوله . فأطلق سراح الرجل وفاء لعهد . وفى كل عام كان الخليفة يدعو السجين السابق الى مأدته فى القاهرة .



ومن بين تلك الأعياد عيد « قطع الخليج » . وفى هذا اليوم تكون فرق جيش الخليفة كلها على أتم استعداد وتتوزع فى فرق وفصائل منفصلة . ويمكن للمرء أن يميز بينهم عشرين ألفا من فرسان القطامية الذين كانوا قد أتوا مع المعز ، والباطلية وهم قوم من المغرب كانوا قد أتوا الى مصر قبل أن يغزوها المعز ، « والمصمودية » وهم من السود جميعا ، أما الترك والفرس فكانوا يسمون بالمشاركة وهم حسنو الهيئة، وحولهم يصطف عبيد الشراء (أى المشترون) ، وبدو الحجاز وعدتهم خمسون ألف رجل كلهم مسلحون بالرمح ثم يأتى السرايا (أو خدم القصر) ثم المشاة وقد أتوا من مختلف البلاد ويخضعون لرئيس يتولى رعايتهم واعاشتهم وكل منهم يقاوم بالسلاح الذى اعتاد عليه فى بلاده ثم يأتى العبيد السود أو البيض ، ثم الزوج وعددهم ثلاثون ألفا مسلحون بالسيوف . وكانت هناك فرقة خاصة مستقلة عن الجيش تتألف من

أبناء الملوك والحكام الأجانب الذين أرسلوا الى مصر • ويلمح المرء منهم أمراء من اليمن أو من بلاد الروم أو السلاف أو النوبيين أو الإثيوبيين أو أبناء أمراء جورجيا وخاقانات التركستان • وكانت نفقة تلك الفرقة عظيمة بينما انحصرت واجبات أفرادها في المثول في حضرة الوزير من وقت لآخر ، وكذلك في المناسبات التي يقدم فيها الولاء الى الخليفة ووزرائه •



تولى عرش البلاد الخليفة العزيز في سنة ٩٧٥ م وكان في سن الحادية والعشرين وقد وصف بالشجاعة وفراة الطول والوسامة (وبالرغم من زرقة عينيه وحمرة شعره وهي صفات كانت لا تروق لعربي) كان صائدا ماهرا ومحاربا صنديدا • وهو أكثر شخصيات الخلفاء الفاطميين إثارة للحب • فقد كان ميالا للتسامح كارها لسفك الدماء فقد أتاه يوما وزيره ابن كلث يشكو اليه أبياتا تسخر منها الاثنين فقال العزيز « نحن شريكين في الإهانة ، فقامسني الصفيح » (١) وكثيرا ما عبر عن رغبته المتقدة في إسعاد رعاياه لكن عيبه الوحيد كان إيمانه في قدرته على التنبؤ بالمستقبل • ولولعه بالترف فقد شيد عدة عمائر زادت في جمال القاهرة • وينسب اليه « قصر الذهب » و « قصر اللؤلؤ » السالف ذكرهما واللذان قد اعتبرا لثراء رياشتهما ووفرة استخدام الذهب في زخرفتهما وجمال موقعهما ، أبدع قصور المدينة • ومن أعلى القصر كان البصر يمتد شرقا حتى حديقة كافور • أما في المغرب فقد شيد حول الخليج في وسط المزارع والحدائق عمائر بديعة كونت حيا الطبائفة واللوق • أما في الجنوب فكان النيل يتلأأ • وقد شيد لأمه مسجدا في القرافة • وفي عام ٩٩١ م بدأ في بناء الجامع الذي اتته الحاكم بإمر الله ابنه وحمل اسمه بالإضافة الى سفر العديد من القنوات وبناء الكثير من القناطر والجسور وأرصعة الموانئ وحديقة Sordus • فم قصرًا في عين شمس •

وفي عهده تمتعت القاهرة بدرجة من الثراء يصعب تصديقه • فقد كانت العمائم تشكل من أقمشة ثقيلة متعددة الألوان ومطرزة بالذهب تدعى « دابق » نسبة للمدينة التي كانت تصنعها • وبعضها منها كان يصل طولها الى مائة ذراع • وفي هذا العصر أيضا شاع استخدام السروج المذهبة المطعمة بالأحجار الكريمة والمطرزة بالعنبر وكانت الأسلحة أيضا تكتسى برفائق الذهب •

(١) ترجمة للنص القرطبي •

وامتدت حالة الثراء التي أحاطت بقمة الهرم الاجتماعي الى قاعدته أيضا . فلأول مرة تعرض في الأسواق أسماك طازجة من البحر أرسلت الى القاهرة حية . وأغرقت الأسواق بنبات الكمأة Truffle الذي كان يجلب من المقطم حتى صار يباع بدرهم لثمانية أرطال . وريت سلالة من الخيل في القاهرة سوداء ذات أرجل بيضاء كانت غير معروفة من قبل في المدينة . ولأول مرة في هذا العصر استقدمت الى مصر اناث أفبال . وكان النوبيون حتى هذا العصر يمنعون تصديرها الى مصر حتى لا تتكاثر وتستخدم كسلاح في معركة مستقبلية ضدهم وضد أى بلد مجاور . وشهد ذلك العصر محاولة لاستجلاب وحيد القرن الى القاهرة . لكنه مات في الطريق وكان على أهل القاهرة الاكتفاء بشاهدة جلده محشوا فقط .



فور وفاة العزيز في عام ٩٩٦ م أخذ « برجوان » مؤدب ابنه « الحاكم » يبحث عن تلميذه ، فوجده مختبأ في شجرة تين ، فألبسه برجوان عمامة مزينة بجواهر وعرضه على الناس الذين أخذوا في الركوع أمام الامام الجديد . وفي اليوم التالي سار الامام الفتى البالغ من العمر أحد عشر عاما خلف الجمل الذي كان يحمل جثمان أبيه ، وكان يحمل في يده رمحا وسيفا معلقا في جرابه .

أثرت نزوات الحاكم الشخصية التي شابته تصرفاته منذ حداثة على حكمه الذي دام ٢٥ عاما . وقد أدت الصعاب التي واجهها بعد سنوات قليلة من ولايته عندما قتل مؤدبه « برجوان » الذي كان قد اتخذه وزيرا ، الى تشويش عقل الخليفة الشاب تماما وصار عهده سلسلة طويلة من الفظائع والمراسيم الشاذة والقرارات المثيرة للحق التي فرضها على رعاياه . وقد أثار شنوده وغربة أطواره حيرتهم فلم يكن المرء قادرا على أن يعرف ما يخبئ له القدر . فتارة حرم الملوخية ولعب الشطرنج وتارة أخرى منع النساء من التردد على الحمامات العامة . ثم أمر بإعدام الكلاب في القاهرة . وقد أثرت طبيعته الشرقية الحادة على مزاجه النهم الى الملذات وأضيفت الى تلك شخصية لمسة من أهواء أهل الغرب . لقد وصفه بعض المؤرخون بالجنون ، لكن شخصيته كانت أقرب الى الجساسة وعدم الاتزان . كان شخصية حساسة أمكنها أن تنفذ نزواتها ، لكنها شخصية فتاة بالتأكيد مثلها مثل ثيرون الذي شابهه في أكثر من شيء . لقد أشعل النار في أركان القاهرة الاربعة ليستمتع

يمتظر السنة الذهب من نافذة منمودة قصره وهي تمتد في طريقها إلى النيل ، ولتتمكن من إعادة بناء المدينة على هواه * كان وجهه يعينه الزرقاوتين الرهيبتين وصوته الجهورى يعننا احساسا بالنفور في النفس * وقد طابقت شخصيته المراوغة الماكرة النعت الذي وصفه به مؤدبه برجوان « السحلية » * فلقد كان يفضل الظلام على النور ، لذا كان يعقد مجلسه في الليل * وفي الليل كان يطوف بالمدينة على حماره وقد أخفته انظلمات * وكان يتجسس على رعيته بحجة تفقد الموازين والمكاييل * ولارضاء نزوته فقد تحتم على المتاجر أن تفتح أبوابها طوال الليل وتغلقها في النهار *

امتزج في شخصه الذكاء والجنون والوحشية والتقوى * وقد خلف مجموعة من العماثر التي ساهمت في نمو القاهرة ومن أشهرها جامع الحاكم الذي عاش إلى يومنا هذا ليذكرنا بهذا الخليفة الشاذ * وقد بدء في بنائه في عام ٩٩٠م وفرغ من بنائه ١٠٠٣م * لكنه افتتح للصلاة في عام ٩٩١م وفي تلك المناسبة ذهب إليه الحاكم (وكان حينئذ طفلا) في موكب كبير بصحبة أبيه ، تحميه من وهج الشمس مظلة ، بينما سار أبوه دون أن يحجب عنه الشمس شيء * وقد تولى الحاكم مهمة اتمام الجامع * وعلى نسق جامع ابن طولون بنى من القرميد عدا المثناة التي بنيت من الحجر مثل مثناة ابن طولون * وفي كلاهما يحيط بالصحن أربعة أولوين * ولقد قاسى الجامع مقاساة شديدة من زلزال في عام ١٣٠٢ لكنه رمم في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون *

وهو الآن الجامع الخرب (١) الذي يلاصق سور القاهرة الفاطمية بالقرب من باب الفتوح *



وبعد ان بلغ الحلم شيد الحاكم جامع رشيدة حيث كان كثيرا ما يؤدي فيه صلاة الجمعة * واشترى من احفاد عمرو الجامع الذي يحمل اسم الفاتح العظيم (جامع عمرو) فقد آل هؤلاء إلى الفقر ومن ثم طلبوا من الحاكم ان يسمح لهم بهدم الجامع ليبيعوا انقاضه قاعطاهم الخليفة مائة إلى دينار وأصلح الجامع على نفقته الخاصة * ووضع فيه ثريا من الفضة تزن خمسة وعشرين قنطارا وكبر حجمها فقد اضطرا إلى هدم

(١) أعيد ترميمه ترميما شاملا في السنوات الأخيرة على نفقة سلطان البحرة ، وهم طائفة من الشيعة تعتقد انها انحدرت من الفاطميين *

أحد أبواب الجامع لادخالها • ويأمر الخليفة اضىء بيت الصلاة بثلة مصباح فى كل ليلة كانت ترتفع فى أيام الأعياد الى سبعمائة •

وبنى فى المقس مسجداً آخر (وهو مكان يتدبر فيه المرء الأخرة) .
وأقام منظرة تشرف على ما حولها (وهو مكان للمسرات الدنياوية) •
لكن أهم أعماله كان بناء « دار العلم » فى عام ١٠٠٥ م وكان الهدف الأول من انشائها نشر العقيدة الشيعية وأن عني أيضاً بتدريس علوم أخرى عدة • كالنحو والشعر والشريعة والطب وكتابة الموسوعات • وقد احتل هذا المعهد بناءً فآخرًا مزوداً بمكتبة عظيمة نقلت إليها كتب من مكتبة القصر • وسمح بالاطلاع فيها لكل راغب فى قرائتها أو الرجوع إليها • وكانت رواتب المعلمين تدفع من مال الحاكم • وكان المعهد متكفلاً بتوفير الجبر والوق والأقلام التى قد يحتاجها المرء • وبعد سبع سنوات من تأسيس هذا المعهد دعى الحاكم طوائف علمائه كل طائفة على حدة اليه حيث خلع عليها أثواباً شرفية •



وعلى النقيض من نشاطه المعارى ، تسبب فى خراب كثير من المنشآت • فقد هدم الكثير من الكنائس بالقرب من شوارع رشيد ونهب كنيسة المقس • وذات يوم رأى دمية فى «لشارع البست ثوبا ، فظنها» للولعة الأولى امرأة حقيقية عصت أمره الذى منع خروج النساء من منازلهم وكان بيد الدمية رقعة من ورق تسخر من الخليفة • فجن جنونه وأرسل جنوده من السود ليحرقوا الفسباط فحمل الناس أسلحتهم وخرجوا للدفاع عن بيوتهم • وعلى الرغم من مقاومتهم المستميتة فقد ذبح الرجال وغتصبت النساء ومحي نصف المدينة تماما •

وفى عام ١٠١١ م أمر بهدم « قصر اللؤلؤة » القائم بالقرب من مقياس النيل ، ومنه كان المرء يرى منظرا جميلا للنيل وحديقة كافور • وترك للناهبين محتويات القصر باكملها فباعها هؤلاء ، وبعد أيام قلائل قبض على كل من كان فى حوزته شئ منها وأودع السجن •

ومن بين منشآت الحاكم ، الذى كان مولعا بعلم الفلك ومنه ادعى استقاء أحكام شاذة وأحيانا قاسية طبقها على رعاياه ، مرصد شيد على جبل المقطم ولم يتم بناؤه كما شيد أيضا فى المقطم بيتا صغيرا خصصه للدراسة النجوم •

ولا بد ان صورة الحياة فى القاهرة كانت شديدة الفراية تحت حكم الحاكم بأمر الله فخلال سبع سنوات لم يكن يسمح لامرأة بالخروج الى

الطريق وكانت مشترواثنان تبعاً لهذا تتم عن طريق النافذة . وفرض الحاكم على كل طوائف المسيحيين بدون استثناء رداً خاصاً فكان المسيحي يرى في كل مكان مرتدياً ثوباً ذو عراوى صفراء معقود بزئار (حزام) ويتنلى من عنقه صليبا خشبيا يزن خمسة ارطال وتحتم على المسيحيين ارتداء عمامات زرقاء وعلى اليهود ارتداء أخرى صفراء . وحتى الحيوانات لم تسلم من مزاجه الشاذ فقد حرم استخدام السروج المطرزة بالذهب والفضة التي شاعت فيما قبل واستبدلت بسروج من الجلد الأسود .

وأمر الحاكم باللقاء مخلفات القاهرة خلف أسوارها حتى يحميها من السيول التي تنهمر من جبل المقطم وبذا تكونت التلال المروفة (بالبرقية) وظل هذا الجانب خاوياً من العمارات حتى سقوط الأسرة الفاطمية .

لمدة سنتين عاماً (١٠٣٦ - ١٠٩٦) حكم مصر « معد » حفيد الحاكم بأمر الله ، وهو ابن ابنة الظاهر من جارية سودانية ، تحت اسم « المستنصر بالله » وبذا يكون عهده أطول عهود ملوك المسلمين . وقد رآه تاصري خسرو في احتفال « قطع الخليج » ووصفه بأنه شاب صغير حسن الوجه ، حليق اللحية . وكان احد ضباطه يظلل رأسه من الشمس بمظلة حرجصة باللؤلؤ والاحجار الكريمة . وكانت ملابس الخليفة البسيطة لا تتواءم مع فخامة موكله فقد اكتفى بارتداء قفطانا أبيضاً وعمامة . بيد أن هذه الملابس البسيطة لا يجب أن تخدعنا عن حقيقة أمره . فلقبه كان مؤلفاً بالملذات الحسية ولما يبعده عن شخصية المسلم الورع . وقد أقام في قصره في عين شمس خيمة أمام حوض ملاء بالخمر . واعتاد أن يقيم فيها حفلات يشترك فيها موسيقيون وراقصات . وبذا أراد أن يستخر من الكعبة المشرفة ويثر زمزم . وقد كان من رأيه أنه من الأفضل للمرأة أن يقضى هناك وقته على أن يذهب لزيارة حجر أسود حيث يسمع أصوات مؤذنين قبيحة تدعوا إلى الصلاة ويشرب ماء غير مستساغ (كذا) .

وتميزت شخصيته بالضعف والتردد وسيطر عليها الطامعون والمتآمرين ، فلا عجب أن توالى على منصب الوزارة أكثر من ثلاثين وزيراً حتى عام ١٠٦٠ م حينما قلدها إلى نصر الدولة وكان انساناً مستبداً اعتمد في الاحتفاظ بمنصبه على الوقعية بين فرق الترك والسود التي ألقت حرس الخليفة . فبعد أن صار قائداً للفرقة التركية ، مزق اوصال فرقة السود وسيطر على الخليفة وترك الترك يتهبون كنوز القاهرة وتحفها الفنية ومكتبة المستنصر الثمينة . ولم يضع حداً للفوضى سوى وصول بدر الجمالى إلى منصب الوزارة وهو شخصية اتسمت بالحيوية والعزم .

وبالرغم من هذا اتسمت سنوات عهد المستنصر الأول بالهدوء ، على الأقل بالنسبة للبسطاء . فلم تكن المؤامرات التي تحاك في القصر تعنى فى شيء أصحاب الحوانيت والضيايع . وقد ركز ناصرى خسرو على الاحساس بهدوء واستقرار الحياة . الذى تبعته القاهرة ، فكانما كان هذا ربيعاً مبشراً بفترة من السعادة قادمة .

لكن سرعان ما أتى الصيف مصحوباً برياح ساخنة وشمساً قاسية وجفافاً ملمسراً ومحرقاً لكل شيء حول الأرض الى صحراء . وكان بدر الجبالي بمثابة الخريف بفاكهته الفضة وحصاده الوفير لتعود القاهرة الى النماء والازدهار خلال العشرين سنة الأخيرة من عصر المستنصر .



وقد قدر (ناصرى خسرو) مساكن القاهرة فى ذلك العهد بعشرين ألف كل منها مكون من خمس أو ست طوابق . وكان ايجار منزل من أربعة طوابق احدى عشر ديناراً فى الشهر وقد طالب صاحب المنزل الذى تزل فيه الرحالة بخمسة دنانير كايجار شهرى للطابق الأخير من منزله . وروى « خسرو » ان رجلاً رفع الى سقف منزله المؤلف من سبع طوابق عجلاً وبعد ان كبر استخدمه ليدبر ساقية ترقرع الماء الى السطح حتى يزرع هناك شجار يرتال . وموز وفواكه أخرى .

وامتدت جنوب القسطنط رقعة من الأراضي تغطيها الخضرة ، طول كل جانب من جوانبها حوالى ميل وفى موسم الفيضان كانت تتحول الى بركة عرفت باسم « بركة الحبش » تحيط بها الحدائق من كل جانب تقنى بجمالها الشمرء .

وقامت هناك كنائس للمسيحيين جنباً الى جنب مع مساجد المسلمين . فجوار البركة بنى دير القديس يوحنا بحدائقه البديعة التى أولع الخليفة الحافظ بالترعة فيها . وبها كان ينثر الدرر الذى كان تظله شجرة جميز عملاقة وفضلاً عن هذا كان بالقسطنط سبع مساجد عامرة وثمان أخرى بالقاهرة . وفى شهر رمضان عام ١٤٠٦ م زاد المستنصر فى سعة المقصورة الموجودة فى جامع عمرو من جانبيها الشرقى والغربى ، وبناء على أمره ثبتت على وجه المحراب لوحة من الفضة تحمل اسمه منقوشاً ، وطوق عمودى المحراب بطوقين من نفس المعدن . وفى شهر شعبان من سنة ١٠٤٩ م ذهب حائط القبلة فى نفس المسجد حول المنبر . وبعد ثلاثة سنوات اضيفت الى الجامع مئذنة جديدة .

وفى كل عام كانت مائتى قافلة تحمل المسافرين الى القاهرة التى كان

يربطها بجزيرة الروضة جسر من القوارب ، ومنها يمكن عبور النهر بقارب الى الجيزة .



وكان بالفسطاط سوق يسمى « سوق القناديل » حيث كانت تباع تحف فنية لا توجد في مكان آخر ، ومنها أوان من الفايانس (فخار مطلي بطلاء زجاجية) شديدة الرقة حتى ان المرء يرى من خلالها يده وضعت فيها ، وأكواب زجاجية خضراء اللون رائعة الصناعة . ويذكر ناصري خسروان من بينها كان ما يباع هناك أشغال الصدف مثل الصناديق والامشاط ومقايض السكاكين ، وأيضا كريستال دقيق الصناعة استورد من المغرب وأنياب أفيال من زنبار يزن الواحد منها مائتي من ثلاثمائة وأربعين كيلو جرام . ويذكر نفس المؤرخ ان كميات الخضر والفاكهة التي كانت معروضة للبيع كانت هائلة ، وقد عدد منها أربعة وعشرين نوعا وكان السعر محددا فإذا ما حاول البائع خداع الشاري قبض عليه وشهر في المدينة باركابه جملا علق في عنقه جرسا حتى يقر بذنبه . وكان بالمدينة خمسون ألف حمارا استخدمت لتنقلات الاهالي ، أما العسكريين فاعتادوا ركوب الخيل .

كان الأمن يسود البلاد الى درجة ان الصائغ أو الصياد كان لا يزال باغلاق حانوته أثناء تغيبه عنه بل كان يكفي بحد حبل أو شبكة عبر الباب اشارة الى عدم وجوده . وكان هذا كفيلا بمنع الدخول . .



كانت مكتبة القاهرة واحدة من أعظم مكاتب العالم الاسلامي حينذاك حتى لقد عدت من عجائب الدنيا . وكان تدميرها في عصر المستنصر خسارة لا تعوض لمصر في هذا العهد . احتلت المكتبة أربعين حجرة من القصر الكبير (ذكر بعض المؤرخون انها كانت تشغل صالة من صالات المستشفى القديم) . وكان بها ستمائة ألف ومليون مجلدا تمثل مائة ألف كتاب في مختلف فروع العلوم والآداب التي كانت معروفة للعرب حينذاك . .

وكانت كلها محفوظة في صياوين مغلقة بمفتاح وعليها قوائم بما تحويه من كتب . وعين للمكتبة أمين وناسخين للكتب وخادمين . واشتملت المكتبة على ٢٤٠٠ نسخة ملونة من القرآن وعلى مخطوطاتها كتبت بيد ابن مقلا وغيره من مشاهير الخطاطين . وحوث أيضا ثلاثين نسخة من قاموس

عربي شهير هو « كتاب العين » للخليل بن أحمد ، وعلى فشرين نسخة من تاريخ الطبري منها نسخة بخطه هو ، وعلى مائة نسخة من « جمهرة ابن دريد » ، وغيره من الأعمال النفيسة وأخيرا فقد كان بها ١٨٠٠ مجلدا عن علوم القدماء . وكان بها أيضا صناديق حفظت فيها اقلام براها « ابن مقلد » « وابن البواب » وغيرهم من مشاهير الخطاطين .

وقد أنشأ القاضي الفاضل معهد في القاهرة حمل اسمه ، ونقل اليه مائة ألف مجلدا أتى بها من مكتبة القصر .

وعندما كان الخليفة يرغب في زيارتها ، كان يأتي اليها ممتطيا صهوة جواده ثم يترجل عند الديوان الذي كان موضوعا في القاعة وعليه يجلس ، ويأتي اليه أمين المكتبة حاملا القرآن والكتب التي يطلبها الخليفة . وإذا ما أراد الخليفة مطالعة كتابا ، أخذه معه ، ثم رده فيما بعد . وقبل ان يغادرها كان الخليفة يتجول فيها بعض الوقت متأملا ذخائرها ثم يغادرها بعد أن يمنح القائم عليها عشرين دينارا .

وقد أخذ الجنود الترك كل تلك الكتب وفاء لرواتبهم المتأخرة والتي كانت بلا شك أقل بكثير من قيمة الكتب . ولم تنجو من أيديهم سوى الكتب المحفوظة في القاعات الداخلية قرب مساكن الحريم حيث لم يكن يخرج أحد على الدخول هناك .

وفي هذا الوقت أيضا وبالتحديد في عام ١٠٦٩ نهب الفوغاه « دار العلم » التي أسسها الحاكم بأمر الله وذلك إبان الاضطرابات التي صاحبت سقوط نصر الدولة . وقد انتزع العامة أغلفة الكتب ليصنعوا منها نعالا للأحذية بينما استخدمت الأوراق وقودا . وقد نال حاكم الاسكندرية قسما من هذه الكتب ، ونقله الى مدينته وعند سقوط الاسكندرية في يد قبيلة من البربر ، أحرق البدو بعض الكتب واتخذوا من جلدها أحذية .

أما القسم الآخر من الكتب فقد ترك آكوا ما مهملة في قلب الصحراء فغطاها الرمل تدريجيا مكونا تلالا صغيرة سميت تبعا لهذا « تل الكتب » .



في عام ١٠٧٣ م عين المنتصر بالله بدر الجمالي حاكم دمشق الفاطمي السابق وزيرا . وكان الوزراء السابقون قد سيطروا تماما على المستنصر وبمساعدة المرتزقة من الترك نهبوا البلاد بمعنى الكلمة . وفي صحوة من المستنصر قبض على قائد الحرس التركي وأرسل رسالة الى بدر الجمالي يستدعيه لإدارة البلاد . وقبل هذا على شرط أن يصطحب معه جنوده

السوريين ولم يرتأب الجنود الأتراك في نواياه عندما أتى الى القاهرة لكنه كان معتزما على التخلص من منافئيه . فأمر كل جندي من جنوده بقتل أحد الضباط الأتراك (١) وفي اليوم التالي أتى اليه الجنود السوريون وكل منهم يحمل رأسا من اذنيها أو من شعرها أو يحملها بأصبع أولجه في قم القائد التركي الذي كلف بقتله .

أجثت العشيب الفاسد وآل للبذرة الطيبة أن تنمو . كان بدر الجمالي حاكما كفا وعادلا وتحمت قبضته الحازمة تمتعت القاهرة بفترة طويلة من الرخاء وعادت مرة أخرى ولأول مرة منذ عصر العزيز قبله للمعماريين . ففي عام ١٠٨٧ م أعاد بدر الجمالي بناء سور القاهرة حتى يسفل فيه الأحياء التي تمت خارج اطار المدينة القديم في الشمال والجنوب ، وبنى أو أعاد بناء بعضا من الستين بوابة (٢) وقيل أن ثلاثة أشقاء قسموا الى القاهرة لبناء ثلاث من بواباتها على الطراز البيزنطي وهم « باب الفتوح » و « باب النصر » و « باب زويلة » . والباب الأخير قد حل محل « بابي زويلة » القديمين . وأمامه أقيم ميدان واسع رصفت أرضيته بحجر مصقول حتى تنزلق عليه سنايك خيل أى عدد قد يهاجم المدينة . وقد سبقت ولاية بدر الجمالي لمنصب الوزارة فترة أشتهر الوباء والمجاعة في مصر مما أدى الى أفغار القاهرة . وقد اعتزم بدر على أن يعيد العمران إليها ولجأ الى انتزاع مواد البناء من خرائب العسكر والقطائع . وعهدت المنازل التي رفض أو أهمل أصحابها في اصلاحها وأستخدمت أحجارها في تشييد عمائر جديدة مما أدى الى إندثار جزء كبير من هاتين المنطقتين اللتين كانتا قد أقفرتا من السكان بفعل المجاعة والوباء وصارت أكواما خرائبها أشبه ببراكين متناثرة خامدة انفصلت بذلك القساطر تماما عن القاهرة التي اندمجت فيها المناطق السكنية الملاصقة . . وحول جامع عمرو وأبن طولون ظهرت مدينتان صغيرتان وأضاف الأنفل بن بدر الجمالي جامعاً جديداً في عام ١١٠٤ م بالقرب من بركة الحبش سمي « جامع الفيل » لأن القنطرة القائمة أمامه بعقودها التسع كانت توحي لمن يراها يوم العيد عندما يمر عليها موكب بمنظر قيل يحمل رجالا مسلحين .



تجلى ثراء خلافة في المواكب الاحتفالية التي كانت تتكرر على مدار

(١) قيل انه دعى الضباط الى مادية في القصر الكبير يسفل خلف كل منهم جنديا من جنوده وبشارة منه أطاحوا فرقاب أعدائه ثم التي يجتثم في يفر في القصر .
(٢) بلاشك بوابات حارات القاهرة .

العام فلم تكن تقل فيها عدة الفرس فى روعتها عن ملابس صاحبها وكانت سروج الخيل توشى بالذهب والفضة وتطعم بالأجبار الكريمة البراقة وأما أعتاقها الخيل فتزين بسلاسل من ذهب وعنبر وحول أقداسها تثبت أجراس صفيرة من الذهب ترسل رنيناً فى كل خطوة فلا عجب أن وصل ثمن الجواد أحياناً الى ألف دينار . وفى أول أيام السنة كان يطوق بالمدينة موكباً ، فى مقدمته يسير أولاد الأمراء وأصدقائهم ثم مجموعة من الجنود تمثل فرق الجيش المختلفة، يتبعهم الأمراء الأقل منزلة الأمراء ذوى السيوف المكفنة بالفضة « والأمراء ذوى الياقات الذهبية (١) » ، وشادو التاج ، (وهم الخدم المنوط بهم شد تاج الخليفة) ثم يأتى أهل بيت الوزير وعلى الجانب يسير حاملاً « لواء المجد (٢) » وأخيراً يأتى حامل انبؤاة (وهى مجرة من الذهب مطعمة بالؤلؤ) وحاملوا السيوف وكل منهم يسير محاطاً بعشرة الى عشرين تابعاً .

ثم يأتى الخليفة على صهوة جواد زينت جبهته بياقوتة هلالية الشكل ويتبعه فرقة من الحياالة الخفيفة يقودهم والى القاهرة وكانت مسئولية حفظ النظام فى الطرقات ملقاة على عاتق كل صاحب الباب (رئيس التشريفه) ووالى القاهرة والأسفهلار (قائد الجيش) وكان كل يحمل دبوس قتال من أجل هذا الغرض .

ورسارت خلف الخليفة كوكبة من الحياالة الخفيفة لحمايته . وجاء بعدهم حسب الترتيب التالى عشرة رجال كل منهم يحمل سيفاً فى صندوق مغطى بحريراً أحمر ثم أخضر يعرف هذا السيف بأسم سيف الدم ثم يليهم حملة الأسلحة الخفيفة ، ومن بعدهم الوزير مرتدياً حلة فاخرة متبوعاً بخمسةائة رجل ثم فرقة صبيان الزرد ويليهم الموسيقيون من قارعى الطبول ولآعبي لصنج والصفائر التى تلف موسيقاهم الموكب . ثم يأتى حاملو الحراب ودروعهم مغطاة بالذهب وهم ينسحبون الى حمزة عم النبى ويليهم الملاحون ومن بعدهم الرماة من الجزيرة العربية ويقدر عددهم بخمسمائة تقريباً ثم المشاة من البربر ومن بعدهم الفرنجة (وهم جند من العرب لقبوا بهذا الاسم لأنهم قهروا الفرنجة) ومن خلفهم يأتى حوالى أربعة آلاف جندى من فرق مختلفة ويليهم أصحاب الرايات (وهم فرقة انحطرت من الانصار وقريش الخ . . .) وكانوا يحتفظون براية

(١) هذه ترجمة اللقبين فى الأصل الفرنسى ، ولكن القريزى الذى اعتمد عليه المؤلف

فى وصفه يذكر « أرباب التصب » ، « أرباب الأطواق » .

(٢) Gloire فى الأصل ، ولكنها فى المصادر العربية « الحمد » .

تسلموها من عمرو بن العاص ومن هنا جاء أسمهم) * ثم تليهم وحدات مختلفة من الجيش من الأترك والكرد يبلغ عددهم جميعا ثلاثة آلاف رجل . وكانت الموسيقى الممتزجة بصفق الأعلام التي يصفعها الهواء مع سنابك الخيل تهب الأرض هزا بينما يشق الموكب طريقة وسط هتاف أهل القاهرة البسطاء ، الذي تقطعه شهقات الإعجاب المحصمة لدى رؤية الخليفة وصفوة أهل البلاد *

كان الموكب يبدأ من قصر الخليفة قاصدا صهريجا مشيدا عند باب النصر ومن هناك يتجه نحو باب الفتوح ليعود الى القصر عبر بين القصرين . وهنا يتوقف الجند وينزل الأمراء عن جيادهم ويتوقف الخليفة أمام جامع الأقصر بالقرب من القصر الشرقي * وينفصل الوزير عن الموكب ويسرع بجواده نحو الخليفة حيث يقدم له فروض الولاء والطاعة فيرد عليها الخليفة بحركة خفيفة من يده وهي تعبر عن اسمى شرف يمكن لمخلوق أن يناله من الخليفة . ولما كان الوزير ينقب وحده برب السيف فقد كان أحيانا يحظى بهذا الشرف وعندئذ يعود الوزير مسبوقا بالأمراء راجلين الى القصر ويذهبون الى صالة الأعمدة التي كانوا قد خرجوا منها وعندئذ يترجل عن جواده ويصطف مع الأمراء في انتظار قدوم الخليفة *

وعندما يصل هذا الى القصر ينزل اتباعه عن جيادهم ويتبعون الخليفة المتطى صهوة حصانه الى القصر * ويأتى الوزير لملاقاته ويحييه ثم ينصرف مع الأمراء بينما يذهب الخليفة الى مخدعه ، وعندئذ ينصرف كل الى حاله سائرا على قدميه أو راكبا جواده أو تابعا لفرقة *

وكتب الفلقشندي عن هذه المواكب « كان الناس يستمتعون بتلك المواكب ويعجبون بها ثم يعودون الى منازلهم » (١) * وعند عودتهم كان الناس الذين اشتركوا في هذا الموكب يجدون عندهم هدايا مرسلة من الخليفة : مثل دنائير مربعة ودراهم مدورة ضربت خصيصا في الأيام الأخيرة لشهر ذو الحجة لتوزيعها في بداية السنة الجديدة على النبلاء * وكانت أخبار تلك المواكب ترسل الى كل من مدن مصر *

✱

وفي مقابل ثراء تلك الطبقة عاش البسطاء من الصناع والعاملين حياة خشنة * تجتمعت قثات الصناع والتجار في أسواق كانت تغلق أبوابها ليلا ويحرسها حراس يدفع روايتهم أصحاب الحوانيت في كل

(١) ترجمة عن النص الفرنسي *

منطقة • وكان على من تضطره الظروف الى التأخر ليلا معرفة كلمة السر
ليتمكن من المرور •

وكان لكل مهنة تقريبا سوق خاص بها ، الا أن الخيازين والشوئين
وباعة المشروبات وأصحاب المطاعم انتشروا في كل مكان • ففي سوق
الحدادين كان المرء يرى الصناع منكفئين على أعمالهم وقد غطاهم سواد
الفحم والسناج ، وقد أخذ بعضهم يثبت حدودا لحيوانات الجر • وكان
يوجد عدد قليل من البيطرة اختصوا بمعالجة الكسور والجروح وتوليد
الحيوانات المستأنسة ومعالجة ٣٢٠ مرضا من أمراض الحصان • أما
الآخرون تخصصوا في المسبوكات البرونزية والحديدية كالاسلحة
والاجراس ومقارع الأبواب والمصابيح • • الخ • وقد فرض عليهم السلطان
كتابة عيار السبيكة المستخدمة على مصنوعاتهم سواء كانت قطعة كاملة
أو أجزاء • وعلى هذا كان فم الصباح يحمل عيار سبيكة مختلفة عن
جسمه • وكان من يعهد منهم الى غش السبيكة بإضافة الرصاص أو يهمل
كتابة العيار ، يعاقب • أما صناع المفاتيح فكان عليهم ان يقيموا يميننا
فاذا ما ضبطوا يصنعون مفاتيح مقلدة منعوا من ممارسة صناعتهم •

وعلى بعد منهم أقام مبيضو النحاس والمرايا حوانيتهم • وفي سوق
الصاغة كانت تباع حل حقيقية الى جانب أخرى مقلدة وقد ظهرت تلك
الأخيرة منذ القرن الحادى عشر الميلادى وبذا كان الصائغ يضع الى جوار
اللائى والأحجار الكريمة غالية الثمن حل من نحاس منجذب وزجاج مصقول
ملون •

وكان الحائكون يصنعون الملابس اما بالجملة أو بحسب الطلب
وهؤلاء الآخرون كان يزنون القماش الحرير الذى يحضره الزبون ثم
يتعهدون بتسليمه ثوبا يمثل هذا الوزن فى ظرف أسبوع • وقد تمتع
الأسكافيون بقدر كبير من الأهمية حيث لم يرتد القباقيب الخشبية سوى
الفقراء • أما الآخرون فكانوا يرتدون أهدية الرخيص منها صنع من جلد
الحمار ، أما الأهدية الغالية فكانت تصنع من جلد الزراف • أما جلد
الخنزير البرى فقد كان محرم الاستخدام فى تلك الصناعة • وعلى عكس
الحائكين اشتهر عن الاسكافيين عدم الأمانة والدقة فقد كان بعضهم يحشر
بين طبقات الجلد المكونة لنعل الحذاء الورق ومزق من قماش • وأحيانا
كانت تصنع نعال الشباشب تماما من القماش ، فقد كانت قصاصات
القماش الطويلة المستطيلة تجمع بعضها فوق بعض ثم تثنى فى طبقات
صغيرة منتظمة كالأكورديون ثم تضغط فى مكبس ، أو عندئذ تبيت

بواسطة مسيور رفيعة من جلده البقر تنفذ خلال ثقب طولية أحدثت بواسطة مخراز رفيع سخن الى درجة البياض .

واعتماد تجار السجاد على بسط بضائهم في قلب السوق وتحت أقدام المارة لاثبات جودتها وقد تخصص بعض الصناع في اصلاح الاواني الخزفية والصينية المكسورة وكانت عدتهم عبارة عن ملقاط من النحاس . يسكون القطعة المكسورة بها حيث يضعونها في مكانها ثم يغطونها بلصق من بياض البيض المخلوط مع الجير .

ومن بين المدن التي اشتهرت بالبسطاء كان الغواد الذي يصنع آلة العود والقانون والتجار الذي يصنع المشريات وقطع الاثاث الصغيرة المطعمة والصناديق من الخشب الفاخر المطعم بالصدف والماج والفضة . والى جوارهم كان هناك تجارون مختصون بصناعة المقاعد والأسرة من جذوع النخيل ومن زعفها كانت تصنع السلالات والمكائن والمذبات .

وفي أسفل السلم الاجتماعي عانى شتظف العيش تجار السكسونيا الذين كانوا يطوفون بالأسواق والشوارع يجمعون الخرق والملابس القديمة وهم منظمي البيبة ، وكان المرء يرى هؤلاء في الشوارع حاملين على أكتافهم أنابيب من الصفيح وقصبة مجوفة تخرج منها أسلاك وحقيقية من جلده تحتوى على نسالة خرق يلفونها حول احد طرفي السلك ويولجونها في ثقب الغليون .



وقبل أن نترك المستنصر لا بد لنا من كلمة عن الكنوز التي كان يفحص بها قصره . فوصفها سيعطينا لمحة عن الفن الاسلامي في هذا العهد وعن أوجه اتفاق الخليفة . ولنبدأ بطاووس مطعم بأنفس الأحجار الكريمة : عيناه كانتا من الياقوت وزيشه من المينا المذهبة التي تعددت ألوانها بالوان طاووس حقيقي . ومنتقل الى ذلك شكل عرفه من الياقوت وكسى تماماً باللاز . وبأحجار كريمة غالية الثمن . أما صدره الأبيض فكان من أجود أنواع اللاز . ثم بطيخة من الكافور تزن سبعين مثقالاً . حوالي ٣٢٠ كجم ، تلفها ستارة مذهب ومرصعة بالأحجار النفيسة ، ومائلة من الياقوت تسع عدة أشخاص . ثم نخلة من ذهب مرصعة باللاز الرائعة والأحجار الكريمة موضوعة في صندوق من ذهب وبلعها مشكل من الجواهر التي تمثل في مختلف درجات نضجها . ويذكر المقيزي أيضاً أربعمائة قصص كبير غش بالذهب مملوؤة بجواهر من كل صنف وعامة مرصعة بالأحجار الكريمة تساوى ١٣٠٠٠٠ دينار ووزق بالحجم الطبيعي بفرشه وقمرته صنع في عام ١٠٢٥ م بأمر أحمد الجرجاوى وقد

استخدم فيه ١٦٧٧٠٠ درهم من الفضة ودفع لصائفيه ٢٩٠٠ دينار كأجر عن عملهم . ويذكر أيضا حوض وأبريق من الكريستال ، وأثاث من كريستال شديد الشفافية وصناعة رائعة وعلى كل منها نقش اسم الخليفة العزيز بالله . و ١٠٠٠ اناء من الكريستال أيضا يساوى الواحد منهم ألف دينار . وحديقة أرضها من فضة منقوشة ومذهبة وتربتها من عنبر أصفر ، وكان بها أشجار من الفضة تتدلى منها فاكهة من العنبر وكثير من المواد النفيسة .

لن نحاول هنا أن نفتح تفاصيل حكم كل خليفة فاطمي أو ملك آخر على حدة فليس الغرض من هذا الكتاب تقديم تاريخ مصر بل تاريخ لمدينة القاهرة . ولذا لن نتوقف الا عند هؤلاء الذين أحدثوا أثرا في المدينة أو غيروا من مظهرها . ولم تشهد فترة القرنين التي شغلتها الأسرة الفاطمية مولد أعمال أدبية عظيمة . فمناخ انعدام الأمن الذي ساد البلاد لم يشجع على العمل الذهني الهادئ ، وقد كان انعدام الخليفة الحاكم بأمر الله للشاعر عبد الغفار عبءا لكل من يراوده شيطان الكتابة . ويريد أن يحفظ في نفس الوقت رأسه على كتفيه . ومن ناحية أخرى . تجنب الكتاب السنيون الخلفاء الفاطميين لاختلافهم عنهم في المذهب لكن هذا النشاط الذي انعدم في الأوساط العليا من المجتمع وجد متنفسا في أوساط الشباب من الطلاب ومدرسي الجامع الأزهر .

وان افتقر الفاطميون الى الثقافة الأدبية فقد كانوا فنانيين عظماء . سبغوا ثروتهم الطائلة في خلق تحف فنية وكانوا بلا استثناء وكذا وزرائهم مولعين بالعمارة . وتنهض الجوامع المتخلفة من هذا العهد دليلا على ولعهم بالفخامة والبهاء .

صلاح الدين والقلعة

فى عام ١١٦٩م تولى صلاح الدنيا والدين يوسف بن أيوب المعروف فى الغرب باسم سلاطين Sa'adin اماره جيوش مصر . وقد عينه فى هذا المنصب الخليفة العاضد الذى مات فى عام ١١٧١م وبعد ثلاث سنوات من توليه المنصب تقلد سلطنة مصر معترفاً بالولاء لخليفة بغداد الذى لم يكن أكثر من صورة دون أى سلطة حقيقية مما جعل من صلاح الدين ملكاً مستقلاً بمصر .

كان صلاح الدين رجلاً رقيق الحاشية الى حد الحجل أحياناً ، وقليلًا ما كان يتخذ زمام المبادرة لكنه كان سياسياً محنكا ذو رأى صائب . وتمتع بمقدرة على انتقاد مستشاريه والاصفاء اليهم وهى مقدرة هامة لآى ملك ، كما تميز بالصدق فى وسط كانت تسممه الخديعة ، وبالتسامح الا فيما يتعلق بسلامة العقيدة . وقد خاض غمار الحروب طيلة حياته رغم رقة بنيته . واتصفت أخلاقه بالشهامة والفروسية وكانت تملؤه روح العطف والحب مما أثر فى أفكاره وأفعاله . كان دعوياً على عمله ، بسيطاً فى حياته ، عميقاً فى إيمانه حتى مثل بحق الصورة المثالية لفارس عربى .

فقد شارك فى حملات عدة وضم الى ملكه أرض نهر الفرات ودمشق وانتصر على الصليبيين فى حطين انتصاراً حاسماً ثم استطرد منهم القدس

ومعظم الأرض المقدسة ثم مات في عام ١١٩٣م في دمشق . وكان من بين الستة وخمسين عاما التي عاشها ثمان فقط قضاها في مصر .



ومع ذلك فمدينة القاهرة تدين له بالكثير ، فلقد كان بناؤه لقلعة الجبل بمثابة عمود فقرى لذلك التجمع السكاني في سفح جبل المقطم ، وبعد ان تم بناء القلعة كان للمدينة أن تشعر بالحرية والزهو وقد اتخذت هيئة وقورة كرجل وضع قبعته على رأسه ، وكان لمحمد على بعد ستة قرون من هذا التاريخ أن يتم ما بدأ صلاح الدين بتشبيد جامعة السامق في سماء قلعة الجبل وكأنها كان به يضع ريشة في قبعة القاهرة .



بعد سقوط الفاطميين وزع صلاح الدين القصور الفاطمية على أقاربه وقواده أما فهو فقد سكن مؤقتا في دار الوزارة الواقعة شمال المدينة . أما ميدان باب القصرين والميدان الواصل الى قصر الشوك والبستان الكافوري وباب العيد فقد تركت للعامة .

وفي عام ١١٦٧م أمر صلاح الدين ببناء قلعة على شرف صخرى في سفح المقطم . وقد تمتعت تلك البقعة بمناخ صحى عظيم فقد قيل أن اللحم المحفوظ فيها لا يفسد الا بعد أربعة وعشرين ساعة عن مثيله المحفوظ في القاهرة . وقد استغله الطولونيون في بناء للترفية عرف بـ «قبعة الهواء» ولكن الفاطميين قنعوا بقصرهم الحصن المشيد في السهل بيد أن صلاح الدين لاحظ على التو ضعف هذا الموقع الشديد من الناحية الحربية فأى عدو يتمتع بكثرة في الرجال والعتاد الحربي وغاقد العزم على النصر يمكنه بسهولة احتلال القاهرة بل ان ثورة بسيطة شعبية يمكنها أن تشكل خطرا على المدينة نظرا للاصقتها لضواحي يسكنها العامة . ومن ناحية أخرى لابد أن صلاح الدين السنى المذهب نفر من سكنى قصرى الخلفاء الشييعيين . فضلا عن أنه كان قد رأى المدن في سوريا مزودة بقلع لحماية وقد علمته التجربة أن المدينة كثيرا ماتسقط بينما تظل القلعة صامدة فتشكل ملجأ للأهالى وقاعدة للمقاومة يمكن منها استعادة المدينة مرة أخرى . وأخيرا فقد رأينا فيما سبق حرص كل أسرة حاكمة على أن توسع العاصمة باضافة قصور وأحياء اليها . وبذا أخذت المدينة في الاتساع في الاتجاه الشمالى الشرقى كسجادة ضخمة تفرد شيئا فشيئا . فلذا اعتزم صلاح الدين على ضم المدن الأربع المتوالية وهي الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة في مدينة واحدة ، وهو شرط أساسى لنمو المدينة نموا متجانسا مخططا . ويبدو أن السلطان قد تنبأ بمستقبل زاهر للقاهرة بالامتداد الذى ستصل

اليه وبإمكانية دمج الفسقاط فيها يوما ما مما يمكنها من أن تستعيد الحياة مرة أخرى بفضل هذا الاندماج .



وكان اختيار هذا الموقع لبناء القلعة اختيارا بديها يمكن تلخيصه فى الأمن والهابة . فلما كان صلاح الدين عازما على احاطة الفسقاط والقاهرة بسور واحد كانت تلزمه نقطة يشيد عليه قلعة يسيطر منها على المدينة ويسهل عليه الدفاع عنها وتكون على بعد كاف من المدينة حتى يستحيل عليها بهجوم غير متوقع . وفى الوقت نفسه كان الهدف منها أن تكون مقرا ملكيا مثل فرساي فى فرنسا يليق بالأسرة الجديدة .

اما نقطة الضعف الوحيدة فى البناء فكانت فى وجود متحدرات صخرية تعلوه فى الجانب الشرقى منه . ومنها كان يمكن السيطرة على القلعة التى تشرف على القاهرة بيد أن هذا الأمر كان مستبعدا فى هذا العصر الذى كان السلاح فيه لا يعتمد المتجنق والمقلع والسهم .

بدأ العمل فى القلعة فى عام ١١٧٦م لكنه لم ينته الا بعد ثلاثين عاما فى عهد الملك الكامل ابن أخو صلاح الدين ومنذ ذلك الوقت جدد بناؤها مرات ومرات حتى صار من المتعذر علينا تمييز البناء الأصلي . ومع هذا فقد وصل الينا النص التأسيسى الذى يحمل اسم مشيدها وهو موجود على « باب المدرج » وهو عبارة عن لوحة رخامية تحمل تسعة سطور من الخط النسخى الأيوبى .

« بسم الله الرحمن الرحيم انا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما (١) تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما (٢) وينصرك الله نصرا عزيزا » أمر بإنشاء هذه النقطة الباهرة الجوار (المجاورة) المحروسة (٤) القاهرة بالعرمة ؟ (تعنى الجسر أو الحاجز الذى يعترض السيل) التى جمعت نفعا وتحصنا وسعة على من التجبى (هكذا فى النص) الى ظل (٥) ملكه وتحصنا مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو (٦) الملك المظفر يوسف بن أيوب محبى دولة المبر المؤمنين (٧) على يد أمير مملكته وبعين دولته قراقوش بن عبد الله الملكى (٨) الناصرى فى سنة تسع وسبعين وخمس مائة . ✱

أشرف على العمل الخصى « طواشى » قراقوش الذى اتخذ المصريين لسوء حظه الغريب من سيرته مادة للضحك والعبث ووصفه المؤرخ السيوطى بأنه كان رجلا صالحا رقيقا لكنه ساذج ، وتصوره الكثير من نوادر عهده بصورة مضحكة ، فقد روى أن امرأة مات زوجها ذهبت اليه ترجوه أن

يمنحها بعض المال لشراء كفن له فأجابها « إن مال التركة لهذا العام قد نفذ ، فتعالى العام القادم إن شاء الله وسنعطيك كفننا » .

انتزع الحجر اللازم لبناء القلعة من الأهرام الصغيرة بمنطقة الجزيرة . وقد ذكر « ابن جبير » أن البناء قد تم فى عام ١١٨٣م وقد استخدم فى انشائه أسرى الحرب من الفرنجة وعدد غير محدد من الفلاحين الذين سددوا لهذا الغرض كما كان الأمر شائعا فى الماضى للحصول على أيدى عاملة مجانية . وبعرق وآلام الفلاحين المصريين وأبناء فرنسا أخذت ترتفع الأسوار المزودة بأبراج حصينة من على الأرض الملتهبة بالشمس ومن بين سحابات الغبار الذى ملأ الحناجر . وحفر بئر فى الصخر هو « بئر يوسف » وإن ذكر بعض المؤرخون أنه كان موجودا منذ زمن بعيد بيد أنه كان مطمورا بالرمال و يبلغ عمق البئر ٨٤ مترا وهو منقسم الى جزئين كان فى العلوى منهما ساقية ترفع الماء الى القلعة .

ويبدو أن الملك الكامل أضاف الى أبنية القلعة ، لكننا لم نعثر لهذا على أثر ومع هذا يذكر المؤرخون جامعا وبوابات وحظائر وأبراج حمام خصصت لتربية الحمام الزاجل الذى كان السلطان يفضل على اتصال دائم بسوريا .

وبنيت السلطنة الشهيرة شجرة الدر « صالة الأعمدة » التى كانت تسبق حجرات السلطان وكان بها عرشا من الذهب وعددا من الأواني الذهبية والفضية . وأسست فرقة موسيقية عسكرية « نوبة الأميرة » التى كانت موسيقاها كل مساء فى القلعة . وفى إحدى حمامات هذا البناء لقيت شجرة الدر مصرعها عام ١٢٥٧ ضربا بالقباقيب على يد حفنة من الجوارى . وقذف بجثتها شبه العارية فى خندق حيث لبثت أياما نهشتها فيها الكلاب . وفى القلعة أيضا استقبل السلطان بيبرس البندقدارى فى عام ١٢٦١ الخليفة العباسى المعتصم (١) الذى فر من بغداد أمام المغول وهناك قلعه الخليفة عمادة سوداء مغشاة بالذهب وعباءة أرجوانية والسلسلة وخاتم العرش من الذهب مما جعل منه حاكما شرعيا لمسلمى سوريا والجزيرة العربية ومصر .

تحت حكم المنصور قلاوون الذى شغف بالعمارة ازدادت القلعة بالعمائر ولم يتردد هذا السلطان فى هدم جميع منشآت سابقه تقريبا

(١) هذا ما ذكره المؤلف . أما حقيقة الأمر فإن آخر الخلفاء العباسيين كان الخليفة المستعصم بالله الذى قتل على يد المغول . أما الخليفة الذى استقبله الظاهر بيبرس فكان المستعصم بالله أحمد .

حتى يفسح المجال لمنشاته التي أنزل بها خلفائه بعد موته نفس المصير .
 ففي عام ١٩١٨ هدم ابنه الناصر محمد مسجدا وشيّد في موضعه مسجدا
 آخرًا يحمل اسمه إلى يومنا هذا . ويروي عنه الميرزي أنه كان مهبطا
 بالرخام نزيه لوحات مزخرفة بالذهب . وفي وسطه قبة متفتحة الجوانب
 بينما قسمت النوافذ الجصية مصبغات إلى مربعات صغيرة . وتظهر ذات
 القمم البصلية المكسوة بالقيشاني تأثيرا فارسيا بحثا ويرى هنا المتخصصون
 دليلا على تأثير معماری هذا العهد بالعمارة الماغولية . وقد شيّد الناصر أيضا
 الأيوان الذي عرف فيما بعد « بديوان يوسف » ، وقد حملت قبة الهائلة
 أعمدة جلبت من الصعيد وفي وسط القاعة نصب العرش وكان من العاج
 والأيونوس . كما بنى « القصر الأبلق » ، الذي عرف بهذا الاسم لأن واجهته
 كانت مداميك صفراء وسوداء متعاقبة . زينت الجدران والأرضيات بالرخام
 والفسيفساء الذهبية وتعددت ألوان جدرانه إلى ألف لون وامتزج اللازورد
 مع الذهب على سقفه . توجت الجميع قبة خضراء ينقذ من خلال نوافذها
 الزينة بالزجاج الملون القبرصي الضوء الذي تعكسه الجدران على القباب
 فكانما هو جوهر منشور . واحتفل السلطان بافتتاحه احتفالا عظيما وزع
 فيه خمسين ألف دينار على الفقراء وخلع على المعماريين والعمال ألفين
 وخمسمائة ثوب . كما حول الميدان إلى حديقة ، فقد حفر فيه آبارا لتزويده
 بالماء الدائم ، ثم زرع فيه أشجار فاكهة ونخلا كما شيّدت قناطر لنقل
 الماء من النيل إلى القلعة .

كانت أعمال محمد بن قلاوون نقطة الذروة في تاريخ القلعة فقليل
 منها ما تغير خلال الخمس قرون التالية ويروي الميرزي حادثة غريبة حدثت
 في عام ١٣١٨م فقد ذكر أنه في أثناء إحدى الفتن دمرت كنيسة كانت قد
 بنيت سرا في القلعة في ثكنات (طباق) الممالك التتار ، ويبدو أن بعض
 هؤلاء كانوا مسيحيين .

وفي عام ١٣٥٩م شيّد السلطان حسن مؤسس المدرسة العظيمة التي
 تحمل اسمه والموجودة أمام القلعة قاعة في القلعة قاعة عرفت باسم
 « البيسرية » التي تؤلف جزءا من الحريم ، وكانت تضيئها أربع مائة
 ثرية (١) تحمل الشموع . وكان ارتفاعها اثنين وثلاثين مترا وعمل فيها
 برجاً من العاج والأيونوس . واستخدم في تزيينها الذهب بأسراف حتى
 أن الميرزي قال « يكاد يذهل الناظر إليه (بريق الذهب) » .

كان أهم مزايا القلعة بلا شك المنظر الرائع الذي ينسبط أمامها
 والذي وجد الكثير من السلاطين قدرا كبيرا من المتعة في تأمله . وقد روى

(١) ثرية حسب الميرزي .

المؤرخ ابن اياس فى أحداث عام ١٣٩٥م أن السلطان برقوق كان يتأمل هذا المنظر حينما لمح خيمة منصوبة على جزيرة الروضة فأرسل أحد أتباعه ليتقصى أمرها فعاد اليه وأخبره أنها تخص « صاحب كريم الدين » وأصدقائه وأنهم يلهون هناك ويشربون الخمر التى يحرمها الاسلام . فاستدعاه فورا السلطان وأمر بتفريجه خمسين ألف دينار وبجلده وختم ابن اياس روايته متعجبا « فكان هذا من الأمور الغريبة » .

وعندما احتل الأتراك القلعة فى عام ١٥١٧ انتزعوا قدرا كبيرا من الفسيفساء والواح الرخام والأخشاب وغيرها ونقلت جميعا بالمرائب وأرسلت الى استنبول . وفى الطريق غرقت إحدى السفن فطوى البحر ما كانت تحمله من كنوز . وفى مقابل ما انتزعوه من تحف شيد الأتراك فى القلعة مسجدا فى عام ١٥٢٨ هو أول المساجد العثمانية فى مصر وسمى مسجد سليمان لكنه عرف لدى العامة باسم « سيد ساريه » نسبة الى أحد الصحابة المدفون هناك وقد قيل ان بعض المماليك الذين قتلوا فى مذبحة القلعة سنة ١٨١١م دفنوا هناك أيضا .

وبعد الغزو التركى لم تعد القلعة مقرا للحكام بأمر من السلطان سليم العثمانى وقد علل القنصل افرنسى مايه Maillet القرار الى خشية السلطان من تفسد عليه كبار موظفيه فألوا الى الذى سيقطن قصرا أنخم بكثير من ديوان السلطان فى القسطنطينية قد يفكر فى الاستقلال عن الامبراطورية وصارت القلعة ثكنات للغرب (جنود المشاة) واستخدم القصر الأبلق كمستشفى تصنع فيه كسوة الكعبة الشريفة .

وقد أجرى محمد على فى عام ١٨٣٠م تغييرا جذريا فى القلعة حتى لم يبق من البناء الأصلى سوى السور والبئر ، وبنى فيها جامعاه الذى أكسبته مئذنتاه المدينتان وقبته السامقة منظرا رائعا وسط القلعة العتيقة غير أن اضافات أخرى بنيت بذوق سقيم أفسدت هذا الاطار الرائع ومنها الساحة التى أهداها « لويس فيليب » ملك فرنسا الى محمد على والتى وضعها فى برج صغير مربع . وفى الركن الجنوبي الشرقى أضاف « قصر الجوهرة » الذى تشرف نوافذه على القاهرة ووادى النيل وهو منظر من أبدع مناظر الدنيا .



تمطى القلعة بثقلها وقوتها انطباعا بقوة متوعدة شريرة . فمنذ أول أيامها أخذت الشائعات تروج بين الناس عنها . وكما ذكرنا من قبل انتزعت الأحجار اللازمة لبنائها من أهرامات صغيرة ولذا تهامس الناس بأن شبعا هائلا يظهر ليلا خلف جدران القلعة التى تتصاعد تدريجيا على جبل

«المقطم • وهو شبح فرعون الذى انتهك قبره جاء يبكي حطام قبره الأبدى •
وكان الناس يعزّون الى غضبه الأوبئة والفتن والمجاعات التى تصيبهم
والمصائب التى تحل على أبنية القلعة • وعزوا اليه أيضا مصرع الملكة
شجرة الدر المفجع الذى ذكرناه آنفا •

وأرجع الناس أيضا كثرة الفتن والحرائق فى عصر الناصر ابن قلاوون
الى لعنة حلت بالقلعة • فلقد تسلم السلطان الناصر من حموه وهو ملك
ماغولى هدية من القاشانى من ألوان متعددة ليكسوا القبة البصلية للمذنتى
جامعه الجديد فى القلعة • ولما كانت تلك الهدية صنعت بيد ووفق ذوق
وثنى فقد جلب وضعها على مسجد اسلامى اللعنة على القاهرة •

وصاحب حفر بئر يوسف انتشار شائعات مخيفة ، فقد قيل ان
قرقوش كان يقذف فيه بمن يتمرّد من عماله المسخرين وامتدت تلك
الشائعات الى الممرات السفلية المنقورة فى أرض القلعة • وكانت قد حفرت
لتستخدم كمخازن وملاجئ وطرق المواصلات لكنها تحولت فى خيال
العامة الى سجون كان قرقوش يقذف فيها بمن يضايقه من العمال ويسد
عليهم بالبنا •

وعلى الحائط الغربى للقلعة نحت نسرا ناشرا جناحيه ومخالبه تقبض
يتشبّع على الحائط • ورأسه التى اختفت حاليا كانت تلتفت الى اليمين
بكبرياء وكانما هو حامى المدينة التى تمتد تحت أقدام القلعة • لكن
البسطاء أمنوا منذ عهد بعيد أن لهذا الطائر الجارح قدرة على التنبؤ
بالفبيب : فاذا ما صفق بجناحيه ونفخ حوصلته فيعنى هذا خيرا يصيب
المدينة • أما ان أطلق صرخة فهو قال سوء للموت أو بكارثة وشيكة •



كان لبناء القلعة آثارا قوية على الأحياء المجاورة • فقد توقف زحف
المدينة الفاطمية نحو الشمال وبدأت فى الاتساع العرضى ، ثم ارتد الامتداد
الى الخلف تماما ، وأخذت فى الامتداد نحو الجنوب الشرقى مبتلعة الجبالنات
والضواحي والمنازل المبعثرة فى الطريق نحو القلعة حيث توقفت أمام الحاجز
الصخري للجبل • وبدأت تلك المنطقة التى كانت صحراء تفيض بالحياة
فى كل صورها الانسانية والحيوانية والنباتية • وصار ميدان الرميّة
الواقع فى سفح المقطم سوقا للخيل وللحير وللجمال • تحولت المساحات
الحاوية التى نتجت عن خراب حارات الزنوج ، التى كانت قد شيدت على
جانبي الشارع الأعظم جنوب القاهرة ، بعد أن استأصل صلاح الدين
شققتهم ، عندما ثاروا عليه ، الى حدائق غناء تزينها البرك المائية •

فصار من الممكن رؤية باب زويلة للواقف عند جامع ابن طولون والى الغرب غرست حدائق أخرى (اللوق) ازدهرت تحت حكم المماليك . ويصفها لنا جان تنو Jean Thénau الذي جاء الى مصر فى سفارة من الملك لويس الثانى عشر . « حقائق عظيمة غناء مليئة بأشجار الألكهة مثل الليمون والبرتقال والشمش وتفتح آدم وقد سمي بهذا الاسم لأن آدم عصى ربه بأكله وتروى تلك الحدائق ليلا ونهارا بماء النيل الذى تجلبه اليها الخيل والثيران وما زالت هناك بقايا لتلك الحدائق حتى يومنا هذا أسفل القلعة » .



وبمجرد أن وضع أساس القلعة وجه صلاح الدين اهتمامه ببناء أسوار لحماية المدينة . كان سور القاهرة الثانى الذى بناه بدر الجمالى يبدأ بالقرب من مبنى « معونة الشتاء » الحالى ويتبع الجانب الغربى لحديقة الأزبكية ، وكان من الممكن رؤية هذا الجزء حتى عام ١٨٤٢م . ثم يصل الى البقعة المشيد عليها الآن قصر عابدين ثم يتجه الى « باب زويلة » ثم يتصل بالحائط الشرقى . وكان سور صلاح الدين تجديدا لهذا الجزء أضيف له جزء يصعب تتبع آثاره ، مد فى الحائط الشمالى حتى النيل . أما الحائط الشرقى فامتد حتى القلعة . وفى النقطة الشمالية الشرقية شيد بناء منفصلا هو برج الظفر قصد منه تشديد الرقابة على المدينة . وقد حفظت كثير من الأبواب القديمة « باب البحر » و « باب الشعرية » و « باب الفتوح » و « باب النصر » وأزيلت أخرى . وبدء فى تشييد حائط جديد من الفسطاط فى اتجاه القلعة لكنه لم يتم . ونحن لا ندرى لهذا سبب هل ألقى المشروع الأساسى أم فضل أن يترك ناقصا حتى يجذب أى مهاجم محتمل الى أسفل حوائط القلعة التى كانت تبنى فى هذا الوقت . وربما رأى خلفاء صلاح الدين أن منطقة نصف خربة كالفسطاط لا تستحق عناء بناء سور طويل يمتد لكilومترات ويحتاج للكثير من النفقات .



كان آخر أعمال صلاح الدين الدفاعية انشاء قناطر ضخمة فى الجزيرة على الضفة الغربية للنيل . التى كانت مفتوحة الطريق لآى مهاجم من الغرب ولهذا فقد قرر السلطان أن يضع عقبة فى طريق أى غزوات من تلك الناحية . وكانت القناطر المشيدة على النيل قد صارت عاجزة عن التحكم فى حياة الفيضان نظرا لاهمالها لفترة طويلة وكذا كانت المياه تفيض دون عائق وتدمر الطرق وتغرق استغلال مساحة كبيرة من الأرض واهتم بهاء الدين قراقوش وزير صلاح الدين اهتماما كبيرا باصلاح الطرق

والقنوات مستخدما الأهرام الصغيرة فى منطقة الجزيرة محجرا وقد كسى القناطر المتراكلة وحواف القنوات الهامة بالأحجار • ثم شيد على طول النيل جسرا واسعا متينا يحمى حواف النهر من التآكل بفعل المياه ، كما سهل المواصلات بين العاصمة والوجه البحرى وبين الصعيد • وقد وصف ابن جبير الرحالة الأندلسى هذا الجسر قائلا :

وصيف ابتدئ به من حيز النيل بازاء مصر كانه جبل مهدود على الأرض ، تسير فيه مقدار ستة أميال حتى يتصل بالقنطرة المذكورة وهى نحو الأربعين قوسا • • والقنطرة متصلة بالصخرات التى يفضى منها الى الاسكندرية • • وكان هذا الطريق مجهولا على أربعين عقدا عاش بعضها قرونا عدة •



والى جانب تلك العماثر العظيمة بنيت منشآت أقل أهمية فى القاهرة وقد بنى صلاح الدين مارستانا قبل المارستان الشهير الذى شيده قلاوون كما روى لنا ابن جبير « ومما شاهدناه أيضا ، من مفاخر السلطان ، المارستان الذى بمدينة القاهرة ، وهو قصر من القصور الرائقة حسنا واتساعا ، أبرزه لهذه الفضيلة اجرا واحتسابا ، وعين (فيه) قيما من اهل المعرفة ، ووسع لديه خزائن العقاقير ، ومكنه من استعمال الأشربة والاقامتة على اختلاف أنواعها ، ووضعت فى مقاصر ذلك القصر أسرة يتغلها المرضى مضاجع كاملة الكسب • وبين يدي ذلك القيم خدعة يتكلفون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية ، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم •

وبازاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى ، ولهن أيضا من يكفلهن ، ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء ، فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد ، اتخذت محاسن للمجانين ، ولهن أيضا من يتفقد فى كل يوم أحوالهم ، ويقابلها بما يصلح لها ، والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ، ويؤكد فى الاعتناء بها والمناورة عليها عناية التاكيد •

وبمصر مارستان آخر على مثل ذلك الرسم : ومع هذا فلم تكن قاهرة ذلك اليوم تضارع القاهرة التى سحرت يوما الرحالة • وقد ذكر ابن سعيد أن معظم شوارع المدينة ضيقة ومملوءة بالتراب والقمامة ، ومبانيها من الطين والبوص ، وتكاد تحجب الهواء والنور لارتفاعها • « لقد كنت 131 مشيت فيها يضيق صدرى ، ويدركنى وحشة عظيمة حتى أخرج الى بين القصرين •

ومن عيوب القاهرة انها في أرض النيل الأعظم ويموت الانسان فيها عطشا
لمعدها عن مجرى النيل لثلا يصادرها وياكل ديارها » •

وروى نفس هذا المؤرخ أن وزير كان يمر بأحد الشوارع وخلفه
أتباعه وإذا بعربة محملة بالأحجار تسد الشارع فتوقف الوزير وصار
الزحام شديدا • وكان بهذا الموضع حوائث شوائب يتصاعد منها دخان
يحتبس ضيق الشارع خلف الوزير بسحابة سمكية كدت تخنقه هو ومن
معه •

وقال نفس المؤرخ عن الخليج : « وفيها الخليج لا يزال يضعف بين
خضرتها حتى يصير كما يقول الرصافي :

ما زالت الأنحال تأخذه حتى غشا كلوابة النجم »

وفضلا عن القصور أثارت الحمامات إعجاب الرحالة ، ومنهم
عبد اللطيف الذي زار مصر سنة ١٢٠٣ م بعد سنوات قليلة من وفاة
صلاح الدين وقد ترك لنا وصفا يدل على إعجابه الشديد بحمامات القاهرة
التي يقول عنها انه لا يوجد مثلها في الدنيا في حسن بنائها ولا في مهارة
إدارتها • فكل حوض بها يسبح أربع قرب من الماء • ويمدها بالماء
الساخن والبارد صنبوران ويمكن للمستحم أن يمزجها في طست صقير
بالدرجة التي تروق له • وفي حجرة خلع الملابس توجد كبائن خاصة
يخلع فيها كبار القوم ملائسهم بمنأى عن أعين العامة •

كان الحوض الذي يستحم الناس فيه مغطى بقبة من الرخام وتحيط
به أعمدة ، كما كانت تزين السقف صور ملونة • و « بالاختصار فمن
يدخله لا يرغب أبدا في الخروج منه » ويسخن الماء تدريجيا بواسطة أربعة
مراجل تتصل بالحوض عن طريق أنابيب ويتحد كل هذا بسرعة ويسر
ودون أدنى قدر من العناء •



كان الشيعة من أهل القاهرة شوكة في ظهر مسلم سني ورع
كصلاح الدين • وعلى الرغم من شهامته ورقته كان في وسعه أن يكون
قاسيا إذا ما تعلق الأمر بسلامة العقيدة والمراقين عنها أو الكفار •

وقد قرر أن يعدل عن استخدام القوة مع الشيعة وأن يلجأ
لأسلوب آخر • فبدلا من الجلاء استعان بالمعلم وبدلا من السوط استخدم
الكتاب • ولكن كيف يعلم أهل القاهرة العقيدة الصحيحة بينما لم يكن
يوجد في القاهرة عند توليه السلطة معهد واحد يعلم المذهب السني •
وعلاجا لهذا اضطلع بأشياء عديدة من المدارس الدينية التي ستصبح
بمرور الوقت عنصرا معماريا مميزا في القاهرة •

وافتتحت أولى مدارسه فى عام ١١٧٦م وكانت ملاصقة لقبر الامام الشافعى الموجود حتى الآن على الرغم من أن المدرسة نفسها اختفت . وقد وضعت هذه القبة فى عام ١١٨٣ على لسان الرحالة ابن جبير « مشهد الامام الشافعى رضى الله عنه وهو من المشاهد العظيمة احتفالا واتساعا ، وبني بازائه مدرسة لم يقم بهذه البلاد مثلها ، لا أوسع مساحة ولا أحفل بناءا ، يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته ، بذواتها الحمام الى غير ذلك من موافقها ، والبناء فيها حتى الساعة ، والنفقة عليها لا تحصى ، تولى ذلك بنفسه الشيخ الامام الزاهد العالم ، المعروف بنجم الدين الغوشانى ، وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله ، ويقول : « زد احتفالا وتانقا ، وعلينا القيام بمؤنة ذلك كله » .

أحدث نظام المدرسة الذى ادخله صلاح الدين تغيرا كبير فى العمارة القاهرية . فحتى ذلك العصر كانت المساجد تبنى جميعا وفق رسم واحد ، يحدد اتساعه عدد المصلين الذين سيستقبلهم « وعلى جانبه القبلى بنى بيت الصلاة المغطى ، الايوان القبلى « الذى يحوى جموع المصلين من وهج الشمس ، وكان به صحن واسع مفتوح يتجمع فيه الناس أثناء الأعياد .

فى بداية عهد صلاح الدين كان فى القاهرة اربع جوامع من هذا الطراز : الأزهر والحاكم وابن طولون وعمره ، أما الجوامع الأخرى كالأقصر والصالح طلائع فقد انقطع الناس عنها عقب موت مؤسسيها فأهملت مما أدى الى خرابها . وبفضلنا عن هذه الجوامع كان يوجد فى المدينة مساجد (المسجد وهو مكان للصلاة اليومية عدا صلاة الجمعة والعيد) ، مساحتها أقل من مساحة الجوامع . وقد ادخل صلاح الدين المدرسة الى مصر وهى منشأة تدرس فيها المذاهب السنية الأربع . وكانت تلك المدارس ، نواة للمسجد ذو التخطيط المصلىب ؟؟ ، وعليه بنيت أشهر الجوامع مثل السلطان حسن وبرقوق والناصر قلاوون وقلاوون . ولما كانت تلك العمارات مخصصة للتدريس أساسا لا للندوات الثقافية فقد اختلف تخطيطها عن تخطيط الجامع العادى ، فقد استبدل الصحن المكشوف الواسع الذى اعتاد الناس على التجمع فيه أيام الجمعة بصحن مربع صغير ، غطى أحيانا بسقف خشبى ملون ، وكثيرا ما وضعت فى قلبه قبة صغيرة . واستبدلت الأروقة المعمدة الجانبية بأربع ايوانات أعماقها الايوان القبلى حيث توجد القبلة . وكان كل ايوان مخصصا لتدريس المذهب الشافعى والمالكي والحنفى والحنبل . وفى كل منهم كان يجلس الشيخ المعلم يحيط به تلاميذه فى حلقة وكانوا جميعا يقيمون فى داخل المنشأة التى زودت بمكتبة معامل وصالات استذكار .

أثرت سياسة صلاح الدين الدينية تأثيراً هاماً على القاهرة ، فأنشأ غياثه الطويل عن قاعدة ملكه كانت السلطة في يد أخوه أو ابنه للمدين . أمسغياً باستمرار لمشورة « القاضي الفاضل » وهو عربي من مدينة عسقلان ، وكان غزير العلم صائب البصيرة . وبفضله عاد الطلاب الأجانب للدراسة في جوامع القاهرة . وتلاقى علماء المشرق الاسلامي بالمغرب الاسلامي في القاهرة . وكان صلاح الدين من هؤلاء المحاربين الذين وجدوا لذة في محاوراة الفلاسفة والعلماء ، وبفضله وبفضل نظام الدراسة في تلك المدارس عادت القاهرة مرة أخرى المركز الروحي للعالم الاسلامي .



أدى إنشاء صلاح الدين لسور جديد للقاهرة الى تغيرات واضحة بالنسبة لأطراف المدينة الشمالية الشرقية ، وكان الفاطميون قد بنوا في هذا الجزء قصر اللؤلؤة وترسانة وأرصعة ميناء وحفروا بركة ، وبدأت المقس في الاتساع نحو الشرق لتلتحم بالقاهرة ، وكانت في السابق على بعد فرسخ (أربعة كيلومترات) وكان اتجاه اتساعها في الغرب على الأرض التي يتراجع عنها النيل . وكانت تلك الأرض قد استقلت في مبدأ الامر كملاعب وأرض لتدريب الجيش ثم تحولت الى حدائق وأخيراً بدأ الناس في البناء عليها في المساحات التي تركها النيل خاوية ، واحتل الناس في تلك البقعة « ميدان قراقوش » و « الملك العزيز » تدريجياً . وقد جذب السكان الى تلك المنطقة سهولة امدادها بالغذاء والماء والازدياد المستمر في حركة النقل المائي بميناء المقس فضلاً عن حسن جو المنطقة . ووجود مساحات واسعة من الأرض الفضاء وفي الوقت نفسه أخذت بعض المناطق الأخرى في العمران مثل المنطقة التي بها حديقة الأزركية الحالية والتي بها ميدان باب اللوق وظهر حي الحسينية أمام السور الشمالي . وبدا مزقت أسوارها كما يمزق جسد الطفل النامي ملابسه .

وحتى الفسطاط ، تلك الجارة الفقيرة ، استفادت من الرخاء والازدهار الذي تمتعت بهما مدينة القاهرة . كانت تكاليف المعيشة في الفسطاط أقل منها في القاهرة ، وقد شيد فيها معامل للسكر ومصانع للحزير ، ومن ثم فقد فضل عمالها الإقامة فيها حتى يكونوا على مقربة من أعمالهم . وكان بالمدينة سوق كما أصلح صلاح الدين جامعها « جامع عمرو » وشيد السلطان الصالح نجم الدين أيوب قلعة وتكنات في الطريق الجنوبي لجزيرة الروضة وفي الحقيقة كان هذا البناء قصراً أكثر منه قلعة حربية حيث كان سحر شاطئ النيل في تلك البقعة يجذب الأثرياء ويفرهم ببناء فيلات هناك . ولكن ذلك الازدهار لم يدم طويلاً كما أوضحنا فيما سبق .

ولتكتمل لنا صورة القاهرة في عصر صلاح الدين سننظر في القسم الذي خصصه ابن جبير في كتابه عن أحد أجزاء المدينة الهامة وهو جبانة القرافة ، التي قيل عنها انها تضم رفات عدد من الاعلام كالنبي صالح وروبييل ابن يعقوب والسيدة آسيا امرأة فرعون رضى الله عنهم جميعا ، وقد ذكر الرحالة أربعة عشر مشهدا لأخفاد ذكور نعلي بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ولم يحاول ابن جبير التاكيد من صحة نسبه تلك المشاهد واكتفى بالتعقيب بعبارة « وبالجمل فالحصحة غالبية لا شك فيها » ان شاء الله عز وجل » . ومن بين المقابر كان هناك مشاهد أولاد أبو بكر الصديق رضى الله عنه ومشهد لابن الزبير بن العوام رضى الله عنه « وبقبلة القرافة المذكورة بسيط متسع ، يعرف بموضع قبور الشهداء ، وهم الذين استشهدوا مع سارية رضى الله عنه » . وأضاف ابن جبير « ومن العجب أن القرافة المذكورة كلها مساجد مبنية ، ومشاهد معهودة ، يأوى إليها الغرباء والعلماء والصالحاء والأقرباء على كل مرضع منها متصل من قبل السلطان في كل شهر والمدارس التي بمصر والقاهرة كذلك » .



كان عصر صلاح الدين حلقة الصلة بين القاهرة الفاطمية والقاهرة المملوكية لقد كان هو الذي وضع حدودا للمدينة الجديدة وترك للمماليك مهمة تجميلها .

الممالك

حكم الممالك مصر ثلاثة قرون (من ١٢٥٠ الى ١٥١٧) وهم عبيد
نشئوا تنشأة عسكرية واعتقوا .

كان خلفاء بغداد أول من اتخذ فرقا عسكرية من العبيد الأجانب ،
فقد اشتروا عبيدا من الجنس الأصفر من وسط آسيا ليكونوا منهم حرسا
يحميهم من جيرانهم من القبائل العربية ذات النزعة الحربية ولم يرحب الجند
الكرد في الجيش الأيوبي بتولي الملك الصالح كرسى السلطنة على عكس
الجند الترك الذين عضدوه ، ولذا استكثر منهم حتى يكونوا عوناً له في
الحفاظ على سلطته . وأسكنهم جزيرة الروضة في النيل (الذي يسميه
العامة البحر) ولذا أطلق عليهم المؤرخون « الممالك البحرية » لتمييزهم
عن ممالك الأسرة التي ستخلفهم « الممالك البرجية » الذين كانوا
يسكنون القلعة اعتباراً من ١٣٨٢م .

تألفت فرق الممالك أساساً من أتراك « كيبشاك » الذين عرفوا
بالاخلاص والوفاء والشجاعة واعتدال القامة وحسن الصورة . وقد ضمت
صغوفهم أيضاً الشركس واليونانيين والكرد والتركمان . وقد غمرهم
سادتهم السلاطين بالرعاية والهدايا والخلع من الأقمشة والإقطاعات .
وبذا صار جزء كبير من أرض مصر مملوكاً لأمرء الممالك وأتباعهم .

ضمت صفوف الممالك مجموعات من المقامرين الذين أتوا اما حبا
فى المغامرة أو هربا من العدالة أو ليسلوا حزنا ألم بهم . وكانت فرقهم
بذلك أشبه ببرجل ملء بصنوف مختلفة من الخضروات واللحم دائم
الغليان ، يتراقص غطاؤه بفعل البتار المتدافع ويوشك على القفز فى
الهواء . فقد كان كل مملوك كبير منهم يدرك ان أمامه طريقان الأول
يؤدى الى العرش والثانى الى السجن . فيقليل من الجراة والخط يمكنه أن
يصير سطانا . أما اذا تقاعس فالجلاد أو خنجر قاتل فى انتظاره غير أن
بعض الممالك الذين لم يتطلعوا الى العرش ارتقوا الى مرتبة عالية فى
الجيش وفى المجتمع واحتلوا مناصب مجيدة واعتقهم السلطان وكان لهم
هم أنفسهم ممالكا .

ولما كان الجيش مؤلفا من أجانف فقد كان على الضابط المملوكى أن
يدفع لجنوده رواتب عالية أو أن يمنحهم فرصة للارتاء عن طريق السلب
والنهب . وأقرب الفئات لهم كانت القاهرة ، وبمعنى دقيق بيوت
منافسهم وأعدائهم .

وقد تناقل هؤلاء الممالك من رئيس لآخر كلما تغير السلطان وكان
الضابط منهم من رتبة أمير ألف شخصية هامة أشبه بسلطان صغير .
فالسلاطين أنفسهم كانوا ممالكا ناجحين فى مناصبهم بموافقة المالك
الآخرين وكان السلطان بذأ يعد الأول بين أسوياء ولم يسمح له رفاهه
أبدا بأن ينسى أنه مساو لهم وان كان هو الرئيس .

وبالرغم من تباين أصولهم الا أنهم جميعا اشتركوا فى أمر واحد
هو قلب الشخصية فالضحكة الباسمة تتناوب مع القسبة المتجهممة
والحماس يتناوب مع الفتور وأحط الشرور تتواجد فى نفس الوقت مع
الروحانية الشفافة . فقد يقضى المملوك ليله فى النهب ثم يملأ النهار
بالندم فيوزع على الفقراء غنيمته وقد يهم بالقتل فتراجعه نفسه بما ينتظره
فى العالم الآخر من جزاء لقد اتسم السلاطين أنفسهم بهذا المزاج المتعم
بالتقلب . بل وتماذا فيه بدرجة وحشية كان ينتقلوا من فرض الضرائب
التي تتصاعد باستمرار الى مصادرة الأموال بصورة مفاجئة وتسخير
الموظفين بأبخس الأجور . وقد سمح هذا النظام للموظف بأن يبتز أموال
دافعى الضرائب ، تحت حجة استعادة تلك الأموال غير المشروعة صادرة
الحكومة أموال هؤلاء الموظفين . فكان كل واحد ينهب فى انتظار أن ينهب
هو فى دوره .

لما كان هؤلاء العبيد الذين تحولوا الى محاربين قد قدموا من مختلف
بقاع العالم فقد تعددت عاداتهم وتقاليدهم وعبوبهم . لكن كل تلك

الفوارق ذابت واختفت سريعا أمام عاطفة واحدة ربطتهم جميعا ، هي انتمائهم الى الاسلام . وقد سمي المماليك مصر « المملكة الاسلامية » وسعوا الى فيل الصدارة في العالم الاسلامي . ولما كانوا قد استقبلوا الخليفة العباسي ، فقد اعتبروا أنفسهم ورثته الروحيين ، وبذا اكتسب حكمهم صيغة شرعية . واحتفظوا بسيطرتهم على المدن المقدسة في الجزيرة العربية وطردوا الصليبيين وصلوا الزحف المفضول ، واستحقوا بذلك الشهرة والمجد اللذين اكتسبوهما . وتبدل لنا هنا الصورة غريبة فبالرغم من أن مصر تمتعت بمكانة روحية كبيرة في الخارج ، إلا أنها كانت ممزقة بالصراعات في الداخل . فالقتال في الشوارع يتفجر بين كل لحظة وأخرى . ففضلا عن أعمال السلب والنهب التي مارسها المماليك في أحياء أعمدائهم كانت غارات البدو على الريف وعلى الطرق المؤدية الى العاصمة ، مما أدى الى تذبذب ممدادات الغذاء ومثل هذا عقبة أمام التجارة . وانتشرت الأوبئة والمجاعات وتفجرت الفتن حينما كانوا يحسون بضعف السلطان الحاكم وأضيفت الى كل هذا الحرائق والزلازل التي أصابت المدينة فبدت كما وصفها أحد المؤرخين العرب كما لو أنها قد أخذت بجيش غاز . وان كان هذا لا يؤثر اطلاقا على اشاعات القاهرة الملوكية الروحية والثقافية . فقد ظلت الواجهة على روعتها رغم القلاقل والصراعات الداخلية .

كان متوسط حكم كل سلطان خمسة أعوام ونصف ، ولذا فالمرء يدهش لعدد الآثار الرائعة والمتحف الفنية التي خلفها المماليك . لقد امتزجت في كل منهم شخصية مدمرة وحشية الى جانب أخرى مولعة بالعصاة والترف ، فاليد التي كانت تقبض على السيف كانت تحب أن تداعب سطح ابريق بديع . وقد انغمسوا في المتع ، لشعورهم بمسلم الاطمئنان لما يخيئه لهم المستقبل ، وكطفل يبادر الى شراء لعبة اذا ما وقعت في يده قطعة نقود ، كان الملوك بشخصيته البربرية والمولعة بالمغامرة ، يعدد الى الاستمتاع الفوري بثروته . وكانت القاهرة لعبته يهدم فيها القصور والجوامع ويعيد بنائها ويغير باستمرار في الطرق والميادين . وقد أدت ثروات المماليك الى تغيير أساسى في أحياء القاهرة .



لم يبد على الرحالة الذين زاروا القاهرة وأعجبوا بها في هذا العهد أنهم قد لاحظوا أمارات الفوضى والاضطراب التي ألمت بسكانها . وهو تناقض يسهل تعليقه كان الكثير من سلاطينهم كبيرس وقلاوون وابنه الناصر والمؤيد وقايتباي والغورى رجالا مرموقين ، جمعوا الى جانب

رهافة الحس الفنى روحا عملية حادة . فالى جانب تشييدهم للعمائر اهتموا بحل المشكلات الاقتصادية والاجتماعية . وبذا تمكن البعض منهم ففى أن يدخل نوعا من الاستقرار الى النظام ، مثل الناصر محمد بن قلاوون الذى خلع عن العرش مرتان ، وفى كل مرة كان يتمكن من استرداده وأخيرا استقر عليه لمدة ثلاثين عاما .

والسبب الآخر للرخاء الذى تمتعت به القاهرة أيام المماليك كان يرجع الى نجاحهم فى جذب تجارة شرق حوض البحر المتوسط الى القاهرة التى صارت مركزا للنقل التجارى . وقد استفادوا من التجارة بين الهند وأوروبا مما أدى الى ثراء أهل القاهرة فى العصور الوسطى . ولثراء المدينة وفتوتها كانت قادرة دائما على أن تضم جراحها بعد أى فتنة . كانت مدينة عامرة بالحياة والحركة لم تؤثر فيها الأوبئة المهلكة ولا الكوارث الطبيعية . وقد قال عنها فرسكو بالدى Frescobaldi الذى زارها فى عام ١٣٨٤م أن بمينائها عدد ضخم من المراكب الراسية يفوق كل ما رآه فى موانئ جنوة والبندقية وانكونى Anconi معا . وقد ذكر أن عدد سكانها أكثر من سكان توسكانا . وقد قال بعض الرحالة الآخرون أن المدينة أكبر من باريس سبع مرات . وأكد بود جيبونسى Poggibonsi أن المركبة تحتاج الى يومين كى تطوف بها . وكتب الراهب جاك دى فرون Jacque de verone فى عام ١٣٢٥ « إن أهل القاهرة يتمتعون بشراء كبير نتيجة التجارة الهندية ، فالمراكب تجلب كميات هائلة من التوابل والأحجار الكريمة عن طريق البحر الأحمر . . وعن طريق البحر المتوسط (. . .) تجلب السفن من كل أنحاء العالم كل ما يمكن أن يروق للإنسان » . وقد قدر جوتشى دى دينو Guci di Dino أن القاهرة تمتد لمسافة عشرة أميال طولا وخمسة أميال عرضا وأن عدد سكانها يصل الى ثلاثة ملايين نسمة . وقد علل هذا العدد الضخم بأن المصريين على حسب قوله يحيون ألف عام . وذكر الرحالة توماس فوستر أن الأرض المصرية شديدة الخصب حتى ان النساء والمخلوقات الأخرى تنجب فى الأعم توأمين وثلاثة توأمين .

وبعد قرن من الزمان وفى عام ١٤٥٨ قال روبرتو سانسفرينا Roberto Sansverina « من الأفضل ألا أتحدث عن مدينة القاهرة لأن كلامي سيأخذ على أنه أساطير » . انها عظيمة الاتساع الى حد لا يصلق ، فهى أكبر من ميلانو بأربع مرات . وقد قال عنها أحد الرحالة كان قد شاهد ميلانو أن القاهرة أكبر منها ست مرات . »

شهدت القاهرة خلال القرنين الرابع والخامس عشر ازدهارا واتساعا عظيما هدد بجعلها « وحشا مختل التناسق مع باقي أنحاء البلاد » (كلرجة Clerget كان من الممكن أن يلحظ المرء في عاصمة البلاد في ذلك العصر ثلاث مدن أولها القلعة وثانيهما انقاهرة الأصلية وأخيرا القسطنطينية . كما عبر عن ذلك بيت شعري شهير لافنسودواكريتشيليا - «Mira Alcaayro que incluye tres ciudades»

طلت القلعة قاعدة الحكم في البلاد ، بالرغم من أن بعض السلاطين قد تمكنهم نزوات طارئة لسكنى جزيرة الروضة . كانت الحدائق تغطي القلعة ، وكان بها إيوان باهر منتصب بين قصورها . وقد ضمت القلعة مجموعة من المنشآت الادارية ، فضلا عن الجوانيت التي حفت بفنائها وامتدت على طول امتدادها الغربي .

وتعرضت القاهرة الفاطمية الى تحولات عميقة ، فهدمت العائثر القديمة واستبدلت بأخرى جديدة ، فقد تنافس السلاطين في المباهاة بالثراء فكان كل منهم يبغى أن يتميز عن الآخرين . أو أن يخلق ريعا جديدا لنفسه ، أو أن يكفر عن اثم ارتكبه وبذا ارتفعت في المدينة قصور عديدة ومساجد ومدارس وأسبلة . وتحولت القاهرة من مدينة ملكية الى حي تجارى ومركز للنقل التجارى العالمى . وعلى طول شارع بين القصرين قامت الأسواق الرئيسية وامتدت الى الشوارع المجاورة . وتسابق الناس فى البناء فى تلك المنطقة حتى عزت ونذرت أرض البناء .

أخذ الحى الجنوبي الممتد الى القسطنطينية فى العمران ، فقد كان أهل القسطنطينية يستخدمون باستمرار الشارع الأعظم الذى كان يربط القاهرة بالقسطنطينية . وأدت الحركة الدائمة بهذا الشارع الى أن أقام التجار حوانيتهم على طول الطريق ، الذى كانت تضيئه ليلا أنوار المطاعم والمتاجر . وعاد العمران الى منطقة جبل يشكر بعد أن سكنها الخلفاء العباسيون الذين كان يبيرس قد دعاهم الى سكنى القاهرة بعد سقوط بغداد فى يد المغول . واتسم هذا الحى بسمة أرستقراطية حيث شيد به النبلاء قصورهم . ومما شجع على سكنى تلك المنطقة المجاورة لجامع ابن طولون وجذب اليها التجار ، أن رجلا صالحا كان قد حلم أن النبى صلى الله عليه وسلم يبارك تلك المنطقة .

وغطت ضفاف بركة الفيل الواقعة الى الجنوب القيلاب والقصور . ويحدثنا المقرئى عن قصر بناء والى حلب دخلت فيه مساحة أربعة وعشرين ذراعا مربعا من أرض البركة وفى الليل كانت أصداه المرح الصاحب تتردد على جوانبها وعلى سطحها تنزلق القوارب المزدانة بالمصابيح

كانها النجوم . أما في موسم الفيضان . فقد كانت المنطقة تبدو كمدينة
البنديقة . بمنازلها التي يحيط بها الماء وتغنى الشعراء بتلك البركة
فوصفوها بالبدر المستدير تحيط به القصور كالنجوم (١) .



طرات تغيرات ملحوظة على المنطقة الشمالية الغربية للعاصمة .
ولما كان فم الخليج أخذاً في الانطمار بالرمال فقد قرر الناصر بن قلاوون
أن يعفر قناة أخرى تحمل اسمه في عام ١٣٢٤ . وكانت تلك القناة
تتفرع من النيل على بعد خمسمئة متر تقريباً من فم الخليج القديم ، ثم
تتجه شرقاً ثم شمالاً حتى تلتقي بالخليج في منطقة الطبالة . وعلى
ضفاف تلك القناة شيدت قصوراً وأسواق ومنازل وبدا عبرت تلك
المنطقة .

ثم بدأت جزيرة بولاق في الاندماج التدريجي في شاطئ النيل منذ
حكم المؤيد عام ١٤١٥ . وقد بنيت فيها الأسواق والمخازن والحمامات
حتى صارت في القرن الخامس عشر ميناء للقاهرة . وتأثرت الأحياء
الشمالية للعاصمة من ظهور تلك الضاحية الجديدة وبدأت في الزحف
التدريجي نحو شاطئ النيل .

والى شمال باب الفتوح كانت توجد قرية الحندق ، حيث كان أهل
القاهرة مولعون بالنزهة في الربيع وفي موسم الفيضان . وكان بها
مزارع خضروات وحدائق نخيل وفاكهة أخرى وأسواقاً ومسجداً . لكن
الكوارث حلت بالعاصمة في عام ١٤٠٣ أدت الى خروب البلدة ، وظل
جامعها مغلقاً حتى عام ١٤١٢ حيث هدمه الأمير طوغان .

وعلى الجانب الآخر في المنطقة الشمالية الشرقية امتدت الجبانات
مثلما امتدت الأحياء الشمالية الغربية . وظهرت في سفح القلعة مدينة
فعلية للموتى . فبعد أن شيدت قرية بدر الجمالى امتلأ الوادى بالمقابر ،
التي ماثلت قبائها خوذات القتال ، فبدت المنطقة للناظر كما لو كانت
ميدان معركة هائلة تناثرت عليه الدروع ووصلت الجبانة الى منطقة باب
النصر حيث لامست مدينة الأحياء . وتكونت جبانة في المنطقة التي
يشغلها الآن حي العباسية .

ولا تشبه تلك الجبانات الجبانات الأوروبية ، فلم تكن الأسوار تحيط

نظري الى بركة الفيل التي اكتنفت بها المساطر كالأحاديث للبحر
كانما هي والأجساد ترميها عواكب قد أداروها على القمر

يجبانات المسلمين لتعزلها عن العالم المحيط ، فليس الموت هنا الا امتدادا للحياة والميت لا يغادر أرض الأحياء ، لكنه يغير فقط من سكنه . ولهذا تمضى الحياة بين القبور فيعبر بينها المارة ويلعب حولها الأطفال وتتصاعد فيها الضوضاء كأحد أحياء المدينة المزدهمة . وهذا يفسر لنا سبب فخامة مقابر الماليك . وقد احتاجت المنشآت الخيرية الملحقه لطاغم عمال كبير فبنى السلطان برقوق على صييل المثال منازل للفقراء وللعمال وغاثلاتهم حول مقبرته كما بنى قايثاي بالقرب من مدرسته منازل لطلاب الأزهر وللعلماء . وقد حاكى الأمراء سلاطينهم ، فحول تربة الأمير قرقماس شيدت متاجر ومطابخ واضطبلات ومدارس وحفرت آبار وأقيمت سواق لجلب الماء .

ومن هذا يمكن أن نتصور العدد الكبير من العمال التي تطلبت صيانة تلك المنشآت والذي جعل منها مناطق جذب للتجار . فاذا أضفنا الى ذلك ما اعتاده المصريون ، كما يقص علينا ابن بطوطه ، من قضاء ليلة الخميس والجمعة ، خصوصا يومى ١٤ ، ١٥ شعبان بالقرب من مقابر ذويهم فيمكننا أن نتخيل بسهولة طوفان البساعة الجاثلين الذى كان يتبعهم .



كان افتقار القاهرة لتخطيط منظم ومنسق نقطة الضعف الوحيدة بها . لقد كانت أشبه بخليط متنافر الوحدات ، كما لو كانت ثوبا مبرقش الألوان وكانت القاعدة هي عدم النظام . وقد اقتصر جهد السلاطين على بعض النواحي الفرعية مثل اجبار أصحاب المتاجر والمنازل على تعليق مصابيح على أبوابها واحتفاظهم بأوان مملوءة بالماء لاطفاء أى حريق محتمل . وكان قصارى جهدهم . فلم يدر ببال السلطان أو أى من رعاياه فكرة التنظيم العام فلقد كان السكان فى قرارة أنفسهم مايزالون بدوا لم يتركوا بعد الى مرتبة أهل المدن بالمفهوم الحديث . كان أهل المدينة يهدمون أو يقيمون منشآتهم حسبما يترأى لهم فقد يستغل أحدهم قطعة أرض فضاء فى اقامة منشأة قد لا يكون من ورائها منفعة ثم يتركها فتؤول تدريجيا الى الحراب ومن ثم يزداد عدم الانتظام . وقد يعمد أحد أصحاب المنازل الى شراء أرض مقابلة عبر الشارع . وبينها ثم يقوم فى مرحلة لاحقة بوصل المنشأتين فيقطع على الناس طريقهم . وكان كل قاهرى شديد الالتصاق بشارته وهى مجموعة الشوارع التي يقضى فيها معاملاته ويلتقى فيها بأصدقائه فى الليل تغلق الأبواب التي ظلت حتى القرن التاسع عشر تعزل كل حارة عن الأخرى .

ويمكن تصنيف تلك الحارات على النحو التالى :

١ - الحارة تحيط بمنزل وإلى المدينة أو السلطان وتعرف تلك المنطقة بالميدان وتخصص للخاصة • ولتحولها يلزم المرء تصريحا من الشرطة • وإلى جانب السلطان وعائلته وعدد من العظماء سمح بسكنائها لعدد من العمال والحشم اللازمين لقصر السلطان •

٢ - قلب المدينة ، وهو يتألف من الحارات الشعبية ، وبها توجد منازل متعددة الطوابق وتحتل الحوانيت الطبقة الأرضية منها •

٣ - إذا ما ابتعدنا عن قلب المدينة وجدنا نوعا من الضواحي مثل القسطنطين وباب اللوق • ومنازلها أقل ارتفاعا وإيجاراتها أكثر انخفاضا ، ويقتطنها العمال والصناع وبعض التجار الذين يمارسون أعمالهم بها وسكان تلك المنطقة يعملون فى المدينة صباحا ويفادرونها ليلا لبيوتهم فى الضواحي •

٤ - أما على أطراف البرك فقد شيدت فيلات وأحياء للمتعة مثل بركة الفيل والحلبش وجزيرة الروضة •

ويضاف إلى ذلك فى النهاية الحارات التى سكنها أناس من ملة أو قومية واحدة مثل حارات الفرنج والروم والقبط واليهود •



تؤلف شوارع القاهرة وأزقتها شبكة شديدة التعقيد فبعضها كان يمر من تحت منازل أو ينتهى بسد • وأقل المشاوير يحتاج فيه المرء إلى كثير من الانعطافات • وقد سقفت تلك الطرق بالواح خشبية أو بحصر أو شقق من قماش أو سقائف من قش لحماية المارة من وهج الشمس • وقد ضاعفت الشرفات البارزة من سمت الواجهات (المشرقيات) من الظلال حتى كان المرء يحتاج أحيانا إلى أن يضىء مصباحا فى وهج النهار • ومن ناحية أخرى تمتعت تلك الطرقات بطراوة كبيرة حتى فى أبان قيفظ الصيف وقد اقتطعت المصاطب التى كانت تبني أمام المتاجر للجلوس عليها ونصبات المقاهى والحوانيت جزءا من أرض الشارع •

كانت حياة القاهرة خارج المنزل آنذاك متعددة الألوان وإن افتقدت إلى الراحة أما داخل المنزل فقد تمتعت بقدر كبير من الرفاهية •

كانت المنازل تكتسى بالحصص وتزين بالرسوم وتزخرف بالفسيفساء منقوشة وحوائطها • وتفيض أرجائها الستائر والأرائل والنمازق والأبسطة • وفى كل مكان قرشت أبسطة مخيلية أضفى بريقها على

أبسط الأركان نجوا من الثراء . وقد ذكر المقرئ أن المرء يراها حتى في أبسط الأماكن ، أما الفقراء قد استخدموا الحصر الملونة بدلا منها . وكان بكل الحجرات تقريبا كرات مديبة العقد محدثة في الجدران تحفظ فيها أشياء عدة مثل الأواني الفضية أو الذهبية أو العاجية أو البلورية المزخرفة . أو الأواني الصينية كما كان بها مصابيح من نحاس أو فضة مشغولة . وضعت أمام مرايا حتى تضاعف من لمعان بريقها .

وعلى السريير توجد مرتبة خشبية قطننا وقد وضعت على سجادة وغطيت بملادة من قماش واغطية من صوف أو قطن كما استخدمت صناديق خشبية كصاوين وأحيانا تكون تلك فاخرة الصناعة ومطعمة بالعاج المفضى أو المذهب .

وقبل أن يقوم لويس التاسع بحملته على مصر زار القاهرة طيب . من بغداد ، وقد وجد فندقه مزودا بوسائل حديثة للراحة من تهوية لطيفة وجهاز للتنظيف لتطهير الماء وحمام به صنابير للماء الساخن والبارد . وقد قال مشولام بن مناحم Mushallam ben Menahem في عام ١٤٨١ م « لا يوجد في مكان آخر حمامات شعبية تفوق فخامة حمامات القاهرة » . والنسافي : « وهي مزودة بكنائف » . وقد وصف كل من أبي حمدي وجوس دوجستل Josse de Ghistele قصر السلطان فقالا : « أنه كان مفروشا ببلاط رخامي وهواؤه معطر كما لو كان مشبعًا بالمسك ، وسقوفه عالية ، وكل شيء يعطى إحساسا بالراحة ليتنشق المرء لذات حياة جنة عن قبل أن يذهب إليها » . ويمضي الرحلة قائلا « أن ما رآه داخل القصر هو أفخم شيء يمكن للمرء أن يتخيله فقد كسيت الجدران بالواح حجرية مصقولة متعددة الأنواع من مرمر أبيض وأسود وأحمر إلى حجر الثعبان Serpentine والبرقيز والعقيق الأحمر وغير ذلك من الأحجار النفيسة مختلفة الألوان » .

فإذا ما تركنا قصور السلطان إلى بيوت الطبقة الوسطى لوجدناها تضم أنماطا متعددة من الوحدات شديدة الاختلاف : أحيانا كانت تلتف حول فناء متسع مركزه « حوش » وحدات سكنية تستطيع استيعاب ثلاثين أو أربعين أسرة وللحوش مدخل واحد وبه بئر للمياه .

وأحيانا أخرى تبني حول المدخل حجرات سقف الوسطى منها أعلى من الأخريات وأكثر اضاءة أيضا وتخصص كغرفة استقبال « سلامك » ، وخلفها تبني حجرات أخرى ، وحول تلك الفراغة يلتف دهليز يلعب دورا

قريبا من دور « الحوش » ويبنى الحوش فى أقصى جزء من المنزل محاذيا
السلامك وغالبا ما يكون هذا النوع من المنازل مخصص لأسرة واحدة .

والطراز الثالث من المنازل يمثل حلقة وسطى بين الطرازين
الأولين . فهو يضم فناء مثل النوع الأول لكن الغرف منظمه على نسق
الثانى ويوجد المرء فيه المخادع على جانبي الفناء وهذا النوع من المنازل
صغير يفتقر الى سلامك فيحتتم على الرجل الذى يدخله ان يصفق يديه
قائلا « يا ساتر » حتى تتوارى النساء عن طريقه .

وتوجد أيضا منازل متعددة الطوابق أو ذلت وحدات متصلة
« ربوع » وقد يضم الربع منها من عشرة الى خمس عشرة وحدة .

وعلى اختلاف تخطيط تلك المنازل فقد كانت تشترك فى سمتين :
مراعاة فصل الجنسين . وانكسار دهليز المدخل (الدركاة) حتى تمنع
المارة من استراق النظر الى داخل المنزل .

وكان بالكثير من المنازل غرفة استقبال للرجال « مندره » تبنى فى
الدور الأرضى . وكثيرا ما كانت تزود بمقعدة (قاعة مزينة بمقود ترفعها
أعمدة وتفتح على الفناء) وبهذا يكون جيد التهوية ولذا يستخدم فى
فصل الصيف وأيام الأعياد أو الاستقبالات . وتوجد أيضا نوافذ مغطاة
بمصبات خشبية تحجب الناظر تسمح لنساء الحريم بمشاركة الرجال
وهن مستورات فى احتفالاتهم .

وأخيرا نأتى الى الخان (ويطلق عليه أحيانا وكالة) والفندق .
والنوع الأول بناء قد يكون مربعا أو مستطيلا يستخدم لايواء التجار ،
وبه حوانيت معقودة تفتح على الفناء المزود بمدخل واحد وبه مخازن وورش
الصناع . وبالدور الأول دهليز يلتف حول الفناء يؤدي الى مخازن
مخادع ويمارس المرء البيع والشراء أو تحويل العملة فى الفناء وأشهر
تلك الخانات خان الخليلى الذى وصف بأنه يشسبه قصرا كبيرا لأحد
النبلاء يضم ثلاث طوابق .

أما الفندق فيتميز عن الخان بجنسية من يقطنه ، فالخان مخصص
للمصريين أما الفندق فللأجانب . ويمكن للجالية التى تقطنه ان تستخدم
فيه تقودها أو موازيتها ومكايها .

وكانت أسطح المنازل القاهرية مزودة « بملقف هوا » وصفه ليون
الافريقى قائلا :

« تشتهد الحرارة في فصل الصيف لدرجة ان من المعتاد بناء نوع من الأبراج المفتوحة على أسطح المنازل وقاعدتها تكون مفتوحة بمستوى الفتحات فيدخل الهواء من أعلى ويخرج من أسفل » . ويضيف بروسبر البان Prosper Aupia « انه نوع من الأنايب في قلب المنازل يجتذب الهواء ويعلو السطح مسافة عشرة أذرع في المتوسط . ويوجه الملقف نحو الشمال ولا غناء عنه لأي منزل حتى لا يغير منها . فهو يستقبل ريح الصبا العلية وينقلها الى داخل المنزل » . وتلك الطريقة مستخدمة في السفن الحديثة .

كانت الحدائق كثيرة وربما كان هذا تأثيرا عراقيا ، وما شجع عليه وفرة المياه سواء من النيل أو الخليج أو الآبار أو البرك الجديدة فضلا عن سهولة العناية بالنباتات الخضراء .



كانت التجارة تمارس في الأسواق والسوق هو صيفان من الحوانيت على جانبي طريق قد يكون مسقوفا أو مكشوفاً . وكانت تلك الحوانيت « دكاكين صغيرة تفتقر الى التهوية والضوء الجيد » . ويجلس صاحبها على مصطبة مفروشة بالسجاد أو الحصير خارج الدكان ويجلس الى جواره العميل . وبالرغم من تواضع تلك الحوانيت في هيئتها الا أن بعضها كان يطوى كنوزا ثمينة . ويعلق الحانوت بباب ذو مصراعين أفقيين يستخدم العلوي منها وقت النهار كمظلة للhanوت والسفلي كنضد للبيع والشراء . وقد يشترك أكثر من تاجر في حانوت واحد يتناوبون فيه العمل على ورديات . فيحدثنا أبو المحاسن عن حانوت صغير ملاصق لجامع ابن طولون كان يمارس فيه ثلاث من التجار عملهم بالتعاقب الأول كان يبيع غزل القطن من الفجر حتى الظهر ، والثاني يستخدم الحانوت كمخبز حتى صلاة العصر أما الثالث فيبيع فيه الحمص والفول .

وفي الليل كان هناك حرس موكلون بحراسة الحوانيت يقومون بأعمال الدورية وكانت تلك الأسواق تضم جميعا اثني عشر ألفا حانوتا اصطفا على جانبي الطريق الذي يبدأ من عند جامع الحاكم بأمر الله حتى تربة السيدة نفيسة مارا بجامع ابن طولون . ولا بد ان أصحاب الحوانيت كانوا يضيئون ذرعا بنشاط الباعة الجائلين ويتشاجرون معهم . فالواحد منهم يفرش بضاعته على منصة صغيرة على الطريق ويحاول ان يجذب اليه المشتريين وينجح في ذلك لكن هؤلاء الباعة كانوا يعيقون حركة السير

فيطاردهم رجال الشرطة مدفوعين بشكاوى أصحاب الحوانيت المتضررين
لكنهم لم يتنجحوا أبدا في استئصال شافتهم .

وكما هو الحال في الشرق فقد كان التجار يتجمعون حسب
تخصصاتهم ، فعند باب الفتوح وجد الجزائريون وباعة الحبوب والتين
المجفف وعلى مقربة كان السروجيون يمارسون نشاطهم فإذا ما قصدنا
الى الجامع الأحمر لداعبت أنوفنا روائح متباينة في اثارها للشهية
تنصاعد من المطابخ والفاكهين والشوائيين وبوجه عام من باعة الأطعمة
الذين تحف حولهم سحابة من الذباب . وحول الجامع الأحمر تراكت
مئات الفوانيس الشمعية التي تستخدم بكثرة في شهر رمضان وهي على
درجة كبيرة من الرقة تنبعث من يريق معدنها الأبيض .

فإذا ما اتجهنا الى باب النصر فسنلتقي أنفسنا وسط شلال دافق
من الأقمشة المبسوطة يعرضها كل من كانت حرفته تتعلق بلباس أهل
القاهرة من حائكين وصياغين وغيرهم . وعلى مقربة منهم علقت شباشب
أزواجا في صفوف مدت على حبال . وفي البقعة الواقعة بين جامع الأحمر
والخرنقش يحسب المرء نفسه في معرض هائل للطيور يتداخل فيه
صوت الدجاج مع ارجاع البلابل وهديل الحمام فقد كانت الطيور تعرض
في هذا المكان بأنواعها أما ارضاء لشهوة البطون أو تشنيفا للأذان .

ويقصد البقعة الواقعة أمام تربة السلطان قلاوون عملاء من نوع
آخر انهم الضباط والجنود من المماليك الذين يسلمون الى شراء سيوف
وحراپ ودرود وزرود من باعة السلاح . ويردد في نفس تلك البقعة
رنين القطع النقدية التي يتداولها الصيارفة وغيرهم وينافس بريق
الجواهر في حوانيت الصاغة ضياء أشعة الشمس . والى الجنوب من
« مدرسة الملك الصالح أيوب حيث يتجاور باعة الحلوى بطعامهم اللذيذ
مع الوراقين (المكاتب) باعة أغذية الروح . وعلى الجانب المقابل من
الطريق قرب بيمارستان (مستشفى) قلاوون تصادف من جديد الجند
وهم ينتقون المهاميز وقد أخذوا يتقبلون بين تلك الرخيصة المصنوعة من
الحديد ، وهذه الغالية المتخذة من الفضة أو الذهب الخالص . وبالقرب
من تلك البقعة أخذ باعة الأقمشة في عرض بضاعتهم من المفروشات
والطنافس والى جوارهم باعة الفراء المتخذ من السمور أو الفاقوم
(حيوان من فصيلة بنت عرس) أو السنجاب . أما عند أبراج باب زويلة
الهائلة فقد اتخذ باعة الحلوى حوانيتا لهم ومن بينهم من تخصص في
صناعة تماثيل حيوانية أو انسانية من السكر .

لعب التجار الأجانب دورا هاما فى الحياة التجارية القاهرية . فمن كانوا ؟ يأتى اليهود فى المرتبة الأولى الذين استطاعوا بمهارتهم النفاذ فى كل مكان ، فى أوروبا حيث لم يكن يسمح للعرب دائما بالدخول وفى العالم الاسلامى حيث لم يكن يلقى التجار الأوروبيون ترحيبا كبيرا . ومن بعد هؤلاء يأتى الفرس وكثير من الأوروبيون وخصوصا الإيطاليون من البندقية ومن بيزا وصقلية وأيضا اقليم الأرجون ومن فرنسا .

فماذا كان يشتري هؤلاء أو يبيعون فى مصر ؟ منذ القرن الثامن الميلادى صارت مصر مركزا هاما لتجارة العبيد فكان بعض التجار يسافرون حتى منفوليا فى آسيا الوسطى لجلب الارقاء . وقد حظى الشركس والسلاف وجورجيون والأتراك على اقبال كبير . فكان ثمن الواحد منهم أعلى من مثيله من الزنوج . فعلى سبيل المثال اشترى السلطان قلاوون فى حادثته بمبلغ ألف قطعة ذهبية .



والسلعة الثانية كانت التوابل . وكان تجارها يجنون من ورائها أرباحا هائلة حتى انه قيل عنها انها سقطت فى بدء الخليقة من الجنة فحملتها مياه النيل وقذفت بها الى أرض مصر . وأهم أنواع التوابل التى كانت ترد هى القرفة والقرنفل والمستكة والفلفل والزعفران وحتى القرن الخامس عشر كان البلسم شديد التوفر فى القاهرة . فقد كان يزرع فى المطرية وعندما كان النبات يمتلئ بالعصارة ، كان يخذش . فيسيل البلسم منه ، ويجمع ويترك لفترة ، ثم يسوى على النار . ثم يوزع السلطان بعضا منه على أصدقائه وعلى المستشفيات ويرسل الباقي منه الى ايطاليا .

ومن بين السلع التى اشتد عليها الطلب كانت المياوات (وهى الأجساد التى حنطها قدماء المصريون) فكان يستخلص منها عقار . وقد اعتقد انها تتألف من مادة القطران التى حفظت اللحم البشرى وقد خلطت مع مجموعة من المواد المطهرة . وكان منها نوعان المياء البيضاء وهى الأقل جودة ، والمياء السوداء وهى الأفضل وخصوصا اذا كانت لبنت عذراء وقد ساد الاعتقاد قديما فى قيمتها العلاجية . فصدر منها فى عام ١٤٢٤ م الى فرنسا كمية قدرت ب ١٢٥ كى ذهبى *écus* (الواحد منها يساوى ٣ فرنكات) للكويبتال *quintal* (مائة كيلو جرام) .

ولن نطيل فى سرد بقية قائمة السلع التى كانت تباع فى القاهرة

حينذاك خشية الامال ولكن لنذكر باقتضاب بعض المنتجات الحيوانية مثل دوقات السلاحف وريش النعام والسياط من جلد فرس النهر والجلد المراكشي كانت الخامات المعدنية تجلب من أوروبا عدا الذهب الذي كان يأتي من السودان ، والأحجار الكريمة من سيلان والهند وإيران . ونذكر أيضا السكر المصنوع في الفسطاط والسجاد المنسوج في مصر وإن كان يسمى « سجادا تركيا » الخ . فإذا ما أردنا الاختصار قلنا كان المرء يجد كل شيء في القاهرة ، ومن كل أنحاء العالم من بغداد والجزيرة العربية والقسطنطينية وسوريا والمغرب كان يأتي الناحسون إلى القاهرة ليزودوها بالعبيد .



ترك لنا المصورون الذين زاروا القاهرة في العصور الوسطى لوحات لها مفعمة بالحياة مثل شوارعها وهي مكتظة بالناس نهارا ، أو أبواب حاراتها الخشبية وقد أغلقت ليلا وحسبما يذكر لنا فرسكو بالدي Frericobaldi وقد سبقت الإشارة إليه ، أن أكثر من مائة ألف من سكانها كانوا ينامون في الحماق أو على قارعة الطريق . وإن عددا من الطباخين كانوا يمارسون مهنتهم في الطرقات ليلا ونهارا ويطبخون في قدور بدئية من النحاس المبيض وطعامهم فائق الجودة إلى الحد الذي يفضل الناس معه الا يطبخوا في منازلهم ويكتفون بشرائه من الأسواق . « ويتناول المارة قطعة من لحم الخيل (!) والحمر (كذا) (!) والجمال في أطباق نحاسية ويأكلونها جالسين القرفصاء وبعدها يلعبون أصابعهم » . (خوري) ويخبرنا المقرئى بطعام العامة فيقول : « مأكلا أهل القاهرة : السميس (الفول المنس) والصبر (صغار السمك) والصحناء والبطاخ . ولا تصنع النبدة (وهي حلوة القمح) إلا بها وبغيرها من الديار المصرية . وفيها (القاهرة) جوار طبابخات ، أصل تعليمهن من قصود الخلفاء الفاطميين ، لهن في الطبخ صناعة عجيبة ورياسة متقدمة » ، « وكان زيت بلدة الكتان يستخدم في طهي الطعام ويتم الحصول عليه بسحقها بأقدام العصارين الحافية أما في الأحياء الراقية فكان المستهلكون يصرون على أن ينظف العصارون أقدامهم بحجر الخفاف وإن يرتلوا كلمات على ألقاهم (مزارى) . وكان هذا الزيت غالي الثمن ، لذا كان يتم في كثير من الأحيان خلطه بزيت الزيتون رخيص الثمن . أما عن الشراب فيقول المقرئى « وعامتها يشربون الزر الأبيض المتخذ من القمح ، حتى أن القمح يطلع عندهم سعره بسببه ، فينادى النادى من قبل الوالى بقطعه وكسر أوانيه ، ولكن كان المرء يكتفى عادة بشرب الماء . وكان يوجد بالمدينة

مهرجون يسلمون أهلها : « كانوا يرتدون القرون ويكسسون أجسامهم بالريش ويكسسون وجوههم تعبيرات غاضبة ويحملون في أيديهم مصابيح كديوجين * ويفومون بحركات غائبة وفقرات مجنونة كالبلياتشو العالي » « خورى » *

« كان رجل الشارع يتسم بالمرح والتسامح ويهتم بجودة طعامه وحسن شرابه وكان يميل الى النضحك أما قارس القول فلا يغضبه . لكن رجلا جادا كالرحالة بن سعيد يعبر عن سخطه فيقول « ولا ينكر فيها اظهار اوانى الخمر ، ولا آلات الطرب ذوات الاوتار ولا تبرج النساء العواهر ، ولا غير ذلك مما ينكر في غيرها من بلاد المغرب » *



وقد آثار حسن بنية أهل القاهرة حينذاك إعجاب الرحالة فيقول عنهم سيمون سيجولى Simon Segoli « انهم قوم شديدي الحسن ، أجسامهم تفوق أجسامنا ، وكلهم يحرص على ان تكون له لحية شديدة طويلة . وبها عدد كبير من المعمرين الذين تعلموا الثمنين ومن المتع حقا ان نتأمل جمال هؤلاء وما هم عليه من مهابة » . أما عن نساءهم فيقول الرحالة الانجليزى جون ليو John Leo « انهن جميلات . . ومثيرات الى حد ما ولا يظهرن علماء لمن يريد المرح . وتمارس بعضهن التجارة . ويذهبن الى الاسكندرية ودمياط مثل التجار الكبار . ويركبن للانتقال خيلا وحميرا حسنة الزينة كما يركبها الرجال » . ويتحدث عنهن محمد أبو حامد بحماس كبير ويذكر حديث الامام الشافعى : « من لم يتزوج مصرية لم يعرف انزواج الحق » (١) *

ويصف جيل الراعى Gilles le Bovvier الذى زار مصر عام ١٤٥٠ م أهل القاهرة فيقول :

« يرتدى أهلها ثيابا تشبه تلك التى يرتديها الشماسية فى فرنسا عندما يشملون فى القداس . وهى منتظمة الاتساع سواء فى أعلى أم فى أسفل وثيابهم مشققة فى النصف وهم لا يرتدون أحذية ولكن يلبسون نعالا صفراء وعندما يذهبون الى المدينة وعندما يكونوا فى اخان يخلعونها حتى يريحوا أقدامهم . ويرتدوا على ثيابهم عبايات من تسبيج أبيض كما يفعل الشماسية الفرنسيون . ويلفون حول رؤوسهم قماشا يبلغ طوله

(*) فيلنوف يوتانى روى أنه كان يسمي فى وضع النهار وبيته مصباحا قائلا

انه يطفى عن الحقيقة .

(١) ترجمة من النص الفرنسى .

من ثلاثين الى اربعين ذواعا ويسمونها toques ويختارون لها أقمشة
ثمينة حسب قدراتهم ولا يتنكر هؤلاء الناس أبدا فهيتاتهم دائما واحدة .
وعندما تخرج نسائهم ترتدى الواحدة عباءة من قماش وطرحة ترخيها على
رأسها ونقابا خفيفا على وجهها وترتلى نغلا أصفرا ويمكن لهن بهذا رؤية
الناس لكن الناس لا يستطيعوا رؤية وجههن » .

ولا يمكن للمرء ان يخفى دينه في القاهرة حيث يرتدى المسيحيون
عمامة سوداء أو زرقاء ، اما المسلمون فيرتدونها بيضاء واليهود صفراء .

ويرى المرء أحيانا في الطريق ثلاثة أو أربعة رجال مقبدين بسلسلة
حديدية مشدودة الى وثن يحرسهم « وهم لصوص يستجنون الناس وقد
فرض عليهم السلطان ان يدفعوا اليه مدينين أو ثلاث كل ليلة فان لم
يدفعوها ضربوا » . وبينما هم يستجنون الناس لا يتورعون عن سرقتهم
اذا اتحت لهم فرصة حتى ينجوا من العقاب الذى يتوعدهم بالليل » .



يعيش كلا من الرجال والنساء فى انفصال فلا يحق للمرأة ان تبتدو
فى مجتمعات الرجال خلا الراقصات منهن والمغنيات . لكن مجتمع
النساء ، لا يخلو من مرح ونشاط « فهن يتنزهن فى الحدائق ويعنين
بمنازلهن ويعنين بتربية اطفالهن » . وكثيرا ما يستقبلن اصدقائهن فى
الحريم . فينشغلن بالحديث عن الآثياب والزينة ويغضن فى ذكر الخوارق
أو يتبادثن الاشاعات ويتحدثن عن الزواج ووصفات الجمال أو اعداد
الطعام « (مزاهرى) وعندما يردن اللهو يجتمعن ويحضر لهن الخدم
الحاوى ولذيذ الطعام على صوان كبار . وتأتى مغنيات وراقصات يرقصن
على أنغام موسيقى مكفوفى البصر ، وهم من يسمح لهم بالدخول الى الحريم
من الرجال » .

« كان الذهاب الى الجماعات العامة من أكبر متع نساء ذلك العصر .
فالى جانب الاستحمام كن يتجملن فيها . وبعد ان تفرك أجسادهن بقفاذ
من صوف خشن كن يتناولن طعام يأتى به خدمهن من منازلهن ، ثم
يسترحن ساعة أو ساعتين وتعتنى بتجملهن امرأة تعرف « بالمالنة » ،
وهي تتولى صبغ شعورهن بالحناء فى عناية فائقة حتى لا تلتطخ جباه
أو أعناق زبائنها بتلك المادة . وتكسب الحناء الشعر درجة جميلة من
الاحمرار . وكانت الشقراوات يصبغن شعورهن بالسواد لأن القاهريين
لم يكونوا مولعين بهذا النوع الا اذا كان فى حريم السلطان امرأة شقراء .
تعمد النساء الى محاكاتها . وكانت النسوة تنظفن أجسادهن من الشعر

بمعجينة كبريت الزرنيخ الأصفر والكلس تترك الجلود أبيضى وتزعم
الملمس • وينبع هذا صمغ الأظافر والساج • ثم يأخذن حماما ذاترا لراحة
الجسد وبعده يستمتعن بالحلوى والفاكهة (مزاھرى) •

ولم تكن كل امرأة فى القاهرة تضع الحجاب • فقد كان هذا الترف
خاصرا على المنعمات منهن وكانت المسيحيات يرتدين النقاب أيضا • فهو
إشارة على ارتفاع المكانة الاجتماعية على الدين • والنسوة المحترفات
يرتدينه للحفاظ على نضارة الوجه وبقاء بشرتهن • أما الفاسلات والناسجات
وصابغات الملابس فلم يكن فى وسعهن ان يتمتعن بهذا الترف •

« والاحتفاظ بالنسوة فى قسمن بالمنزل (انحریم) حيث تغلشن
الجوارى ترف لم يكن يندر عليه البسطاء • فكان على نساھم ان يخرجن
الى الطرقات مكشوفات الوجوه تبعين بشؤونهن » •

ولم يكن من الجائز للرجال دخول الحریم الا ان المنجمين والأطباء
والتجار ورواة القصص كانوا يدخلون اليه على ان تتجلب النسوة كما
يفعلن لو اردن الخروج • ولا يدل وجود انحریم بانفسرة على تعدد
الزوجات ، فمثل هذا التمدد لم يكن الا بمقدور الأغنياء ، فحریم اهل
الطبقة الوسطى الصغرى والعمال لم يكن يضم الا زوجة واحدة «
(مزاھرى) •

« كان الرجال يطلقون اللحن فى العادة • وطول المنجبة وشكلها
ولونها يحدد مكانة صاحبها : فهي طويلة عند اهل الطبقة الوسطى ،
وقصيرة عند العمال والخدم » (مزاھرى) • ويحلق شعر الرأس تماما
عدا خصلة واحدة (شوشة) بيد ان رجال الدين والعلم كانوا ينظرون
الى تلك العادة بازدراء • وكان لكل رجل ذو مكانة ختم يحمل اسمه ولقب
عائلته وعلامة صانع الختم وتاريخ صناعته • وكان على صانعى الاختام
الاحتفاظ بسجلات تحفظ طبعات من الاختام التى يصنعونها • وكانت
تصنع من البرنز أو الفضة أو الیشب أو الذهب • اما اختام الحكام فمن
العقيق تتخذ أو الزمرد أو الماس • وتلك الاختام تقوم مقام التوقيع •
وأحيانا تكون تلك الاختام على خواتم تلبس فى خنصر اليه اليمنى وكان
المرء يعنى بحمل الشبك (غليون ذو بلسم شديد الطول) معه فى كل
مكان ولذا كان الشراء يكلفون أحد الخدم بحمله والسير به خلف سيده •
« وكان معظم الرجال يحملون مسابح تتخذ من خشب البقس أو الليمون
أو الأبانوس أو خشب الورد أو العنبر أو حجر الیشب أو الصندف •
ويستعملها اهل الودع فى التسبيح بينما يستعملها الأميون كمعادنات •

ويعمد بعض المتروفرن الى اسقاط حباتها حبه بعد الأخرى بحركات وشيقة.
تظهر جمال أيديهم « (مزارى) »



كان الدين يلعب دورا هاما فى حياة القاهرة • فمن على قم المآذن
ينادى المؤذنون على الصلوات الخمس التى شرعها الاسلام • ويختار لاداء
تلك المهمة فى الغالب المكفوفين حتى لا يجرحوا حرمان أسطح المنازل
المجاورة • وعند آذان العشاء يضى المؤذن مصباحا فى أعلى سارية من
الخشب حتى ينبه قاطنى الدور البعيدة الذين لا يصل اليهم صوته •
ويساعده رجال درسوا علم الفلك كى يتمكنوا من تحديد مواقيت الصلاة
فاذا ما عاقتهم لسحب عن رؤية السماء • لجأوا الى ساعة مائية محفوظة
فى المسجد • وهى تعلن عن الساعات وانصافها وأحيانا أرباعها بأصوات
موسيقية ميكانيكية فى النهار • أما فى الليل فتستخدم مصابيح مختلفة
الألوان •



ولتزويد المدينة والمارة بالماء شيلت العديد من الاسيلة • وقد بناها
الأثرياء ليكفروا عن آثامهم فى الماضى • وبالسبيل خزان أسفل مستوى
الطريق يملأه السقاؤن بقرهم • وعلى واجهة السبيل أحواض تظللها
شقيقة ويأتى اليها الماء من أنابيب رصاصية ويشرب الناس منها مباشرة
أو يستخدمون أكوابا توضع على حواف نوافذ السبيل • وعلى نواص
الطرقات توضع ازياء فخارية يشرب منها الناس • كان بالمساجد نفورات
للولؤءه يمكن أن تستخدم لجلب الماء للشرب •



ويحدثنا الرحالة عن أفران التفرخ المشهورة بالمدينة ، التى كانت
تستخدم لتفريخ البيض بتعريضه للحرارة ، فيمكن للواحد منها ان ينتج
من خمسة آلاف الى ستة آلاف بيضة فى ستة أيام حسبما ذكروا •
يقال ان أهل المدينة لا يؤذون ابن عرس الذى يكتر فى كل مكان
لأنه يقتل الثعابين •

وكلاب المدينة تتمتع بدرجة كبيرة من الوطنية فلكل مجموعة منها
منطقة معينة • والويل كل لويل لمن يجروء منها على السخول فى منطقة
الأخرى •

ومن متع القاهرة حينذاك كثرة طيورها التى تضى على الحياة

مظهر، حلوا بأصواتها والعابها • فتوصف في رسالة الى زكي الدين الحسيني .
 « وقد امتلأت بهن الآفاق ، وتكلمت بنجومهن الأملاق ، وشرين من
 جريالها فاسكرهن الاصطباح والاغتيال : فكم من مسود كخال بخله ،
 وأزرق كاللا زورد ، وأشقر كزهر ورد ، أحمر ناصع ، وأصفر قافح ،
 وأبيض ذو خضاب عندي ، بلطف منقار بقمي ، ومبرقش ومبقع ، ومعهم
 ومقنع ، واشقر منقش ، وأدقش مرشش وعدوى وهندي ، وصيني
 مسني ، وعينين كياقوتتين قد رصعتا في لجين ، وكم من طائر أبهى من
 قمر سائر ، بفرق مثل صبح مسافر • وكم من اطياف طراف ملاح لطاف •
 ذوات الحان ونضرة وآلان ، وخلق وأخلاق ، ونطق وإطواق ، وايناس
 مع شماس •• قد أزدانت الأرض بأصواتها » •

وقد لاحظ الرحالة جونا Janna في عام ١٥٥٤ م كثرة النعام
 في أطراف القاهرة وكان قنصل فرنسا يحتفظ في بيته بواحدة .
 مستانسة قال عنها الرحالة : « انها لا تنفك تأكل طيلة النهار » .
 أما فرسكو بالدي فقد لاحظ كثرة الحمام حتى انها اتخذت لها ثلاثة
 أعشاش في حجرته ووصف رحالة آخرون حيوان غريباً شاهده في
 النيل (يبدو انه التمساح) قائلين : « انه أشبه بشعبان ضخم يدعوته
 calatrix رأسه ضخمة كرأس الجواد وجسمه أشبه بالوحش
 الذي قتله القديس جورج » •



وخير ما يمكن أن يصور لنا الحياة في القاهرة المصور الوسطى .
 أشعار شعرائها وقصص ألف ليلة وليلة التي كتبت في هذا العهد وتدور
 حوادثها فيها • وخلف لنا البهاء زهير (توفي عام ١٢٥٨) ، سكرتير
 الصالح أيوب أشعارا ، تحمل نبرة حسية تدور حول الحب فيقول عن
 معشوقته :

فهما مثل خط الجمال •• قامتها كالرمح

وبالرغم من رقابة الأهل والحراس نقرأ عن الفتيات اللاتي يلاقين
 أحيابهن • وبالرغم من وصايا الرسول فقد لعبت الخمر دورا هاما في
 حياة القاهرة • ويقول عن هذا الزهير :

لنشرب ونلهو يا رفائي وليذهب الرقيب الى الجحيم

كان الكثير من سلاطين المماليك مولعين بالخمر حتى أن بيبرس
 العظيم كان أحيانا ينصرف عن تصريف شؤون الدولة لسكره •

ولم يكن المرء يشرب وحده بل يفضل المجالس التي تسود فيها روح
المرح وتتناثر في أرجائها الأزهار • ويضج الواحد لحيته وثوبه بماء
الورد ويحرق البخور والعنبر الرمادى فى مباحر • وكان الرقص والغناء
رفيقين لا غنى عنهما لمثل تلك المجالس •

ويقوم بالغناء فتيات مرحات رشيدات كالصفاف وجههن حسنة
كالأقمار ويرددن أشعار الحب العربية على موسيقى العود ، بينما تتمايل
الراقصات بحركات شهوانية على صوت الرباب والدف •

وينتقد ابن سعيد بشادة بعض أوجه الحياة فى القاهرة :

لا تركبن فى خليج مصر	الا اذا اسدل الأنظلال
فقد علمت الذى عليه	من عالم كلهم طعام
صنن للحرب قد انظلا	سلاح ما بينهم كلام
يا سيدي لا تسر اليه	الا اذا هوم النيام
والليل ستر على التصابي	عليه من فضله ثام
وينتهى من شعره قائلا :	
لله كم لوحه جنينا	هناك أثمارها الأثام

✱

وعند الاحتفال بالأعياد الكبرى والأحداث الهامة ، تطوق بالمدينة
مواكب احتفالية وتنظم تلك المواكب على نحو دقيق • فعلى منبيل المثال
خرج السلطان بعبرس يستعرض جيشه فكان يسير فى القلب ، متطيا
جواد ، مرتديا جبّة من حرير أسود • ذات اكمام واسعة غير موشاة •
وكان يرتدى عمامة من حرير فاخر يتدلّى طرفها بين كتفيه • وعلى جانبه
يتدلّى سيف بدوى فى غمده تخفيه الثياب • ويسير أمامه الأمراء حاملين
دموز السلطنة • وكانت غماشية الجواد (غطاء الخيل) مغطاة بالذهب
ومرصعة بالأحجار الكريمة • ويحمل أحد الأمراء أو قائد الجيش مظلة
فوق رأس السلطان وهى مصنوعة من الحرير الأصفر ومتوجة بصورة
طائر جام على قبة من ذهب •

ويكسى جواد السلطان بغطاء من جزئين من الستان الأحمر ويفطى
مؤخرة الحصان من الحرير الأصفر المطرز بالذهب ويفطى عنقه • وعلى
مقربة منه تحمل الراية السلطانية وتحمل فرق الجيش رايات من الحرير
الأصفر تحمل شعارات قوادها • ويسبق السلطان بخطوات غلامين على
فرسين أبيضين بسروج مطعمة • ويرتديا ثيابا من حرير أصفر مقصبة

بالذهب وكوفيات من نفس النسيج . وعليهما ان يفسحا الطريق
 للسلطان . وفى المقعدة يسير لاعب مزار بصحبة أحد المغنين الذى يحمل
 دفا وينشد عن أعمال البطولة للملوك الأقدمين . ويصحب الموكب شعراء
 ينشدون القصائد وامام وخلف السلطان يسير الحرس شاهرين الطاريد
 (حربة مزودة بفأس ومقردها مطرد) والى يسار السلطان يسير الجوكندار
 (حامل مضرب السلطان فى لعبة البولو) وهو يحمل « خناجر الدولة »
 فى أعمادها . أما الى يمين السلطان فيحمل درع وخنجر آخر . وبالقرب
 منه يأتى الجمكدار (حامل الصولجان) وهو رجل وسيم طويل القامة
 يحمل الصولجان ذو الرأس الذهبية وهو لا يرفع عينه أبدا عن وجه
 سيده . ثم يتوالى مسير كبار الضباط والقادة معطوفين بقدر أقل من
 الاتباع .



وأحيانا يذهب السلطان الى الصيد . ويصحبه فى رحلته خمسة
 أو ستة آلاف فارس معهم الصقور والفهود . وأحيانا أخرى كان يمارس
 ألعابا رياضية كلعبة البولو . وتلعب تلك اللعبة فى ميدان واسع محدد
 بخطين على كل جانب وتوضع فى وسطه كره بحجم رأس الانسان منفوخة
 بالهواء ثم يأتى ألف مملوك على جيادهم وينقسموا الى فريقين يواجه
 الواحد منهم الآخر . ويحاول كل واحد منهما أن يقذف الكرة بمضرب
 خلف خط الآخر . وعنق تلك اللعبة قد يؤدى الى اصابة أحد اللاعبين
 بكسر فى ذراعه أو قدمه . وإذا ما سقط من السلطان مضربه عفوا ،
 تسارع المماليك الى التقاطه فمن ينجح فى ذلك يأخذ جواد السلطان وكل
 ثيابه التى يرتديها فى هذا اليوم .



ويصف لنا ابن دقماق الذى عاش فى نهاية القرن الرابع عشر عيد
 وفاء النيل . فعندما يصل ارتفاع ماء النهر الى ستة عشر ذراعا يعلق
 حاكم القسطنطين فى نافذة المقياس التى تواجه القسطنطين راية (ويطوف
 بالمدينة فى الأيام التى تسبق هذا الحدث فتية يرتدى الواحد منهم
 غطاء الرأس أصفر اللون ويخبروا أهلها بارتفاع النيل) . وإذا كانت
 الأنباء سارة يقدم لهم الناس بعض الهدايا .

وفى الليلة التالية تضاء جزيرة الروضة بأسرها وتكثر فيها
 القوارب وتزين بسخاء ويقاد فيها النفط الموضىء فى أوان خاصة .
 وتحمل تلك القوارب التى تنزلق على صفحة النيل الموسيقيين .

وينهذب السلطان الى المقياس أو يوفد نائبه • ويقرا القرآن حتى الصباح وينشد المنشدون مدائحهم • ثم يتخذ السلطان أو من ينوب عنه ، ان كان غائبا ، مكانه على المائدة • وتطلى الإشارة فيسارع الناس الى التهام الطعام المهدى فى الليل والذي نضد فى صفوف متوالية • وعندئذ يدخل السلطان أو أحد الأمراء المقياس • ويهبط « ابن أبى الزداد » الى القاع ويملا كوبا به بعض الزعفران بالماء ، ويرشه على بدن العمود الذى قسم الى درجات توضح ارتفاع الماء •

وبعد تفريق الخلع على حاكم القسطنطين وشيوخ بحارة المراكب السلطانية والأمراء والعظماء ينهذب السلطان بسفينته الى السد الذى يندد الخليج ليكسره • وهناك يجتمع معظم الأمراء وكبار الموظفين على قنطرة • وعندما يصل الرجل الذى كان قد نثر الماء على عمود المقياس يتناول معولا ويضرب به السد • ويقلده الآخرون فما يلبث الماء أن يجري فى الخليج •

وفى هذا اليوم يعمد الناس الى التنزه فى القوارب المزينة ويحملون معهم الطعام ويستمر الاحتفال أسبوعا قد ينفق فيها تاجرا كل ما ربحه أثناء عامه المنصرم •



كان الكثير من سلاطين المماليك رجالا عظماء مولعين بالأبنية الجليلة • فها هو بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧) مثالا جيدا لهم • كان من أصل تركى أزرق العينين • وقد اشترى بثمن بخس فى طفولته بسبب إصابته بالمياه البيضاء Cataracte وكان ضعيف البنية ذو قوة هائلة وجراحة وحيوية فائقة شابت نفسه القسوة والتعطش والانتقام وكان دائم التجول فى أنحاء الدولة حتى يبدو فى أكثر من مكان فى وقت واحد • وقد راعى فى صرامة تعاليم الاسلام فلم يتخذ سوى أربع زوجات كما حدد الشرع وعاقب بصرامة شاربى الخمر • وبالرغم من أنه كان مكروها من الأمراء المحيطين به الا أنه ضار فى وجدان الشعب المصرى لفترة طويلة بطلا للعديد من القصص التى كان الرواة يقصونها على الناس فى الأماكن العامة • ومات بيبرس من كأس مسمومة أعدها خصم له وشربها خطأ •

وتدين له القاهرة بمدرسة شيدت فى عام ١٢٦٢ م وبالجامع الذى يحمل اسمه ، والذي بنى فى عام ١٢٦٩ م خارج سور المدينة •

ويقع حاليا فى الحي المعروف باسم « الظاهر » وقد بنى برخام وخشب جلبا من قلعة يافا فى فلسطين • وحوله الفرنسيون أثناء حملة

نابليون بعد خمس قرون من هذا التاريخ الى القلعة . وفي عصر محمد علي صار مذبحا ، ثم استخدمته قوات الاحتلال البريطاني مجزرا . أما الآن فقد تحول صحنه الذي يذكرنا بجوامع ابن طولون أو الحاكم الى حديقة عامة تتجاوب فيها أصداء ضحكات الأطفال طيلة اليوم .

واحتاج السلطان فى عام ١٢٧٥ م الى أعمدة لتزيين إحدى منشآته فى القاهرة فأمر بهدم باب البحر حتى يستفاد من أحجاره الضخمة فى هذا الغرض . وأثناء الهدم وقع حادث أثار الاهتمام . فقد عثر على صندوق بين جدران الحائط . وجد فيه عندما فتح تمثال صغير من النحاس الأصفر . مقع على قاعدته . وكان يحمل لوحا به نقش يمثل رأسا بلا جسد وكتابات قبطية وصورا أخرى وكان بالصندوق لوح يشبه تلك الألواح ، التى يستخدمها الصبية فى الكتائب ، وكان به ثلاثة عشر سطرا الأول منها : « الاسكندر (الأكبر) ، والثانى الأرض وهبها له » . والسطر الأخير « بيبرس ملك الزمان والحكمة كلمة الله عز وجل » . وقد استدعى أناسا يعرفون القبطية . فقالوا ان اللوحة ظلم صنع ابن الخليفة الحاكم حتى يحصى مصر من أعدائها وضد أى خطر . ويبدو أن المقرئ الذى روى لنا تلك القصة لم يفتن الى الملحق الصريح الذى اصطنعه مترجم اللوحة الدعى .

اشتهر السلطان قلاوون الذى خلف بيبرس بمدرسته ومقبرته ومارستانه الذى بناه وغاء لنذر نذره أنشاء أصابته بمرض فى عام ١٢٨٤ م . ولم يبق شيء يذكر من مارستانه الا أن مقبرته . وقد أصلحت بمهارة ، تباهى بجرأة وتناسق خطوطها . وقد أعيد بناء قبعتها المنهارة على نسق قبة مقبرة فاطمة خاتون التى شيدت أيضا فى عام ١٢٨٤ م وخصصت لتضم رفات بعض أعضاء العائلة السلطانية .

وتعد الفسيفساء التى تكسو الجدران والدعائم المستطيلة من خير أمثلة هذا الفن فى القاهرة .

ومن منشآت هذا العصر تربة الأشرف خليل (١٢٨٨) الابن الأكبر لقلاوون وخليفته . « وتربة الشيخ أحمد بن سليمان الرفاعى » (١٢٩١) وتربة « سنجر الجاولى » (١٣٠٤) التى تضم مقبرته ومقبرة صديقه سلال وكلا منهما تحت قبة مميزة . وأخيرا مسجد وتربة « محمد بن قلاوون » (١٣٠٤) وبوابتها كانت قد انتزعت من كنيسة القديس يوحنا بعكا على يد السلطان خليل بن قلاوون .

ويعد عصر الناصر محمد بن قلاوون العصر الذهبى للعمارة فى

القاهرة • وكان الناصر قليل الحجم ، به عرج ، ومصاب بالمياه البيضاء
فى عينيه (١) ، وكان قوييم الأخلاق ، ذو ذكاء وافر حيوية كبيرة وإرادة
من حديد وإن كان مخادعا كثير الحيل وشديد الانتقام • وتمتع بنوق
كبير ورقى عقل فكان يرمى العلماء وكان صديقا لأبو الفدا المؤرخ •

وهو الذى بنى جامع القلعة الذى ذكرناه آنفا بمعرض خديشنا منها
وطبقا للمؤرخ لين بول Lane Poole فهو الذى بنى قناطر مجرى
الميون التى كانت تغذى القلعة بالماء الحلو والتى تنسب خطأ
لصلاح الدين •

وقد بنى مسجد آخر قرب « تربة السيدة نفيسة » و « قبة النصر »
بالقرب من الجبل الأحمر ومنشآت أخرى أقل أهمية •

وفى سفح المقطم تقع « مدرسة السلطان حسن » (١٣٦٢) إحدى
روائع العمارة الإسلامية وقد استخدمت مرارا كحصن لمهاجمة القلعة •
وتروى أسطورة أن السلطان قد أمر بقطع يد مهندسه عند فراغه من
البناء حتى لا يبين مثله وكما يقول المقرئى « لا يعرف فى بلاد الإسلام
معيد من معابد المسلمين يحاكي هذا الجامع » • ويقول عنه جايه Gayet
« أنه حقا من إبداع عثماني الفن العربي بسخامة نسبه ودقة نقشه وبهاء
رخامه ولين ورقة زخارفه ونعومة رسومه ونقاء فسيفساه وروعة
نقوشه » •

ولا يجب أن ننسى مدرسة السلطان المؤيد (١٤١٥) بحديقته
الرائعة التى تتوسطها فوارة بديعة تكاد تتوارى بين أشجارها وخمائلها
وأحواض زهورها • وقد حلت محل سجن عرف بخزانة شمائل سجن
فيه الأمير منطاش المالك الذى قمع ثورتهم ومن بينهم مملوك نزر الى الله
ان نجى من تلك المحنة ليشيدن مسجدا على تلك البقعة التى قاسى فيها
الآلام • وما لبث أن صار سلطانا فلقب بالمؤيد • وقد أوفى نذره وتنهض
مثدنتا المدرسة شامختين على برجى باب زويلة وتزين بوابة المدرسة
مقرنصات أنيقة على بساطتها •

وعلى نسق السلاطين أراد كل أمير أن يقيم مدرسة أو جامعا أو تربة
أو حتى فوارة •

(١) يذكر المقرئى أنه كان مصابا بالحول • ويقول انه كان مهابا عند أهل مملكته
بحيث أن الأمراء إذا كانوا يخشونه لا يجسر الواحد منهم على أن يكلم آخر كلمة واحد
ولا يلتفت بعضهم الى بعض خوفا منه •

وقد أدهش حماس مسلمي مصر الرحالة ابن بطوطة الذي زار القاهرة في عام ١٣٢٦ م • فبين عامي ١٣٢٠ ، ١٣٦٠ بنى أكبر من أربعين مسجداً في القاهرة منها ما يعد من ابدع المساجد التي نعرفها • ونذكر منها « الأمير الماس » (١٣٣٠) الذين تزين بوائكه الزنايق وجامع « المردافي » (١٣٤٠) الذي تفصل صحنه عن بيت صلاته أحجية خشبية بديعة ومسجد « اقسنقر » أو « ابراهيم أغا » (١٣٤٧) المعروف حالياً باسم « الجامع الأزرق » وتزين حائطه قبلته بلاطات من القيشاني الفارسي مزينة بزهور خضراء أو زرقاء اللون على أرضية بيضاء وتضفي الشجرة المزروعة في قلب الصحن روعة على الجامع الذي يشع سحرا بتناسق نسبه مع جوه الحنون الصديق •

ولا يفوتنا ذكر « مدرسة وخنقاه شيخو » (١٣٤٩ - ١٣٥٥) وقد بنيتا متواجهتين على جانبي طريق • وواجهتهما متطابقتين وكذا مثدنتيهما • وأيضاً « مدرسة صرعتمش » (١٣٥٦) الذي جلد برخام بديع يحمل رنك (شعار) مؤسسه •



ولن نمضي في تعداد عناصر ذلك العصر أكثر من هذا لكن لا بد من الإشارة ولو ببضع كلمات الى المقابر المشيدة في البقعة المعروفة اليوم خطأ « بمقابر الخلفاء » فليس هناك مكان في القاهرة أكثر منها يوحى للمزء أنه قد عاد في الزمان الى العصور الوسطى أيام المماليك • فلا شيء هناك يذكره بالقرن العشرين نمضي الى تربة وخنقاه فرج بن برقوق (١٤١٠) بقبتها الحجريتين وهما أول القباب الحجرية في مصر فيما يغلب وتنسجما في اتساق غريب مع الصحن الرائع الذي كان يخطو فيه المقرئ (١) يوما • الى الشمال يقس مسجده وتربة وخنقاه (٢) اينال (١٤٥٦) • وخرائبها تغطي انطبعا بعظمة واتساع المنشأة التي لم يصل الينا منها سوى مقبرة بديعة • وإلى الجنوب تنهض تربة قايتباي (١٤٧٤) إحدى روائع الفن الاسلامي في القرن الخامس عشر •

(١) أحمد بن علي المقرئ (١٣٦٤ - ١٤٤٢) مؤرخ قاهري مشهور أسرته من أصل شامي إلا أنه عاش حتى وفاته في مدينة القاهرة وخلف لنا كتابا عظيما عن جغرافية المدينة وأهم عمارتها وعادات أهلها وتاريخها اسمه (الواضع والاعتبار بذكر الخطط والآثار) •

(٢) كلمة فارسية وتعني بيت وتخصص لسكنى الصوفية المنصرفين الى العبادة ويتكفل بأمر مآسهم الأرقاف التي يهبها للخنقاه المؤسس وهو أشبهه بالدير عند المسيحيين •

فالمرء لا يملك الا أن يعجب بروعة نسبيها اذا ما شاهدها من بعيد
فالمرء الذى يؤدى الى بيت الصلاة والمقبرة مقبى يذكرنا بالعارة القوطية •
وتتسامى المئذنة الرائعة الى السماء فيتحول بدنها من مكعب الى مثنى
فاستطوانة بصورة تبهج العين بتباين تلك الصور • وحلياتها المعمارية
تؤلف وحدة متناسقة لطيفة فيرى المرء فى الدورة الاولى كوات مزينة
بأعمدة صغيرة ، وشرفتها قائمة على مقرنصات ، بينما سورها مؤلف من
أشكال نجمية متشابكة وترفع الشرفة التالية مقرنصات مخلقة فى البدن •
وتنتهى المئذنة بقمة بصلية •

وقد آلت تلك الآثار الى حالة سيئة فتأكلت جدرانها فى كل مكان
وتشرخت قبابها الضخمة وتصدعت يوائكها فانكشفت أعمدتها الى
السماء • وفى ليلة مقمرة يشعر السائر بينها أن جدرانها قد استحال
الى حجب فضية قد تشفى فينفذ البصر الى تلك المقابر الشامخة حتى يتملى
من عظمتها • ويميز المرء بوضوح الزخارف العربية التى تشببك على
أسطح قبابها فوحداها النباتية الرقيقة تتوزع قمم الجدران وانعكاسات
الضياء التى تتناثر هنا وهناك فى صمت الجبانة تخلع عليها مظهرا
خرافيا يفصلها عن أرض الواقع حتى ليخال للمرء انها عادت لساعات
محدودة الى مابقي مجدها •



وصلت القاهرة الى ذروة مجدها فى النصف الاول للقرن الرابع
عشر تحت الادارة الحازمة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون • ومع الأمن
الذى نعمت به البلاد ، أتى الرخاء وتواكب نجاح سياسة السلطان
الخارجية مع الداخلية فنعم الفلاح بالأمن من طغيان الأمراء بفضل
الاجراءات الصارمة التى اتخذها السلطان • وأثار ثراء القاهرة العحية
فى مختلف ميادين النشاط مما دفع بها الى الأمام • وأدى ثراء السلاطين
والكبراء الى اغراق المتاجر بالسلع المختلفة مما عاد بالربح على التجارة
وارتفاع حصيلة الضرائب وأضفت الاحتفالات العديدة بالأعياد قدرا من
البهجة على حياة البسطاء •

ثم على نحو مفاجئ تتوقف القاهرة عن مسيرتها وكأنما قد أنهكها
الاعياء • وتبدأ سلسلة الصعاب بالوباء الرهيب الذى أصابها فى عام
١٣٤٨ • وتتزايد الفوضى ويعم الظلم فى الريف • وتتصاعد حدة الصراع
بين الأمراء وترتفع معها الضرائب وتدهور قيمة النقد • ويعانى الناس
من القحط وتقف أحياء فى القاهرة • وأخيرا تصاب الأنشطة التجارية

والصناعية بضرية هائلة بتدخل السلطان وذوى النفوذ بأشكال عدة من مصادرات الى بيع السلع الاجبارى بأعلى الأسعار .

ويتهم العثمانيون بأنهم هم الذين قضوا على حضارة العصر المملوكى الزاهرة . لكن حقيقة الأمر أن الاضمحلال كان قد بدأ يدب منذ وقت طويل ، فقد كتب دومينكو تريفيسانو Domenico Trevisano فى عام ١٥١١ عن القاهرة قائلا : أنها لا تستحق بأى شكل السمعة التى تشاع عنها » . والحق ان ظلام الحكم العثمانى قد ساعد على سرعة أفول نجم القاهرة الذى كان قد بدأ فى غسق عصر المماليك .

السيادة العثمانية

ارتقى سليم الأول عرش الإمبراطورية العثمانية في عام ١٥١٢ .
ودفعه طموحه الى ضم ديار بكر في شمال العراق ثم الموصل وسوريا ،
ثم أرسل الى السلطان المملوكي في مصر طومان باي (١) يأمره بالاستسلام
له . ورفض طومان باي الاذعان له فنشبت الحرب ، وهزم المماليك في
الريدانية في ٢٢ يناير ١٥١٧ لكن سيادة العثمانيين على مصر كلها
احتاجت بعض الوقت . فقد استمر طومان باي في الكفاح وأحرز بعض
النصر لكنه هزم ثانية . وخانه أحد شيوخ البدو . فأسلمه الى عدوه وقد
عامله سليم الأول في بداية الأمر ببعض الرفق . وأخذ يسأله عن الإدارة
وعن موارد البلاد . فلما أخذ ما أراد ، أمر بشنقه على باب زويلة حيث
علقت جثته أياما . ومع سقوط حكم المماليك الذي بدأ عام ١٢٥٠ م انتهى
استقلال مصر . وانتقلت السيادة الفعلية الى القسطنطينية وأن استمر
المماليك يحكمون البلاد رعايا للسلطان العثماني . ولم تعد القاهرة عاصمة
لامبراطورية اسلامية . فكما خلقت القاهرة بغداد كمقر للخلافة العباسية
التي عليها الدور لتنازل عنها الى القسطنطينية .

(١) هكذا في النص ولعل مسحتها النجوى الذي قتل في معركة مرج دابق في سوريا
ثم خلفه طومان باي .

حكى السلطان سليم فى مصر حتى سبتمبر من عام ١٥١٧ وكان مقيما فى قصره ببناء بجزيرة الروضة . وقد نظم الحكومة الجديدة فى البلاد تاركا لمن خضع لسلطانه من المالك بعض امتيازاتهم القديمة . ثم غادر مصر وبصحبه الخليفة « العباسى الأخير وعدد من الصناع سخرهم فى تجميل القسطنطينية وألف جمل محملين بالذهب والفضة وغير ذلك من مواد ثمينة » .



وقد تقارب النظام الذى وضعه العثمانيون لحكم البلاد مع النظام السابق فى كثير من النقاط . فبعد أن كانت القلعة مقر سلطان ينتخبه المالك ، صارت مقر باشا يعينه السلطان العثماني . وتألفت الحامية العثمانية من خمسة عشرة ألفا الى ثلاثين ألف رجل من انكشارية وعزب (مشاة) وسباهية (خيالة) ولكن ظلت الارستقراطية المملوكية هى القوى المسيطرة على القاهرة . كان عددهم حوالى عشرة آلاف رجل وتلقب أمراؤهم بلقب بك « وقد ألفوا ديوانا قويا فرض سيطرته على الباشا وأحيانا استطاع عزله وأحيانا أخرى كانت الفتن العسكرية تتكفل بهذا الأمر ، وحرص العثمانيون على استمرار تلك الفوضى الادارية حتى لا يستقل الولاة بمقاطعاتهم » .

ولم ينحدر هؤلاء المالك الجدد من المالك القدماء وإن كانوا من نفس الجنس فلقد عمد السلطان سليم الى التخلص من كل من وقع فى يده منهم . لكن هؤلاء الجدد واصلوا سيرة قدامائهم . وعلى اختلاف أجناسهم من أتراك وشركس وجورجيين فقد كانوا يمتلكون كثيرا من الضياع الحسنة فى الريف ودورا جميلة حول بركتى الفيل والأزبكية وشوارع « سوق السلاح » وكان فى خدمتهم جند من المرتزقة وشهدت شوارع القاهرة معاركهم كما كان الأمر فى الماضى وقد انقسم المالك الى فرقتين متنافرتين :

« القاسمية » أو « الحمر » و « الفقارية » أو « البيض » وصار كل حى « حارة » عبارة عن قلعة مسلحة قائمة بذاتها . وبالطبع كانت أكثر المناطق تعرضا لتلك الفتن هى المناطق المجاورة للقلعة ، مقر السلطة التى كثيرا ما تعرضت للحصار من الطامعين فيها . ومن قمة المقطم كان البكوات المالك يقصفون بمدافعهم قصر الباشا أو مآذن الجوامع التى يستخدمها منافسوه كإبراج حربية . وبالرغم من ضراوة تلك المعارك وتعاقبها إلا أنها لم ترق الكثير من الدماء . وكثيرا ما كان الجنود ، وقد

ضاقوا بضالة رواتبهم وقلة مؤنتهم ، يغفرون ولاءهم لمن يعرض عليهم أكثر . ويعمدون الى نهب الأسواق والاتيان بالفظائع من كل نوع وكانوا يمارسون التجارة . فيفرضون أنفسهم على تجمعات التجار ويجبرونهم مع الصناع على استئجار أبناء الجند كشركاء أو كعمال معهم .

وأدى افتقار البلاد الى حاكم قوى وتجزء السلطة واطلاق العنان للغرائز الى الفوضى الشاملة . ومن ثم شهدت العاصمة انتفاضات شعبية ففي عام ١٦٩٥ أخذت جماعات من الشحاذين في قذف الأحجار ثم سرقوا كميات من الحبوب وفي عام ١٧٦٨ أدت مشاجرة بين تاجر من خان الخليلي وأحد المارة اضطراب دام ثمانى أيام تحول خلالها خان الخليلي الى معسكر محصن . ومن جانب آخر دعى الكثير من المتعصبين الناس الى الثورة والتنقيس عن آلهم بمهاجمة المسيحيين والتجار الأجانب . وقد تجرأ البدو أحيانا على مهاجمة العاضمة للنهب والسلب . ففي عام ١٥٥٦ سددت جميع منافذ المدينة حتى اضطرت الناس الى بناء جائط ليقبضهم شرهم . وكما كان الأمر فى الماضى تعرضت البلاد الى فيضانات مدمرة أو الى الجفاف والوباء مما كان يدفع بالكثير من البائسين الى الزحف على العاصمة . ولم يبال أحد من الحكام سواء الباشا أو المماليك بما يعانيه أهل البلاد . بل أن بعضهم كان يعتمد احداث المجاعات حتى يرفع من سعر السلع الغذائية فيبيع ما اختزنه منها بربح فاحش .

وأدى كل هذا الى ارتفاع أعباء المعيشة والازمات النقدية وتوقف الأعمال وإهمال صيانة القنوات والمجارى المائية . وتدهورت التجارة مع الخارج تدهورا كبيرا فى القاهرة بعد أن كانت تلك التجارة مصدرا لثراء المدينة . فتتوقع على نفسها ويأفل نجمها . وبينما كان إيرادها من الزسوم التى تفرضها على التجارة يتضاءل كانت الخرائب فى أنخابها تتزايد . كان كل الخلاف بين النظامين الجديد والقديم للقاهرة هو غياب فترات السلام الذى يفرضه وصول سلطان قوى الى العرش ، وهو ما كان بمنأى عن مقدرة أى باشا ممن عينتهم القسطنطينية لقصر مدة ولايتهم ، وخوفهم المستمر من رؤسهم .



كانت أقوى شخصيتين فى تلك الفترة هما رئيس المماليك أو محافظ القاهرة أو كما كان يدعى « شيخ البلد » (الذى تلقب فى القرن الثامن عشر بلقب باشا) : ثم أمير الحج وكان كلاهما من المماليك ، والى جانبهما صار قائد الحامية العثمانية فى القلعة شخصية شديدة الأهمية .

أما الباشا فكان عليه فقط تنفيذ أوامر السلطان ، فيختار البكوات وحكام الأقاليم وينظم قافلة الحج الى مكة وامداد المدن المقدسة الاسلامية بالمؤن . وكان مقيما في القلعة ويرأس الاحتفالات الهامة في العاصمة مثل العيد الكبير وقطع الخليج لكن مهمته الرئيسية كانت إرسال الجزية الى استانبول (اسلامبول) أما همه الشخصي فكان تنمية ثروته .

والى جانب الباشا ، كان هناك ديوان يتألف من ست قاذة من الفرز العسكرية لجيش الاحتلال واثني عشر من بكوات الماليك .

وقد حاول بعض الباشوات انجاز بعض المشروعات المفيدة لكن قصر مدة ولايتهم أعجزتهم عن تنفيذ المشاريع التي تحتاج الى وقت طويل . ومنهم سنان باشا أول حاكم تركي عينه سليم فقد شيد جامعا في يولاق وسسوقا وخانات ومستودعات عدة للبضائع ومنهم من افتقر الى قوة الشخصية كمويس باشا ، الذي عجز عن فرض ارادته ، فعندما حاول في عام ١٥٨٨ أن يضبط النظام في الفرق المحلية ، تمردت عليه وهاجم المتمردون الديوان ودخلوا الى حريم الباشا ونهبوا كل ماله قيمة ومن بين ذلك ساعة تبين الأيام ، ففر عويس باشا بينما هجم الجند على بيت قاضي العسكر وقتلوا قائد الجاويشية . وحملوا اثنين من القضاة وقطعوا رأسيهما . ثم نهبوا المخازن وبيوت الأمراء الفارين . وأخيرا حملوا أطفال الباشا رهاقن ومنذ ذلك الوقت اضطر الحاكم الى الاستجابة الى أى مطلب للمجند . واستمر هذا التمرد حتى أتى باشا آخر أخمدية .

ومن بين هؤلاء الباشوات من اتسم بالوحشية والسادية ومنهم مسيح باشا وقد عينه السلطان مراد قرب نهاية القرن السادس عشر فقتل عشرة آلاف انسان نعتهم المؤرخ بأنهم من المجرمين الذين كان عددهم قد زاد زيادة كبيرة في عصر الباشوات السابقين .

وكان على باشا (١٦٠٠) يستمتع في كل مرة يخرج فيها الى شوارع القاهرة يتهشيم رؤوس عدد من الأشخاص حتى أن جواده كان يعود في كل مرة الى القلعة ملطخا بالدم .

وكان مصطفى باشا (١٦٢٤) يفحص بانتظام ترككات الاثرياء ، فيصادر ما يريد منها قبل أن يرد الباقي الى الوارثين الشرعيين بيد أن حسن باشا (١٦٣٠) ذهب الى حد أبعد فقد كان يستولى على التركة بأكملها فلا ينيق شيئا للوارثين وعندما كان يرى تجمعا في أحد الطرق ، ينقض بجواده ، ويستل سيفه فيقطع به من يطوله بقصد التفكه . وقد أحصى من مات على يديه بتلك الطريقة فكانوا اثني عشر ألفا .

ولكن لم يكن كل الباشوات على شاكلة هؤلاء الوحوش . فهناك
اسماعيل باشا والى مصر عام ١٦٩٦ لقد أراد أن يحتفل بختان ابنه
ابراهيم الذى بلغ الخامسة عشرة . فدعى الى هذا الحفل كل وجهاء
العاصمة والأقاليم ممن يمكنهم التغيب عن أعمالهم بضعة أيام . وأعلن
فى الناس أنه سيكسو كل من يرغب فى أن يختن مع ابنه كل حسب
قدره .

واستمر الاحتفال عشرة أيام ، قدمت بعروض سليمة فينما كانت
الاستعدادات قائمة لإحتفال كان بمقدور المرء من سكان القاهرة أن يتسلى
بمشاهدة عروض مصارعة بين الحيوانات أو سباق للخيل أو ألعاب تؤدى
بالرماح والبنادق أو يشاهد عروض المهرجين والبهلوانات . وقد مد
أحدهم جبلا طوله أربعمئة قامة (حوالى ٨٠٠ متر) من أحد المآذن الى
سور القلعة وأدهش المشاهدين بحركاته البهلوانية التى أداها وهو على
ارتفاع كبير .

وفى اليوم التالى أعلن عن بدء الاحتفالات بضرب المدافع والطبول ،
فتوجه الوجهاء الى قصر الباشا .

ولم يكن فناء القلعة يتسع لأكثر من ألفى جواد ، لذا اضطر معظم
المدعوون الى ترك خيولهم فى الأبنية السفلية لضيق المكان وكثرة
عددهم . وكانت سروج الخيل مرصعة بالأحجار الكريمة ومكسوة بالقماش
المطرز الذى يتسدل حتى الأرض .

وفى وسط الفناء نصبت خيمتين وسط جموع الخيل أحدهما
خصصت للراقصات وعازفى الآلات التوترية ، والثانية خصصت لقضاربى
الدقوف والطبول وعازفى آلات النفخ وعند قدوم أحد البكوات أو عند
ختان أحد الأطفال تدق الموسيقى لتنبيه المدعوين الى هذا الحدث الهام .

وتسلم كل واحد من أهل بيت الباشا البالغ سبعمائة أو ثمانمائة
فرد ثوبين من الستان الانجليزى من ألوان مختلفة ، وثوب من قماش
انجليزى ومعه سروال وآخر من فروة الثعلب المسكوفى . وكان أقل عبد
يرتدى ثيابا حسنة وعمامة من الموسلين طرز طرفها بالذهب مسافة أربع
أصابع ولفت حوله طاقة من المخمل أو من قماش انجليزى . أما ابراهيم
بك ابن الباشا فقد استبدل ملاپسه الفاخرة ثلاث مرات أو أربع .

وفى الليل أثار المدينة مائة ألف مصباح ، كانوا يؤلفون أشكالا
متنوعة كل يوم ، منها كتابة علقت على نخلة تقول « أننى لا أنمو الا
بأختان » وهو إشارة الى عملية التقليم السنوية لهذه الشجرة .

وقد أعد لطعام البكوات ثلاثمائة طبق في كل يوم وللباشا ومدعويه
سبعمائة طبق وللخدم ثلاثة آلاف . وكان ما يفيض من طعام يفرق على
الناس ، فبعد أن تناول أربعة آلاف شخص طعامهم في القصر أطمع عشرة
آلاف فقير في مختلف الأحياء .

وقد ختن في الصباح خمسمائة صبي تسلم كل منهم حسبما كان
قد أعلن ثوبا وسكان بندقي Neguin وقد طهر ابراهيم بعدهم
جميعا . ثم خرج في موكب من القلعة حتى جامع قديم بين مصر عتيقة
والقاهرة هو جامع ابن طولون وكان يتقدمه اثنا عشر تابعا يلبسون
ثيابا مطرزة بالذهب ويركبون خيولا بيضاء . وكان الذهب يبدى بين
الجموع ، وفرش الطريق بالأزهار وكان سرور الناس في ذلك اليوم
فاتقا حتى لم تبق امرأة في بيتها . ويعقب على ذلك المؤرخ (الجبرتي)
الذي يروى لنا تلك الحادثة بأن الكثيرات منهن انتهنرن الفرصة ليخترن
بيوتا أفضل .

وابتهاجا بهذه المناسبة صدر عفو عن المسجونين ، ودفع الباشا
ديون المسرين بيد أن أهل القاهرة قد دهشوا لرفض الباشا قبول الهدايا
المعتاد تقديمها والتي بلغت قيمتها ثلاثمائة كيس (الكيس خمسمائة قرش
عثماني) ولم يقبل سوى هدية قنصل فرنسا وهي مرآة مثمنة مغطاة
بالذهب والأحجار الكريمة .



كانت الغالبية الساحقة من البكوات المماليك أخطا من المفاشرين
ومن أناس انصرفوا إلى ملذاتهم . وبالرغم من هذا سنشير إلى بعض من
رجالاتهم المشهورين . ومنهم عثمان بك ذو الفقار الذي تقلد إمارة الحج
عام ١٧٢٩ وكان أول من دعى باشا إلى حفل في بيته ، ويقول عنه لين
بول أنه كان يرأس محكمة في بيته تنظر في الشكاوى المقدمة إليه .
ولما كان رجلا نزيها فقد عاقب بشدة كل من نسب إلى اليهم أعمال السلب
أو الاضطهاد كما أشرف بعناية على مراقبي الأسواق (المحتسبين) .
وبالرغم من نزاهته وعدالته إلا أنه اتسم بالغرور . وقد خلف انطباعا
عميقا لدى معاصريه حتى أنهم ، بعد أن اضطرتهم مؤامرات أعدائه إلى
مغادرة البلاد ، كانوا يؤرخون الأحداث لعنده فيقولوا مثلا :

حدثت الحادثة القلانية بعد كذا من السنين من مغادرة عثمان بك
أو كان عمري كذا عند رحيل عثمان بك .

كان الكنتخدا (١) (يقابل وزير الداخلية الحالى) رضوان الجلفى
أحد رجالات القرن الثامن عشر المرموقين • فتحت حكمة تمتعت القاهرة
بامتقرار كامل ، اذ انخفضت أسعار المأكولات وعم الرخاء • وقد شيد
مترا عند الأزبكية وصفها الجبرتي قائلا : « وهى التى على بابها العامودان
الملتفان المعروفة عند أولاد البلد بثلاثة ولبه وعقد على مجالسها العالية
قبابا عجيبا الصنعة منقوشة بالذهب المحلول واللازورد والزجاج الملون
والألوان المفرحة والصنائع الدقيقة • ووسع قطعة الخليج بظاهرة قناطر
الدكة بحيث جعلها بركة عظيمة وبنى عليها قصرا مطلا عليها وعلى الخليج
الناصرى من الجهة الأخرى • وكذلك أنشأ فى صدر البركة مجلسا خارجا
بعضه على عدة قناطر لطيفة وبعضه داخل الفيض المعروف باسم غيط
العديّة • وبواسطة بحيرة تمتلئ بالماء من أعلى وينصب منها الى حوض من
أسفل ويجرى الى البستان لسقى الأشجار ، وبنى قصرا آخر بداخل
البستان مطلا على الخليج وعلى الأملاق (٢) من ظاهره فكان ينتقل فى
تلك القصور وخصوصا فى أيام النيل، ويتجأه بالمعاصى والراح والوجوه
وتبرج النساء ومخاليع أولاد البلد وخرجوا عن الحد فى تلك الأيام ومنع
اصحاب الشرطة من التعرض للناس فى الأغليهم فكانت مصر فى تلك
الأيام مراع غزلان ورواطن حور ولدان كأنها أهلها خلصوا من الحساب
ورفع عنهم التكليف والخطاب ، وهو الذى عمر باب القلعة الذى بالرميلة
المعروف بباب العزب وعمل حوله هاتين البنتين (برجين) العظمتين
والزلاقة (احجور) على هذه الصورة الموجودة الآن •

وقد نظم فى مدحه الشاعر قاسم قصيدة يقول فيها متحدئا عن
الخير :

أكرم بينت الكرم والموالى • • من الهموم غرسها ذوالى
لله ما أبهى وما أسناها • • فى كاسها كالشمس فى مرآها
يسعى بها البدر وقد إدناها • • من شفتيه اللبس ما أحلاها

إذا ما مزجت من ديقه بالشهد

كانت نهاية رضوان بك مأساوية ، فقد أحاط بمنزله المتآمرون
وقصفوه بالمدافع بينما كان المزين يحلق له شعره • فأخذ يقاتل قدر
استطاعته حتى كسرت ساقه فتحامل حتى امتطى جواده ، وانطلق به
هاربا الى الصعيد حيث مات •

(١) نائب الباشا •

(٢) للزادع •

ويحدثنا الجبرتي عن أحد بيوتات القاهرة في هذا العهد وهو بيت
أحمد الشرايبي فيقول :

« كان من أعيان التجار وبيتهم المشهور بالأزبكية بيت المجد والفخار
والعز • ومماليكهم وأولاد مماليكهم من أعيان مصر جرجية (١) وأمرأ
ومنهم يوسف بك الشرايبي وكانوا في غاية من الفنى والرفاهية والنظام
ومكارم الأخلاق والاحسان للخاص وللعام ويتردد إلى منزلهم العلماء
والفضلاء ومجالسهم مشعونة بكتب العلم النفيسة للاعادة والتفكير وانتفاع
الطلبة ولا يكتبون عليها وقفية ولا يدخلونها في موارثهم • ويرغبون
فيها ويشترونها بأغل ثمن • ويضعونها على الرفوف والخزائن والحدودقات
وفي مجالسهم جميعا فكل من دخل بيتهم من أهل العلم إلى أى مكان
بقصد الاعادة أو المراجعة • وجد بغيته ومطلوبه في أى علم كان من العلوم
ولو لم يكن الطالب معروفا ولا يمتعون من يأخذ الكتاب بتمانه فان رده
في مكانه رده وان لم يرده واخص به أو باعه لا يستل عنه وربما بيع
الكتاب عليهم واشتروه مرارا يعتلون عن الجاني بضرورة الاحتياج » •

وقد التزم أفراد تلك العائلة في مشاعرهم العاطفية وطموحاتهم
المادية والعادات التي تحكم حياتهم المائلية بقواعد سلوكية أملتأ عليهم
أخلاقياتهم مما زادت في مكانتهم في المجتمع وشابهت بينهم وبين بعض
العائلات الأوروبية العريقة • ولم يكن المصرى يسأل كثيرا بأصل عروسه
على عكس أفراد تلك العائلة الذين كانوا لا يتزوجون الا فيما بينهم •

وكانت لهم طريقة خاصة في ادارة ثرواتهم • فيقوم واحد منهم
بادارة جميع ممتلكاتهم فكان يجمع الايرادات والأرباح ثم يوزع على كل
فرد نصيبه منها •

« ويلقى الاحترام الكبير لهذه العائلة بالكتب شواهد على مستوى
الحياة العقلية لتلك الفترة • ففي بداية العصر المملوكى تكونت في
القاهرة مكتبات أتى بعضها من الكتب التي نهبت من مساجد سوريا •
ولقد كان هناك اقبال على الأنشطة الثقافية وان لم تكن تلك على مستوى
رفيع • ويروى لنا الجبرتي محادثة في عام ١٧٥٠ وقعت بين باشا
القاهرة المولع بالرياضيات والشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الأزهر •
ولقد قال له الباشا انه طالما سمع ان القاهرة هى وطن المعرفة وطلب أن
يرى شئ من هذا •

(١) دبة عسكرية في الجيش العثماني •

وقد اعترف الشيخ بأن الرياضيات لا تدرس في الأزهر إلا ما يتعلق منها بحساب الوارث . ثم سأل الباشا عن الفلك قائلا : « وماذا عن علم الفلك انه يلزم لساعات الصلاة والصوم وأشياء أخرى كثيرة » فصارحه الشيخ بأن قليل من الناس من يهتم بدراسته لأنه يتطلب قابليات خاصة وآلات وحالات نفسية خاصة ومزاج رقيق وهادئ . ثم أخبره أن يوسعه أن يجد مثل هذا الرجل ، ولكن ليس بالأزهر . وعندما ظهر هذا سر الباشا بعلمه فأهداه ثوبا باعه بثمانمائة دينار . وعمل مزاوول من الرخام تبين مواقيت الصلاة ووضع اثنان منها على سطح الأزهر وجامع الامام الشافعي .

« ويبدو ان تلك العلوم لم تكن تتعلمى السطحيات » (لين . بول)
ولقد لعب الدين في هذا العصر دورا هاما في حياة القاهرة فقد شهدت المدينة ثورة عارمة عقب موعظة ألقاها فقيه تركي حاجم فيها التوسل بالأولياء وهي عادة درج عليها الناس وان لم تكن من الاسلام في شيء . ولم تكن تهدئه الناس بالأمر السهل .

وكان لشيخ الأزهر مرتبة كبيرة وقد منع الناس من التدخين علنا ذات مرة فكان رجال الشرطة يعاقبون من يضبطونه مخالفا .

وتدل كثرة الجوامع التي شيدت في هذا العصر مثل السيدة صبية (١٦٠٤) ومحمد أبو الذهب (١٧٧٤) والبردين (١٧٩٠) على العاطفة الدينية المتأججة وقد أخذ الطراز المعماري يتباعد تدريجيا عن طراز المدرسة ليرجع الى طراز الجامع الذي كان سائدا في القاهرة قبل عصر صلاح الدين ولم يعم هذا ان الفنان قد حاكى القدماء محاكاة تامة ، فلقد تأثر بالمعمار التركي الذي كانت جوامعه الأولى كنائس ولذا تحل القباب محل السقوف المسطحة ويستخدم القيشاني في الزخرفة مثلما نرى في جامع ابي سنقر ، الذي جدد في عام ١٦٥٢ وغطى حائط القبيل بأكمله بالقيشاني الأزرق .

وكان أهم المولعين بالمعمارة في هذا العصر هو عبد الرحمن كنتخدا الذي عاش في منتصف القرن الثامن عشر . وقد بنى أبوه عثمان كنتخدا جامعا ومدرسة وسبيل بالقرب من بركة الأزيكية ، ومدرسة للعميان في الأزهر ومؤسسات خيرية أخرى غير ان الابن فاق أباه ففى طرف بين القصرين بنى سبيلا وخارج « باب الفتوح » شيد جامعا وآخر عند باب

الغريب (١) ملحق به حوض وسبيل ومدرسة • وبالقرب من جبانة الأزيكية شيد مدرسة وسبيل لتزويد السقائين بالماء • وأعاد بناء مشهدى السيدة زينب والسيدة سكيئة وشيد جوامع أخرى • بالقرب من باب القرافة وفى « الموسكى » وحى « الحسين » وشارع « عابدين » • لكن أهم منشآته كانت فى جامع الأزهر • فقد أقام بيتا للصلاة يرتكز على خمسين عمودا وبه محراب جديد وبنى مئذنة ، ووسع المدرسة الطيوسية ووزع على طلاب الأزهر كميات كبيرة من الزيت والأرز والزبد فى شهر رمضان (لين - بول) •

ويبدو ان عبدالرحمن كتحدا كان قد جمع ثروته بطرق غير محدودة ، مما دعاه الى صرفها فى أوجه البر حتى يريح ضميره ، فنراه يقدم للشحاذين العريان وللمؤذنين أردية صوفية تقبهم برد الشتاء •

ومن بين ما ربح عبد الرحمن كتحدا جامع الامام الشافعى وضريح « السيدة نفيسة » • ومارستان قلاوون • ويحصى « لين بول » ما شيدته أو رمه من جوامع فيجدهم ثمانى عشر غير عدد كبير من المنشآت الأقل أهمية • لقد كان يعمل بصدق من أجل رفاهية الأجيال القادمة • لكنه مات فى الجزيرة العربية سنة ١٧٧٦ بعد أن نفاه على بك ودفن جثمانه فى جامع الأزهر بالقرب من بوابته الجنوبية •

ويعتبر جامع محمد بك أبو الذهب (١٧٧٤) آخر الجوامع الهامة التى بنيت فى تلك الفترة • وقد سمي محمد بك بهذا الاسم لعاده بدر الذهب فى الجموع أثناء سيره وقد تمتع بشعبية كبيرة بسبب بشاشته وكرمه وتمتع بمهابة كبيرة فى مصر • وقد عينه السلطان واليا لمصر مدنى الحياة تاركاً فى يده كل السلطة الحقيقية فى البلاد • وفى عام ١٧٧٤ أقام مدرسته فى مواجهة الجامع الأزهر ، وفيها دفن مع ابنته •



وان لم يكن فى العصر العثمانى مساجد كثيرة فى مصر الا أن ولاية الأمور لم يقصروا فى رعاية القائم منها • وان لم تكن مرمتها دائما على النحو الأمثل ، بل للاضمحلال فى عصر محمد على الذى انتزع جانباً من أوقافها التى خصصت للانفاق عليها • وانتزع من أيدي العلماء (رجال الدين) حق ادارة تلك المنشآت على الرغم من لعنتهم التى انصبت عليه • وقد دمرت كثير من الحجج التى تذكر أوقاف تلك المنشآت مما

(١) باب من أبواب الأزهر

يسر نزعها وبالتالي اجمال الجوامع نظرا لقلة المال فتعرض الكثير منها للخراب .

وبالمثل حاول محمد على أن يضيف على قاهرته مسحة أوروبية . فشق طرقا واسعة وأقام منشآت على حساب الكثير من الآثار الاسلامية الهامة .



زار مصر العثمانية الكثير من الرحالة الأوربيون وعقولهم مشحونة بصور الحياة المستمدة من قصص ألف ليلة وليلة بيد أن قاهرة ذلك العصر خيبت ظنونهم . فحقا أطربهم جو الحياة لكنه لم يعد يأخذ بالبابهم . فهم لا يظهرون إعجابا بالمدينة وإن اجتذبتهم سحر الحياة الشرقية فقد انقشع عن المدينة البهاء والجلال اللذان طالما طالما عين الأوربي فلم تعد تثير في نفسه الإعجاب بصورة جديدة للحياة الطريفة

وحتى يعطوا فكرة عن مساحة المدينة ، كانوا يقارنونها بمدن أوروبية لكن معظم تقديراتهم لا تتطابق فيصفها جرفن افاجار Grevin Affagart في القرن ١٦ بأنها تماثل مساحة باريس ثلاث مرات . وفي القرن السابع عشر يقول ديلا فله Della Valle انها تفوق القسطنطينية وروما . وأعتقد كوبن Coppin انها أصغر من باريس وأقل سكانا لكن تفنو Thévenot رأى العكس أما في القرن الثامن عشر فاعتقد كل من جرانجه Granger وماسكريه Mascrier انها تماثل باريس في مساحتها .

وقدر فوستير Foster محيط القاهرة في القرن السادس عشر بثلاثة وثلاثين كيلو متر . زادها بوفو Beavau في القرن التالي الى ستة وخمسين كيلو متر . أما فرمنل Fermanel فيرى انها ستة وثلاثون كيلو متر . وقد قدر جرانجه بوكوك Pococke في القرن الثامن عشر محيط قلب المدينة بأربعة عشر كيلو متر . وقال لوبرين Le Bruyn وبريس Bruce ان المرء يحتاج الى ثلاث ساعات ليحيط بالقاهرة .

ومما سبق يتضح لنا صعوبة استنتاج ابعاد دقيقة للمدينة في هذا العصر . فقد جعل ضيق شوارعها المنازل تبدو على وأدى افتقار المدينة للطرق الواسعة الرئيسية الى اضعاف طابع الازدحام على الطرقات الضيقة في المناطق المزدحمة . وقد تناثرت في أرجاء المدينة حدائق

وخرائب جعلت القاهرة تبدو أكبر مما هي عليه في الحقيقة . وكان يوجد في قلب المدينة نفسها جبانة أهمها جبانة الأزبكية التي استمرت حتى القرن التاسع عشر وكانت تشغل أرضا واسعة . وأدى اتصال البرك الى اتساع مسطحاتها مع قلة عمقها . وبهذا عادت القاهرة الى نظام التبعثر السكاني الذي كان عليه سكانها الأوائل من العرب . فبين الحدائق أو الخرائب أو اجسام التخييل كان المرء يرى مجموعات من « الأحواش » وهي عبارة عن أفنية مسورة تنهض على خرائب أبنية عتيقة أو شارع قديم ويتجمع فيها الناس مع حيواناتهم وينام فيها الفقراء في أكواخ حقيرة تجاور ورش تقوم صناعتها على المواد الحيوانية كالجلود ويتناثر في أرجائها الروث الذي يجف تحت حرارة الشمس . وتدرجيا أخذت نسبة السكان للأرض تتضائل ويقدر علماء الحملة الفرنسية مساحة الأرض المسكونة في القاهرة فعليا بالإضافة الى مصر القديمة وبولاك بما لا يزيد عن ثمانى هكتارات أو ربع مساحة باريس في ذلك الوقت .

وكان هذا العصر نهاية الازدهار المعماري الذي شهدته العصور السابقة فلم تكن الأبنية الجميلة مثل « سبيل خسرو باشا » و « منزل جمال الدين » وبعض من المساجد الا استثناءات قليلة أما أكثرية منشآت هذا العصر فقد اقتضت الى سلامة اللوق والأناقة .



ظلت بولاك ميناءا عامرا للقاهرة يقصده المسافرون وكان يضم في نهاية القرن الثامن عشر من ثلاثة الى أربع آلاف منزل وعشرين ألف من السكان وتزاحمت فيه الوكالات والشون والمطاعم والحمامات والأسواق والفيلات فضلا عن الجبانة . وأدى تكوين جزيرة الزمالك الى سهولة عبور النيل في تلك البقعة عنه في الروضة وصار بإمكان فلاحي إمبابية الوصول بسهولة الى قلب المدينة .

وترامت حول بولاك حقول كانت مياه الفيضان تغمرها كل عام . وكان يربطها بالعاصمة طريقان أحدهما يؤدي الى باب الحديد والآخر الى الأزبكية يبلغ طولهما حوالي كيلو متر ونصف وتحف بهما حوانيت ومنازل .

فإذا ما سار امرؤ في أحدهما ألقى نفسه في أحد ضواحي المدينة بعد أن يعبر القناة الغربية فإذا ما مر من أحد الأبواب وجد نفسه في الحي الأفرنجي الواقع بين الخليج والأزبكية . وقد تجمع الأوروبيون حول منزل قنصل فرنسا خوفا مما قد ينشب من اضطرابات . الموسكى هو

الشارع الرئيسي • وقد سمي على اسم أحد أقرباء صلاح الدين « عزيز الدين موسك » ويقطن الفرنسيون مجموعة منازل متجاورة على الخليج تؤلف حيا يعرف باسم حي (الأمة الفرنسية) • وكان من أجل أحياء القاهرة موقعا وأسوأها في نفس الوقت بسبب الرائحة الفظيعة التي تنبعث من قناة الخليج التي تنضب في الشتاء •

في عام ١٦٣٨ كتب كوبن Coppin ان منازل الشارع جميلة وأجملها على الإطلاق هو منزل قنصل فرنسا ، فمدخله مثل مدخل الفنادق ، ويوجد عند البوابة الامامية مكان معد لجلوس الانكشارية السنة الموجودون دائما في هذا المكان والذي يدفع لهم ستة قروش في الشهر (١) وهو (القنصل) يستخدم اثنان أو ثلاث من الانكشارية لحراسته •

ووصف لنا ليرونكور Livoncourt بيت القنصل في عام ١٧٤٨ قائلا :

« يفترق المسكن الذي أقطنه الى الراحة فضلا عن سوء موقعه لكن أسوأ المنقصات يتمثل في رائحة القناة (الخليج) التي تخترق القاهرة التي لا تمتلئ بالماء الا أثناء ارتفاع مياه النيل من ١٥ أغسطس حتى نهاية أكتوبر • أما باقى العام فهي مستنقع يسبب ما حوله ولا أنهم لما اختار الفرنسيون حينما استقروا هنا منطقة يمثل هذا السوء • وتطلى رائحة ذلك المستنقع يريق الزخارف الملهبة تماما وبدون رجاء في اصلاحها • وأكثر المنازل تائرا بتلك الأضرار هو منزل القنصل المشيد على حافة المجرى والذي تطلل الكثير من نوافله عليه » •

ولم تعد فائدة تلك القناة (الخايج) شبه الجافة بيع طميتها كسماد للحدائق •



كانت هيئة بركة الأزيكية تتغير على مدار السنة مثل معظم البرك ، ففي الشتاء تتحول الى مرعى أخضر عامر بالأعشاب ثم الى حقل أجذب مثرى في الربيع فما أن يأتي الفيضان حتى تمتلئ بالماء وتعود بركة كبيرة تحف بها قصور الممالك البديعة وتنزلق على سطحها القوارب من كل لون عند الأعياد •

(١) قرش عثمان وهو يساوى خيسين نصف فضة وكان رطل اللحم البقرى الخلف من المظلم يساوى نصف فضة أو ثلاث في هذا الوقت وتنتظر البكر يالغب نصف بوقس على ذلك •

وفى قلب المدينة توجد حارة اليهود بطرقاتها الضيقة القنطرة
ومبانيها العالية وكانت تضم عدد من المآبىد (سيناجوج) وبيت الحاخام
الأكبر .

وكثيرا ما تعرض الحى الواقع حول باب الفتوح وباب النصر وجامع
الحاكم الى مياه السيول المنحدرة من جبل المقطم .

واحتفظت منطقة بين القصرين بأهميتها كمركز للمعاملات التجارية
حيث تجمعت فيها الأسواق الرئيسية التى أخذت فى التدهور وقد ألف
التجار فى النهاية أمر المصارك التى تشب بين الممالك من آن لآخر
وعمليات النهب التى كانت حوائثهم تتعرض لها . وكثيرا ما عمد هؤلاء
التجار فى أوقات الاضطرابات الى أن يناموا فى حوائثهم بدلا من أن
يعودوا الى منازلهم .

اما الحى الواقع خارج باب زويلة بين باب اللوق والقلعة فكان
مسرحا للاضطرابات فهجره التجار تقريبا وتبعثرت فى أرجائه أطلال
المنازل المهجورة وضاعف حريق شب فى عام ١٦٥٤ فى زيادة خرابه .

بيد أن حى باب اللوق كان أحد المناطق النادرة التى انتعشت
تحت الحكم العثماني كانت تحده فى الشمال عدد من البرك وفى الجنوب
جبانة وينتهى فى الشرق بحداثق واتخذ فيه أبواب اللهو منازلهم
ومشاربهم سيئة السمعة حول قصر الأمير يشيك . وهناك تعود الناس
أن يتجمعوا فى ميدان فسيفس لرؤية الحواة ومدبرى الحيوانات .

والى الجنوب امتد حى السيدة زينب من الخليج حتى بركة الفيل
فى الشرق وقد صار هذا الحى أحد أكثر أحياء القاهرة ازدهاما فى
المنطقة الواقعة بين القلعة وبركة الفيل تقام حى ابن طولون الذى امتدت
مساكنه حول الجامع الشهير القائم على ربوة يشكر .

وعلى منحدرات تلك الربوة بنى السكان بيوتهم . وعانوا ممن
انحدروا من أصل تركى أو من الممالك القديمة وغلب عليهم الفقر وروح
التمرد كما اتسموا بالتعصب الدينى . وقد زحف العامة على كل تلك
المنطقة وبالمثل على المنطقة المجاورة للقلعة .

أما القلعة فجمعت على شرفها الصخرى مباهية بعزلتها وقد سكنها
الباشا مع جنده الانكشارية « العزب » ولما كانت إقامة هؤلاء فى مصر
قصيرة فقد أهملت وتداعى الكثير من منشأتها . لكنها لم تفقد أثار عزاها

السابق . تماما ويصفها لنا بـ بربلون دى من Pierre Belon du Mans
يكسو الرخام جدرانها بارتفاع قامة رجل حول بواباتها ونواخذها .

وأصاب الاضطحلال « القرافة » مدينة الموتى لقلّة النشاط بها « اذا
جاز لنا استخدام هذا التعبير » . فعلى سبيل المثال صارت المنطقة الملاصقة
لجامع قايتباى قرية بائسة تتألف من أضرحة خربة وبيوت مهجورة .

وتقلص حتى مصر القديمة . وتركزت الحياة فيه حول نواته القديمة
جامع عمرو وقصر الشمع . وكان الأخير اثني عشر كنيسة وديرا أقام
حولها مائتى أو ثلاثمائة مسيحي ييوتهم .

وكان لجامع عمرو شهرة بسبب قدمه فأقيمت حوله الحمامات
ومنازل لسكنى الحجاج واصطبلات أما الجزء الملاصق للنيل من هذا
الحي فقامت به قصور وفيلات للمتعة . وقد آلت باقى أجزاء هذا الحي
الى خراب تام . وعلى الضفة المقابلة للنهر تابعت الجيزة وجودها الهادى
دون تغير هام .



يمكن أن نتلمس صورة للحياة فى القاهرة العثمانية من روايات
الرحالة العديدة ، فليقد وصف بلون دى مان Belon du mans
منازلها فى عام ١٥٤٧ بأنها ذات أسطح مستوية تتألف من طابقين
وأبوابها منخفضة حتى لا يمكن لحصان أن يجوزها . وهى حيلة اتخذها
المصريون كي يتجنبوا استضافة الخيالة الأتراك . ووصف لنا أقفال
أبوابها الخشبية كما شكى من مضايقات ذباب صغير يعرض فى فرنسا
Cousins ب . تشتت مضايقاته فى الليل على الأخص .

ويقول بريان Bruyn فى عام ١٦٨١ ان المرء لا يكاد يجد شارعاً
جيذا ومعظم شوارع المدينة ليست الا طرقات ضيقة شديدة الالتواء .
ثم ينتقل الى وصف بعض المنازل والطرق المستخدمة فى التقلب على
حرارة الجو فيقول : « ان وجهاء القوم يستخدمون طريقة لتلطيف حرارة
الجو فهم يشيدون على أسطح منازلهم قباباً تغطى قاعات ويفتح فى القبة
بداخلها نوافذ . ويلطف الهواء الخارج من تلك النوافذ تلك القاعات فيمكن
للمرء أن يجلس فيها عند اشتداد الحرارة ودونما أن يشعر بأذى ضيق .
وكانت هناك طريقة أخرى تتمثل فى إقامة مسقط صناعى للماء فى داخل
المنزل . . ويسقط الماء على لوح رخامى كبير فيغطى سطحه ثم يوضع
سرير فى وسطه .

وقد أدهش الرحالة جونا Jauna (١٧٨٥) عمق الهرة التي تفصل بين الأغنياء والفقراء . فلم تكن هناك طبقة وسطى . « إما أن يكون المرء كبيرا أو صغيرا ، غنيا أو فقيرا ، عظيما أو حقيرا » . لكنه لم يلاحظ أى علامة من علامات التفرع بين المصريين فهم متفقون ان حظهم من الدنيا مقدر . فمن الحق الشكوى من الحاضر أو الخوف مما يخبره المستقبل الذى لا يمكن تجنبه سسواء مر كان أم حلو . ويسخر منهم قائلا : « انهم لا يرهقون أنفسهم بالتفكير » . وقد أشار بلون الى خفة روح القاهريين فهم على حد قوله أكثر من عرفهم من الناس حبا للمرح وهم على استعداد دائما للرقص والاتيان بحركات غريبة .

وإذا كان معظم أهل القاهرة يتمتعون بالصحة الا أن عدد المرضى مع ذلك كان كبيرا . فقد عدد أمراضها بير دافيتى Pierre Davity مؤلف كتاب « وصف عام لأفريقيا » والذى زارها فى عام ١٦٦٠ وقد قال ، « ان القاهريون كانوا يتعرضون للاصابة بالزلات الشعبية والفتاق والحمى فى شهرى ابريل ومايو لأن فى هذين الشهرين تهب رياح تجلب معها الحميات الوبائية . . والوباء الذى كما ذكر دافيتى ، يعود كل سبع سنوات ويقتل أحيانا عشرين ألف نسمة فى أربع وعشرين ساعة » . ويذكر أيضا مرض العيون الذى عانى منه ثلث عدد السكان وقد أرجعه الى التهامهم للفاكهة وشربهم الماء (!) والى التراب وارتداء العمائم (!) . وطبقا لذلك كانت تلك العمائم الثقيلة تسبب العرق الذى يؤلم ويهيج العين .

ويقول جـوانا Jauna ان المصرى فى العادة يتزوج من بنى جنسه ، أما الأتراك فيفضلون نساء الشمال من الموسكوفيات والالانيات والجورجيات . اللاتي يتمتعن بأجمل دم فى العالم »

وأحيانا يفضلون الحبشيات . فصحيح ان بشرتهم داكنة الى حد ما ، لكن ملامحهم تتسم بالجمال وكذلك أجسامهن ومما يميز الحبشيات عن غيرهن من النساء « ان أجسامهم رطبة حتى فى أكثر اوقات السنة حرارة » .

وتدخن كل النساء الفليون وكما يؤكد البعض فانهن يكن أكثر سحرا اذا دخن وبراهن المرء أحيانا يدخن الفليون فى التوافذ ولا يسمح الا للامهات بممارسة تلك العادة .

وينسب جوانا الى ماء النيل خصوبة نساء مصر اذا شربن أو

يستحمن فيه وقت الفيضان وطبقا له فان هذا يفسر لماذا يحملن في شهرى يوليو وأغسطس ويلدن فى شهرى ابريل ومايو •

ويبدو ان السهم كان يلعب دورا هاما فى حياة قاهرى هذا الزمان • ويروى لنا جوابا ان أحد الباشوات لم يذكر اسمه كان يحكم القاهرة فى عام ١٦٩٢ ، وأراد أن يتخلص من أحد البكوات فأمر باحضار فنجانا من القهوة وكان مسموما • وفى نفس الوقت قدم أحد الخدم شكاية للباشا ، وكان هذا مبيتا من قبل • وبصفة انهماكه فى فحص الشكاية وبالتالي عجزه عن شرب القهوة ، فقدمها للبك « وكان هذا يعد أكبر شرفه يمكن أن يناله انسان فى تلك البلاد » ومات البك فى نفس ذلك اليوم •



كانت شوارع القاهرة تقدم الكثير من المشاهد الطريفة • مثل عروض الغورى • اللاتى كن يرقصن على ايقاع الصاجات - رقصات تعتمد على هز الجزع والصدر والأرداف • وكن يعرضن رقصاتهن فى الطرقات أو على أبواب البيوت • وكانت ملابسهن تشبه ملابس نساء الطبقة الوسطى وإن كن فى الغالب يسرقن فى ارتداء الحلى • وتحلوه عيونهن بالكحل وتلون كعوفهن وأقدنهم بالحناء • وكن يرقصن على أنغام ربك يدق أوتاره موسيقى فى صحبتهن • وأحيانا كن يؤدين عروض خاصة فى المنازل لكنهن لم يكن يستقبلن فى المنازل الفاخرة •

وكان الحواة كثرة فى القاهرة وكانوا يعرضون ألعابهم فى الميادين العامة برفقة غلامين وعدد من المساعدين ويتعلق حولهم المشاهدون • ويخرج الواحد منهم عددا من الثعابين من جراب جلدى يضع واحدا منها على الأرض ويجبره على أن يرفع رأسه وجزء من جسمه • ويلف الثانى حول رأس أحد الغلمان كممامة • ويأخذ أحد الحواة ثعبانين ويضعهما حول عنقه ، مثل القلادة ، وقد يعمد الحواى الى فتح قفل ثم يضعه فى فم أحد مساعديه ويفلقه فجأة ، فيعطى انطباعا أن قوسه المعدنى يخترق وجنه المساعد ثم يتظاهر بأنه يخرق عنق مساعده بسيخ حديدى • وفى الواقع ان قمة السيخ تنزلق فى تجويف داخل بدن السيخ • ثم يخرج من فمه مجموعة من المناديل الحريرية من مختلف الألوان ثم ينفث اللهب من فمه ويخرج من أذنيه قطعا نقدية ومن وقت لآخر ينفخ فى صدفه حتى يخرج صوتا يشبه صوت النفير كى يجذب اليه الجمهور • أو قد يقيد قدميه ويديه ثم يوضع فى جراب ويصرخ طالبا قرشا • فيجيبه أحد مساعديه بأنه لن يعطيه له الا اذا مد له يده • فيخرج من الجراب إحدى يديه •

وكان المرء يرى أيضا في الطرقات « العجر » وكن يسرن سافرات الوجوه ويحملن الأدوات اللاتي يحتجتها لكشف الغيب . وكانت تتألف من مقطف مملوء بالأصداف وقطعة زجاج ملون وعملة معدنية وغير ذلك . وتفرض كل تلك الأشياء على الأرض . ويمكنها أن تقرأ طالع عييلها من موقع هذه الأشياء بالنسبة الى واحدة كبيرة تمثل الصميل . وتحذنه بما ينتظره في المستقبل من أحداث حسنة أو غير حسنة . وتمارس العجريات أيضا صناعة الوشم . فهي يزين جبهاتها أو ذقون النساء أو كفوحن أو صدورهن برسوم مختلفة . تتم بثقب الجلد بخزعة من سبع ابر ثم تضخغ الثقوب بخليط من السناج المذاب في لبن امرأة . وبعد مرور اسبوع يدلك الوشم بعجينة من أوراق البنجر أو البرسيم . ثم يلون الرسم باللون الأخضر أو الأزرق .



عانت التجارة من تحكم الباشوات وتسلبهم الذي أثقل البلاد . فلم يعد الهنود الذين اعتادوا المجيء في الماضي بمتاجرهم يشقون على أنفسهم بالمجيء خوفا من أن تصادر متاجرهم وأن يسموا هم أنفسهم كسا كان يحدث أحيانا عندما كان يريد الباشا أن يخفى معالم جريمته تماما .

كان بالقاهرة تسع مجازر عرفت باسم « مجازر السلطان » .

لأن رأس وجلد كل حيوان كان يذبح فيها عدا الماعز كان من حق السلطان ويملق هنا Jauna قائلا : « أن وزرائه (السلطان) يعرفون كيف يصنعون منها مبالغ كبيرة من الفضة تذهب الى خزائهم » .

ولم يكن التجار الأجانب رغم الامتيازات الأجنبية أسعد حالا من اخوانهم المصريين كان عليهم من حين لآخر أن يتحملوا غرامة وهو مبلغ من الفضة يحده الباشا ويطلبه من التجار الأوروبيين منتحلا أعذارا كثيرة كثيرا ما تكون غير منطقية أو لا فائدة منها . فكانوا يلجأون الى الجندال فإذا لم يكن للباشا سند في استنبول يلجأ القنصل الى تهديده ببلاغ شكواه الى السلطان بحجة انه يخرق معاهدة الامتيازات الأجنبية . فيتفاوض معه الباشا . وكثيرا ما كانت قيمة الغرامة تخفض . فإذا كان للباشا من يحميه في استنبول فقد يتخذ الباشا من احتجاج القنصل ذريعة لفرض غرامة أخرى أعلى قيمة .

وكثيرا ما تأثرت أعمال التجار الأوروبيين بالمنازعات التي كانت تنشب فيما بينهم . فمثلا تنازع اثنان من القناصل في عام ١٦٥٠ على

قنصلية القاهرة فأخذ كل واحد منهما يستميل الباشا اليه بتقديم الهدايا حتى يطرد منافسه . وفى مرة أخرى عمد أحد القناصل وقد أثقلته الديون ، الى الفرار من القاهرة تاركاً الى جاليتة أمر دفع ديونه الى دائنيه . وكانت تلك تقدر بعشرين ألف قرش . وبعد عشرين عاماً ورث أحد أولاد عمه المنصب ، وأعاد الكرة ، فاضطرت الجالية مرة أخرى الى سد ديونه .

وبالاختصار فقد فقدت القاهرة تحت نير العثمانيين كلتى مساحتها الحقيقية ومثل هذا من سكانها . وصارت أشبه بعاصمة مقاطعة بسيطة عنها عاصمة دولة بعد أن تحولت عن طريق التجارة العالمى صارت مدينة قديمة يسودها الخراب وتمزقها الفتى التى يشعل نارها المرتزقة الأجانب .

الحملة الفرنسية

غزا الفرنسيون في مصر في عام ١٧٩٨ تحت قيادة نابليون .
ومكنوا فيها ثلاثة أعوام أدت الى تغيير البنية السياسية للبلاد . ولكنها
لم تحدث سوى تغيرات طفيفة على العاصمة .

هزم نابليون قوات المماليك بقيادة مراد بك في معركة الأهرام في
٢١ يوليو وقتل من المماليك سبعة آلاف مقاتل " وفي اليوم التالي دخل
الجنرال القاهرة . ومنذ البداية أوضح مبادئ سياسته نحو المصريين التي
تمثلت في القضاء على طغيان المماليك واحترام الدين الاسلامي وإقامة
النظام والمعادلة .



وقد اتخذ بوناپرت خطوات مبدئية لتحسين الأحوال الصحيو في
القاهرة : كان من اللازم العناية بالجرحى من جنوده والعمل على تفادي
إصابة جيشه وببء ينتج عن إقامته في مثل تلك البنية البدائية . فأمر
الجنرال بإعداد المستشفيات العسكرية في القاهرة والجيزة وبولاق ومصر

القديمة وفي بيوت المالك الذين فروا ومنهم منزله ريفي لمراد بك الذي فر الى الصعيد ومزرعه ابراهيم بك في القصر العيني .

وللوقاية من الأوبئة فرض على السكان كنس ورش منازلهم مرتين كل يوم . ونقلت الأثرياء الى خارج المدينة .

ولم يكن المرض هو كل ما كان يهدد الجند بل كان الخوف أيضا من الوقوع في الكمين مما قد يشجع الأهالي على التمرد ، لذا أمر أهل القاهرة بأن يعلق كل منهم فانوسا على باب بيته ونظمت دوريات تطوف بأحياء المدينة وكان عليهم أن يسمروا بآب كل من يحمل في اضاءة فانوسه غير غرامة يدفعها . وفيما بعد أقيمت مصابيح كبيرة ذات أربع أوجه في الشوارع الرئيسية على نفقة الأثرياء يبعد كل منها عن الثاني ثلاثين خطوة .

وانتزع الفرنسيون أبواب الحارات التي كانت تغلق ليلا حتى اذا ما نشبت ثورة لا يلجأ الثوار الى اغلاقها والتحصن خلفها .

بيد ان هلسا الاجراء الذي دعت اليه اجراءات الأمن اقلق أهل القاهرة . فاشيع أن نية الفرنسيين أن يذبحوا المسلمين وقت صلاة الجمعة . وزاد الطين بلة ، الأمر الذي أصدره نابليون بتجريد المصريين من أسلحتهم .

وحتى يدبر نابليون حاجته من المال أمر اللجنة الادارية بتأجير حقوقها على يد الغزاة . وتزايدت روح التضامن بين الشعب والسيادة الى مداين (١) فكسب من وراء ذلك ثلاثين في المائة من قيمتها ثم أمر باستخراج سبكائك الذهب التي جلبها من فرنسا واستبدالها نقدا في الاسكندرية .

لكن تلك الاجراءات كانت مصير ضيق للمصريين وبالتالي كسبا في صالح المالك الطغاة القدماء . لقد ظهروا بمظهر الضحية التي سلبت حقوقها على يد الغزاة . وتزايدت روح التضامن بين الشعب والسيادة القدماء عندما اجبرت الصعاب المالية نابليون الى فرض تبرعات ضخمة يدفعها الأثرياء . فكان على تجار خان الخليل ان يدفعوا عشرة آلاف تلالر في طرف عشر أيام . ومثل هذا القدر على باعة السكر . أما أصحاب المقاهي فأجبروا على دفع ألفي تلالر . ولم تفلح الأشكال القانونية التي استخدمها الفرنسيون في ان تخفف من الماراة التي أحس بها القاهريون . فما الفارق في ان تكون الحسارة تبرعا يدفع قسرا للغزاة أو ما لا يسلبه

(١) انواع من العملة (راجع ملحق المصطلحات في آخر الكتاب) .

الماليك • وان كان أسلوب الفرنسيين أكثر تهذيباً إلا ان ذلك لم يكن ليقبل من خزن من فقد ماله •

وأهم التغيرات التي طرأت على القاهرة الحملة الفرنسية كان تدعيم عدد كبير من المنازل في أثناء ثورتى أهل القاهرة فى جى الأزهر وبولاق والضفة الشرقية لبركة الأزبكية والمناطق الملاصقة لبركة الرطل • وقد خدمت الكثير من المباني لتيسير حركة المرور أو تهوية المدينة ، وتحزب بعض منها عند استخدامها كملاجئ للجنود ومستودعات • أما أهم ما كسبته القاهرة من الحملة فكان الطريق الكبير الذى ربط بين بولاق وبينها وتضيف جزء كبير من بركة الأزبكية وغرس عدد من الأشجار ونقل الجبانات من المدينة الى خارجها •

أنشأ المهندس الميكانيكى كونته Conti اثنى عشر مصنعا فى القاهرة لسد حاجة الحملة والأهالى ، وأقام لها ملحقات فى بولاق والجيزة وجيزة الروضة ، لقد شيده مسبك ومصنع للكرتون والورق وورش ميكانيكية وأخرى للتجارة وغيرها • وأقام على الطرف الشمالى لجزيرة الروضة وعلى المرتفعات التى تحده القاهرة طواحين هوائية ، وما زالت باقية حتى يومنا هذا وتعرف بطواحين بونايرت •

وما ان رحل الفرنسيون حتى سقطت البلاد نهبا للغوصى حاول الأتراك أن يشددوا من قبضتهم على البلاد وعينوا خسروا باشا وأليا مصر • وأراد المماليك استعادة سلطتهم وثرواتهم وإدارة البلاد كما كان الأمر فى الماضى • فعدت الاضطرابات زاعماله النهب وقاسى المصريون من انعدام الأمن •

وهنا يظهر محمد على وكان قائدا لفرقة الألبانيين ونجح فى أن يفرض على جنده النظام • فى ١٨٠٥ انتزع من السلطان الاعتراف بولايته على مصر وفى عام ١٨١١ قضى على المماليك فى مذبحه لهم دبرها فى القلعة • وبذا زالت آخر العقبات التى كانت تحول بينه وبين السلطة المطلقة على البلاد ، ودخلت القاهرة الى عهد جديد •

وقبل أن نتحدث عن التغيرات المختلفة التى تعرضت لها القاهرة فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين نطالع فقرات ممتعة من مذكرات رسالة انجليزى زار القاهرة وقت الاختلال الفرنسى هو وليم ويتمن

William Wittman

فقد لاحظ ان الطابق السفلى من المنازل يكون من الحجر الجيري المنتزع من الجبال المجاورة ، أما الطابق العلوى فيبنى من الخشب ، وان قيسمة المنزل ترتفع اذا كانت به فوارة ، وان أرضيات الحجر كانت تكسى غالبا بالبلاط مما يمنح المراء احساسا بالانتعاش . وان أثاث البيوت كان يشبه الأثاث التركي ويتألف عادة من طنافس ومسجاجة . وقد وصف « ويتمان » النباتات التى رآها فى حدائق القاهرة وضواحيها وقال « ان لأشجار التوت والسنا الضخمة Caniers ظلال كبيرة » .

وزار سوق العبيد السود ، وهو فناء يحف به من كل جانب طابقين من الجدران ولم ير هناك سوى ثلاث زنجيات احدهن كانت تحمل بين ذراعيها طفلا أبيض . وطبقا لروايته فلقد كانت تلك المتجارة راكدة لسنوات نظرا للصعوبات التى كانت تواجه قواطل العبيد ولكنها كانت فى طريقها للانتعاش مرة أخرى . وكان يتوقع وصول قافلة للعبيد فى خلال ذلك الأسبوع . وذهب « ويتمان » أيضا الى سوق الزيق الأبيض . وكانت ابنته أفضل وأكثر نظافة ولكنها خاوية تماما .

ووصف بهور القاهرة وقال انه طوله كان ثلاث فراسخ (تسعة كيلو مترات) . وأضاف ان الفرنسيين قد حولوا مجرى العيون (القنوات التى تجلب الماء للقلعة) الى حائط للدفاع يمتد من النيل حتى المدينة . وعلى قمم التلال التى كانت تحف بالقاهرة شيّدوا طوابى . وأخيرا فقد حولوا منزل ابراهيم بك الى قلعة على ضفة النيل الشرقية ، وأحاطوا قرية الجيزة بسور .

وقد قدر أبعاد القاهرة على النحو التالى : أربع كيلو مترات ونصف طولاً وثلاثة عرضاً .

وعند دخوله من باب النصر شاهد شارعاً طويلاً تمتد على جانبيه الحوانيت . وكان به وبالشوارع « التى يقطنها الوجهاء » ثريات مذهقة تضاء عند الاحتفال بعيد من الأعياد .

وكان لكل مقهى رابوية للأشعار أو أكثر ، ومنهم من كان يمارس فنّه فى الطرقات . ويلبس الواحد منهم قبعة من خوص . وقد يوقف أحد المارة وينشده أبياتاً تمجده مقابل قليل من النقود .

وطبقاً « لويتمان » كانت القاهرة تفتقر الى الماء الطازج باستثناء أبار القلعة ولقد كان الطباعة سيئاً عن السكان ، فقد لاحظ أن الشعوب يعلو بشرة النساء بينما يتهدل لحم الأطفال حديثي الولادة مما يشير بسنّة مفرطة . وجنى أطفال الأسر الراقية والإجانب كانت عليهم مسحة مرصية .

كان الباعة الجائلون الذين يبيعون الخبز والخضروات وغيرها من الأطعمة يعلنون عن بضاعتهم بطريقة مميزة ، مثل بائع الحلوة (عجينة من السكر والنقل) الذى يقول : « بمسما يا حلوة » . وكان لهؤلاء الباعة شهرة فى الاتجار بالبضائع المسروقة . فكانوا يقايضون بضاعتهم ببعض المسروقات التافهة التى يأخذها الأطفال أو الخدم . وينادى بائع الأزهار على بضاعته قائلا :

« الورد كان شوك ، عرق النبی خلاه فتج » . إشارة الى احدى معجزات الرسول (صلعم) . أما الاقمشة القطنية التى نسجت بآلة يدبرها تور فكان بائعها يقول « شغل الثور يا بنت » . وعن التمر حنة يقول البائع « يا روايح الجنة يا تمرحنا » .

وكان المرء يصادف فى الشوارع أحيانا حواة ينتمى معظمهم الى طائفة الرفاعية . وهم يدعون قدرتهم على التخلص من الثعابين التى تمسك فى المنازل . ولما كانت تلك الثعابين تتخذ جحرها فى الأماكن غير المظروقة من البيت مثل غرفة « الكرار » حيث يدخل اليها الرفاعي وحده ، فربما كان يحضر معه فى بعض الحالات ثعبان ، ويتظاهر انه قام بإخراجه . ولكن الكثير من النفاة أكدوا ان هؤلاء الرفاعية كثيرا ما قاموا بعملهم وسط ظروف واحتياطات تمنع أى شبهة غش . وعند القيام بعمله يتخذ وجهه تعبيرا غريبا ويطرق الحائط بعصاه ويصفر ثم يطرق بلسانه ويصق على الأرض ثم يتلو بعضا من التعاويذ التى يدعوها سحرية .

الفصل الثامن

القاهرة الحديثة

تدخل القاهرة عصرا جديدا يتولى محمد على الحكم . ذلك البركان المتفجر الذى أخذ يهدم ويشيد ويغير ويبدل حتى كسى القاهرة ثوبا جديدا غزلته يده .

فى البدء أقام نوعا من التنظيم البلدى ممثلا فى « كخيا » وهو يماثل وزير الداخلية فى العصر الحالى ، ثم موظفان برتبة « باشى أغا » يرأسان قوة الشرطة الموكل إليها حفظ النظام وأخيرا « المحتسب » وهو يتفقد يوميا الأسواق ليمنح التجار من أى محاولة للفسح وكان لكل حارة « شيخ » و « ثمن » ويقومان بواجبات قاضى الصلح فى أوروبا وعليهما الزام كل مواطن ان يحمل معه بطاقة تحمل اسمه مثل بطاقات الهوية فى يومنا هذا .

وزاد الاهتمام بالاحوال الصحية للمدينة . فتحسنت احوالها الى حد كبير بفضل الاجراءات الصارمة التى اتخذتها السلطة فى هذا السبيل . صارت الشوارع أنظف ، وقلت أخطار الأوبئة ، ونقلت الازبال الى خارج المدينة ، وأعيد تنظيم « المارستان » وشيدت الكثير من المستشفيات

الجديدة . وحاول محمد على ان يركز الانشطة الصناعية فى منطقة السبتية فى شمال شرق بولاق . وبضربة حجر واحد أصاب هدفين ، فقد استغل آكوام الانقراض والازبال التى كانت تحف بالقاهرة الى الشمال والشرق - وكانت موطناً للعدي - فى تسوية المنخفضات وردم برك القاهرة . فعلى سبيل المثال استغل التل الذى كان قد أقيم عليه حى المعهد الفرنسى فى ملء بركة قاسم بك . وجفت تماماً بركة الأزبكية التى كانت حتى هذا المعهد ما تزال تمتلئ جزئياً بماء الفيضان . وكذلك الأمر بالنسبة لبركة الرطل حيث تحولت الى حديقة . ولم يتخلف من كل تلك البرك ثمر هنا وهناك تسقى منها الماشية .

وتغيرت طبوغرافية منطقة بركة الأزبكية تماماً . فاختفت القناة التى كانت تغذيها بالماء . واستغلت الاكوام المحيطة بها فى سدها . ثم اقيم عليها قصر الحلمية ودرب الجماميز .

وطرأت تحسينات على حركة المرور فى المدينة ، فقد هدمت المباني التى كانت تعوق سير العربات وازيلت المصاطب التى كانت تقوم أمام المنازل . وكانت القاهرة قد اعتمدت لفترة طويلة على الجمال والحمار والخيول كوسيلة للنقل ، وكان ركوب الحصان مقصوراً على الجند ، ومن بين الأجانب جميعاً صرح للقناصل فقط باستخدامه . وكان نابليون أول من سار فى القاهرة بصرية يجرها ست خيول . وصرح محمد على باستخدام العربات التى أحدث ظهورها جوا من الاثارة فى القاهرة . وقد منح بعضاً منها هدية لوزرائه فصار فى القاهرة منها حوالى ثلاثين .

وعندما تقرر مد شارع الموسكى بشارع السكة الجديدة ، حدثت سعة الشارع الجديد بحيث تسمح بسير جملتين محملين بالبضائع يسيران جنباً الى جنب ، ولذا فنعتقد انه كان من النادر ان ترى عرباً بأربع عجلات تسير فى هذا الطريق . واستمرت الحمار لمدة طويلة وسيلة للمواصلات الأكثر انتشاراً . وقد قدر ناصرى خسرو عددها فى القرن الحادى عشر بخمسين ألفاً فى القاهرة ، أما فى القرن التاسع عشر (١٨٤٦) فقد قدر Combes « كومب » عددها فى حى بولاق وحده بأثنى عشر ألف حماراً . وقد حظيت تلك الدابة بمعطف وإعجاب راكبيها . ويقول عنها جوبينو Gobineau ان ملامحها ذكية وخبيثة ، فلقد لاحظ انها تميل الى السير بسرعة وسيدها أقرب الى العدو منه الى التخاطر ، فكانها تترفع عن الخطو . وأحياناً ينبجح الحمار فى ان يتخلص من راكبه ويتابع سيره سعيداً بمغامرته وفى عينه نظرة ساخرة واذناه قد تدلى ، ومن خلفه يأتى الحمار ضاحكاً من أعماق قلبه .

شق طريق واسع مستقيم يخترق الخليج المتناسك من المنازل ،
ليربط بين القلعة والأزبكية . وكان هناك طريق آخر تحته أشجار السنط.
والخروب يربط بين بولاق والمدينة . وربطت قطرة معدنية الجيزة.
بجزيرة الروضة ومنها بمصر القديمة . وعنى بتطهير الخليج وبصيانة
شاطئ النيل عند بولاق ومصر القديمة .

واتخذت المدينة ثوبا جديدا ؛ فقد أخذت البيوت الحديثة تحل محل
القديمة . وفي القلعة هدم الكثير من منشآت الممالك وسويت الانقاض ،
وعليها شيد قصرا ومسجدا وتكنات للجيش ومعمل للبارود وترسانة
ودار لسك العملة . وبذا عادت القلعة للحياة واستردت شيئا من سابق.
مجدها في العصور الوسطى . وظهرت قرية فوق المنحدر الشمالي للشرق.
الصخري . ولكن يبدو ان الوساوس أخذت تنتاب محمد علي في القلعة
التي كان قد دبر فيها مذبة الممالك ، ولذا لم ينعم بالراحة هناك ولم يجد
متعة في الحياة وسط تلك السكنة الضخمة الخاصة بالجند التي تحف
بها الصحراء التي تتلظى تحت الشمس . فأقام قصرا عند الأزبكية على
نفس موقع القيادة الفرنسية السابق . وهي بقعة بديعة . وفي الجزء
الجنوبي للميدان (الأزبكية) أقام قصورا جديدة اما في الجانب الغربي
فأقيم أول فندق كبير على الطراز الأوروبي « أوتيل دوريا Hôtel d'Orient
وعندما رأى مرة أخرى هنري كاما Henri Comma تلك المنطقة في
عام ١٨٦٢ شنبها بالشانزلية والأوكاسين

لكن محمد علي كان يفضل الحياة وسط الحقول الخضراء ، لذا رعم
قصر مراد بك في الجيزة وقصرا آخرأ في جزيرة الروضة اتخذها فيما بعد
إبراهيم بك ابنه الأكبر سكنا .

لكن أهم منشأته كان قصر ششبرا ، الذي أقيم في سهل خصب
محظور بين النيل وترعة المحمودية . وربط بينه وبين باب الحديد طريق.
مستقيم مرصوف تحفه الأشجار ، وتشير عليه المركبات الفاخرة ورجال
البريد ملتصين جبالهم . وأقام على بقعة قريبة من النهر بين بولاق والقصر
البحري مجموعة من القصور للأفراد عائلته ، كانت محاطة بخنادق زرع
فيها أشجار النخيل والتوت . وغيرها من أشجار الفاكهة التي تشربك هذا
وهناك . واقتداء بالباشا أخذ الأرستقراطيون في بناء القصور هناك .

ولم تتغير باقي الأحياء تقريبا ملبوسا في تلك الفترة عدا حي بولاق
الذي أعيد بناء ما تخرّب منه أثناء الاحتلال الفرنسي حيث كان نقطة
وصول البضائع المتجهة الى العاصمة . بينما أخذ حي كمبر القديمة

يتداعى لأنه لم يكن يستخدم الا كمناطق تخزين للبضائع القادمة من الصعيد .

احتفظت القاهرة حتى عام ١٨٥٠ بعبودها السابقة تقريبا . ولكن اختفت من حياتها الفوضى والجاعات ، واخذت الحركة الاقتصادية تنشط : أراد محمد علي بمساعدة الخبراء الأوروبيين أن يستأنف ما كان كونت Conté قد بدأه ، ففي عام ١٨١٢ استقدم خمسمائة عامل من استنبول ، تبعهم مائتي عامل أرمني في عام ١٨١٦ . وأقام ورش لصناعة المطارق والسبائك والمناشير ثم أقيم معمل للورق ومعصرة للزيت وورش للحفر . بيد أن محمد علي كان يفتقر المنهج والنظام ، فضلا عن أنه عجز عن أن يشرك الأثرياء من المصريين في مشروعاته ومثل هذا الاسهام كان من الممكن أن يكون ناجحا . لقد أثار المصريون بنشاطه الحميم ، ولكنه لم يتحج في أن يقيم قاعدة صلبة لبناء حياة اقتصادية سليمة ولأقامة عاصمة لهم . كثيرة تصليح لأن تكون مركز للإدارة والنشاط الصناعي والتجاري .

كانت نهضة القاهرة الصناعية الحقبة في النصف الثاني للقرن التاسع عشر ، حيث أمكن للصناعة أن تنهض وتتطور عندما أقرت في عام ١٨٧٤ تشريعات قانونية محددة حديثة ، بالإضافة إلى استتباب الأمن في ربوع البلاد والانتعاش الاقتصادي الذي أصاب مصر بعد عام ١٨٦٠ (٢١) . ولزدهرت في مصر صناعات عدة فيما بين ١٩١٤-١٩١٨ مثل الأسرة المعدنية والملابس والصنابون والمركبات ودبج الجلود والسيراميك والتجارة . وفي عام ١٩٠٠ أقيمت مصانع أسمنت طرة والمصرة . ومصنع للطوب في الباشنية في عام ١٩١٠ وآخر للأسمنت في حلوان عام ١٩٣٠ . واليوم ارتفعت عشرات المصانع في القاهرة أو ضواحيها وأمنها مصنع الحديد والصلب في حلوان .



وعلى نسق الشوارع الكبيرة التي شقها البارون هاوسمان Hausmann في باريس بنى في القاهرة الكثير وترسم لنا التواريخ التالية معالم التطور الكبير الذي بدأه يضرب طنابه في القاهرة .

١٨٥٤ - إقامة الخط الجديد الذي ربط الإسكندرية بالقاهرة .

(١) لدى الإطلاع الجريح الأملية في الولايات المتحدة الأمريكية إلى اختفاء القطن الأمريكي من الأسواق الأوروبية وبالتالي ازدياد الطلب على القطن المصري الذي ازدادت أسعاره تلقائيا .

١٨٥٦ - بناء خط حديدي بين السويس والقاهرة •

١٨٥٩ - ١٨٦٩ - حفر قناة السويس •

١٨٦٥ - اقامة شركة المياه

١٨٧٣ - تأسيس شركة الغاز •

جعلت اقامة الخط الحديدي بين الاسكندرية والقاهرة الطريق ميسورا لزيارة العاصمة التي كانت وقفا في الماضي على المحظوظين من الأثرياء أو نفر من المولعين بالمغامرة المستعدين لمواجهة الأخطار وتحمل الصعاب الكبيرة ومن ذلك التاريخ صارت زيارة القاهرة في متناول الجميع كغيرها من مناطق العالم المتحضر • واجتذبت اليها المفايرين الذين كانوا يسعون خلف الثراء لا في التنقيب عنه تحت التراب ، ولكن في عقد الصفقات مستغلين الحصانة التي أسبغتها عليهم الامتيازات الأجنبية في ابتزاز السلطات • فكان المرء يرى بين السائحين الشرفاء من رجال الأعمال رجالا ماتت ضمائرهم •

وأدت الاضطرابات السياسية التي تفجرت عام ١٨٨٠ الى سقوط مصر في ايدي الانجليز •

وكان حفر قناة السويس ضربة قاضية لتجارة الترنزيت في القاهرة • فلم يعد للقاهرة من وظيفتها السابقة كمركز للتبادل التجاري وتجارة الترنزيت الا الضطر الأول •



يتسم تطور القاهرة منذ عام ١٨٥٠ بستتين رئيسيتين الأولى هي تحول منطقة قلب العاصمة عن مراكزها القديمة ، والثانية ظهور أحياء أوروبية خالصة على حدود المدينة كما لو كان المرء يضيف شرفات مزينة بالأزهار حول واجهة منزل قديم لتحسين مظهره •

لم تكن التغيرات التي طرأت على أحياء قلب المدينة على كثرتها الا تغيرات سطحية • فعلى جوانب الطرق الكبرى اقيمت دور أنيقة تغشى خلفها المساكن القديمة بسكانها البسطاء كما هم دون أدنى تغيير • وقد بنيت عدة شوارع جديدة مثل « السكة الجديدة » الذي يعد امتدادا لشوارع الموسيقى ، وشوارع كلوت بك بين ميدان « باب الحديد » « والأزبكية » • وأقيم ميدان ابن طولون وهدمت المنازل الملاصقة لجامعي

السلطان حسن والرفاعى حتى يظهرها للأعين • وعلى أرض بركة الفيل.
السابقة أقيمت القصور والفيلات والأبنية العامة • وربطت القلعة
بالأزبكية بطريق متسع تحفه منازل ذات بوائك • بيد أن تلك
المشروعات النافعة التى تحمل سمة أوروبية لم تضع نهاية لأكوام الأتربة
والقاذورات وما يصحبها من ذباب التى ظلت تلوث الشوارع الجانبية
المتصلة بالطريق الرئيسى عن طريق درجات بسيطة •

ازدهرت حديقة الأزبكية وحديقة روسيتى Rossetti المجاورة
ازدهارا كبيرا • وأقيم فى وسطها متنزه يقص بأشجار التمر حنا والغار
والميموزا ، ويقطعه مشيان وجدول وتناثرت فى أرجائه مقاه ومسارح
صغيرة واكشاك ، ولكن الكثير منها كان أوكارا للقمار أو الرذيلة حيث
كان المرء يسمع أحيانا طلقات أعيرة نارية • وأحيطت الحديقة بسور
حديدى فى عام ١٨٦٥ ، وفرض رسم لدخولها ، وأضيفت ماشيتها بالفاز،
فوضع هذا حدا للمباذل السابقة • وحول الحديقة أخذت العمائر الحديثة
فى الظهور مثل الأوبرا والبورصة وفندق دولاسى «de la Cie»
وبننسيولير اتاورينتال Péninsulaire et Orientale والنيسو
هوتيل New Hotel وعديد من المتاجر الكبرى •



إذا فحصنا باقى أحياء القاهرة لاحتظنا ظهور حى عابدين حول
أحد القصور الخديوية وبعض المباني الادارية فى مكان بركة بطن البقرة
السابقة شرق باب اللوق والقصر العينى ؛ ولاحتظنا أن الدور أصبحت
تمتد على طول الخليج حتى منطقة السيدة زينب ، بينما لم يعد فى
جزيرة الروضة سوى قرية بائسة (المنيل) بها قصران احدهما مملوك
لابراهيم باشا (ابن محمد على) • بينما تطلت القلعة عن دورها كقاعدة
للحكم •

لاحظنا مما سبق اتجاه القاهرة فى التوسع العمرانى منذ تأسيسها
تحو الشمال والشمال الشرقى • واستمر هذا الاتجاه باطراد مستمر
طيلة القرنين التاسع عشر والعشرين •

أقام الخديوى عباس الاول قرية حربية صغيرة فى السهل الرمل
الواسع الواقع شمال القاهرة • وكانت تضم ثكنات للجند ومستشفى
ومبارس ومساكن للضباط والموظفين • ثم أخذ ذلك الحى ، الذى عرف
بالعباسية ، فى الاتساع بسرعة حتى اتصل بالقاهرة • وقد شكل قصر

القبة أحد القصور الخديوية الجديدة نقطة جذب سكانية أدت الى انتشار العمران حوله .

كانت البقعة الواقعة بين شبرا والنيل في نصف الدائرة التي يشكلها الخط الحديدي الذاهب الى الاسكندرية ، أرضا زراعية تغطيها الحدائق والحقول . ثم ما لبث ان امتد إليها العمران تدريجيا زاحقا من حي بولاق ومن ناحية ربط جسر بين بولاق وأرض الجزيرة حيث شيد قصرا للباشا تحيطه الحدائق . وربطت الجزيرة بالجزيرة بطريق جميل مهاد تمتد على جانبيه أرصفة . وفي طرف بولاق أخذت المنازل تمتد حتى منشآت مسجد على الأمانة بالقرب من مصعب ترعة الاسماعيليه . وكان قد أقيم هناك فيما بين عامي ١٨٤٩ و ١٨٧٨ عددا من القصور مثل : قصر النيل ، الذي سكنه سعيد باشا ثم الخديوي اسماعيل ، و « قصر النوبارة » و « قصر والدته » باشا و « الأمير أحمد » ، وإلى الخلف قليلا القصر العالي . وكانت كل تلك القصور محاطة بالحدائق الغناء .

بنى حي الاسماعيليه في عصر الخديوي اسماعيل في البقعة الواقعة بين الأزبكية وشارع بولاق وترعة الاسماعيليه وقصر النيل وباب اللوق . وقد منح اسماعيل الأرض بدون مقابل لكل من أراد ان يقيم عليها بناء لا تقل قيمته عن ألفي جنيه .

وسرعان ما بنيت فيلات بديمة تحفها حدائق جميلة انتظمت حول طرق واسعة تؤدي الى ميدان كبير . وما زال هذا الحي يحتفظ بتخطيطه الاول حتى الآن رغم أن العتائر العالية جلت محل الفيلات والحدائق .



وهنا نتوقف برهة لحيل ان نستكمل دراستنا للتعرف على بعض الانطباعات التي تركتها القاهرة على الأوروبيين في القرن التاسع عشر . فبالرغم من موجة التحديث التي أخذت تغير من القاهرة منذ العهد . كانت المدينة لا تزال قائمة على أن تخطف الباب الأوربي بجوها الشرقي . فيتحدث عنها ارتير روني Arthur Rony الذي زارها في عام ١٨٦٤ بنبرة تملأ حماسا . « كيف يتأني للمرء ان يصف تلك البقعة الساحرة حيث تتشابك الطرقات والأزقة والميادين في انتظام مقع بسحر التزوية ، فكل منزل فيها عمل فني تتجلى فيه الأصالة ببعته يد رقيقة . كيف يمكن أن أرسم الصمت في الهواء ولا النور المشرق الذي يعم المنائر المزخرفة في تقابله مع الضوء الخافت الحنون الذي يشيع في الطرقات فيبعث في النفس حيورا سرمديا . وتمتزج الصورة واللون والحركة بلا انفصام ، كل مقع بروعة وصخب الحياة » .

ولنصحبه الآن فى جولة فى قاهرة ذلك العهد . نراه يترك قصر
الباشا ، بعد اجتماع معه ويمتطى مع جمع من أصدقاءه حبرا يقول عنها
(برادعها جيدة التبطين لكانها مقعد وثير سحرى يطوف بالمرء فى عالم
سحرى يطوف بالمرء فى عالم ألف ليلة وثيلة الساحر) .

« أولا ودائما شارع الموسكى الطويل الذى نرى فى اوله اسلحة
نوبية وأيوبيه معروضة فى الطريق . ويعرض « عبدة » تمساحا محنطا
تنبعث من فكه رائحة كريهة ، ونرى من بين معروضاته خناجر وحراب
وسهام وطبول . تزينها أشكال غريبة والوان باهتة .

والموسكى أكبر شوارع القاهرة . وفيه يصادف المرء كل شئ ،
يبدو مستقيما ، لكنه فى الحقيقة متعرج صاعد ، هابط . وتقوم على
التراب والفضوض والمناجر . انه شارع كبير وطريق طويل غير مرصوف ،
جانبيه منازل بعضها جديد ولكن طرازها شرقى لم يتطرق اليه التحديث
اليفض .

فاذا ما بعدنا قليلا نرى على ناصية احد الشوارع حانوتا مفتوحا ملء
برجال نائمين على القفص - « انه القراقول » (قسم الشرطة) حيث نرى
« الباش - بوزكس » الالبانيين بوجوههم التى تذكرنا بالطيور الجارحة
وملابسهم اشبه بملايس قطاع الطريق ، حيث تتلذذ من مناطقهم الخناجر
اللامعة . وهم ليسوا الا عصابة من الاشرار لا يهابهم الا اللالاحون .

ويلفتنا عبق ساحر فى احدى الطرقات الضيقة عميقة الانوار حيث
تخترق العمائم البيضاء استار الظلام تصحبها لمعات وريقات نحاسية تتقابل
فى طرقات رنانة بادئى حركة من الهواء ، فتعلن عن حوانيت العطارين
حيث تتجمع بضائع الهند والجزيرة العربية .

ويمضى باقى الكتاب فى رسم صورة للمدينة مملوءة بأحاسيس
عاشق . ولا نترك روفيه قبل أن تقتبس منه عبارة قالها له قصص فرنسا
فى القاهرة يسكن أن تلخص انطباعات الزائر للمدينة العتيقة . « ان
ما يستمتع به وما يستراه الخرب وأعجب من الأحلام » .



يعتبر عام ١٨٨٢ (به الاحتلال البريطانى لصر) سنة ١٤٤٠ حاسمة
لصر وللقاهرة على وجه الخصوص . فبعد هذا التاريخ وحتى عام ١٩٢٢
تضاءلت قائمة خديوى مصر بجانب المندوب السامى البريطانى الذى سيطر
على السلطتين التشريعية والتنفيذية .

وتحت راية هذا النظام حتى الأجانب الكثير من الفوائد وازداد الدخل العام نظرا لارتفاع ثمن القطن واتساع الرقعة الزراعية مما كان له أعمق الأثر على عاصمة البلاد .

ولقد أثرت على الحياة في القاهرة الاحتلال ثلاثة عوامل ، أولها وجود جالية بريطانية كبيرة طبعت بدوقها وأرواحها الأحياء التي سكنتها : قصر الدوبارة وجاردن سيتي .

وهليوبولس . وتحت حماية الامتيازات الأجنبية تمتع الخاصة منهم بحرية كبيرة أدت الى نوع من الفوضى المعمارية . فافتقدت تلك المشروعات روح التخطيط الكلي والتنظيم وأهملت فيها قواعد الصحة العامة وسواء كان البنائون من الأفراد أم الشركات فقد اتسموا بقصر النظر فلم يكن الواحد يعبأ بجاره أو المصلحة العامة . فنجم من تراكم الأخطاء سرطان خطير .

وتحولت حتى البناء والمضاربات التي نجمت من تسلق رؤوس الأموال الأجنبية على مصر ، التي كانت تتمتع بالثقة نظرا لاستقرارها السياسي والاقتصادي ، الى سعار . فإذا ما استثنينا فترة الأزمة السياسية في ١٩٠٧ التي أدت الى رحيل اللورد كرومر والتي لم تحس نتائجها قبل عام ١٩١٢ كانت القاهرة أخذة في الاتساع في كل اتجاه . لكن هذا النشاط يتوقف لفترة وجيزة أثناء الحرب العالمية الأولى . ثم ما لبث ان استرد عنفوانه .

أخذت الشوارع الجديدة تخترق الأحياء الشعبية ، لكنها لم تكن الا وإجهات تخفي مظاهر الفقر خلفها . وفي عام ١٨٩٩ طمرت القنوات الصغيرة التي كانت تحيط ببولاق وطر الخليج أيضا وحل محله بشوارع كبير . ثم توسيع بعض الميادين مثل ميدان السيئة زينب . بيد أن هذا لم يكن الا استثناء فكانت شوارع العاصمة مازال على بدايتها وتفتقر الى حد كبير الى نظام صرف صحي فعال . كانت الجهود مركزة على القسم الأوروبي من المدينة حيث عاش الأجانب مع الاستقرارية المصرية .

كان المثلث الكبير الواقع الى شمال طريق بولاق بين الأزبكية وحدائق فندق شبرد وكنسرة الدكة وشوارع الملكة نازلي (رميميس) أرضا مهملة يتجمع فيها النجس حول برك ماء الرشح الراكد . جففت المستنقعات وقسمت ، وبيعت ، وبدأ بنائها في عام ١٨٩٠ فصارت حيا يعرف باسم التوفيقية .

وصار حيا الاسماعيلية والتوفيقية مركزا للأعمال وللنشطاء الاقتصادي للمدينة ، وشيئت هناك دار القضاء العالي (قديما المحكمة

المختلطة) بواجهة تزينها صفة أعمدة توحى للناظر بمعبد أغريقى . وإلى جوارها شيلت البنوك والمحلات التجارية الهامة . وبهذا انتقل مركز عالم المال والتجارة من قلب القاهرة القديمة المحصور بين شارع كلوت بيه والموسكى والأزبكية إلى تلك المنطقة الواقعة إلى الغرب .



ظهر حتى جاردن سيتى فى نهاية القرن التاسع عشر حول قصر الدوبارة (مقر المندوب السامى البريطانى وحاليا سفارة بريطانيا) وقصر « الوالدة باشا » . وكان حيا اوستقراطيا يكاد يكون أجنبيا . وقد تألف من فيلات تفصلها طرقات تظللها الأشجار . ومنذ عام ١٩٠٥ أخذ الحي فى الامتداد نحو النيل . وتدرجيا زحف العمران على الضفة المقابلة .

ولتحدث الآن ونحن بهذا الصدد عن أهمية طرق المواصلات فى اتساع رقعة القاهرة . يدهى أن بناء أحياء جديدة مشروط بتسيير سبيل المواصلات إليها . وكان هذا ما حدث عند بناء شبرا والعباسية والقبة والمطرية . كان العمران يلاقى بقاء أى طريق كبير . وأكبر طرق العاصمة شارع الهرم الذى بنى فى سرعة قياسية فى عام ١٨٦٩ ليسر على الامبراطورة أوجينى زيارة المنطقة الأثرية . وقد مد به شريط الترام فى عام ١٨٩٩ واستبدل الآن بخطوط للاتوبيس .

لكن أهم الانجازات المعمارية لهذا العصر كانت بناء مصر الجديدة (هليوبولس) التى صارت لشبه بمدينة صغيرة متكاملة . أسسها البارون امبان Empain البلجيكى على ضفة صحراوية شمال القاهرة كانت تستغل فى التدريبات العسكرية . شيدت مصر الجديدة طبقا لخطة مدروسة وقد زودت بطرق حديثة ومياه للشرب وصرف صحى والكهرباء وربطت بالقاهرة بخط للمetro وطرق . وتوجت جهود البارون بالنجاح فبلغ عدد سكان الضاحية حوالى ٣٥ ألف نسمة (فى الستينات) . وتضم الضاحية عددا من الكنائس والمساجد والكثير من المدارس وعدد من الفنادق الفاخرة .

وبالرغم من النجاح الذى لاقاه بناء ضاحية المعادى ومدينة المقطم إلا أن القاهرة قضى بمناد فى الزحف نحو الشمال والشرق . ولا يجب أن ننسى فى هذا السياق ضاحية مدينة المهندسين التى بنيت على الضفة الغربية للنهر « ومدينة نصر » بين العباسية ومصر الجديدة .

سارت عملية تحديث القاهرة بغطى واسعة فى خلال القرنين
الآخرين - فحتى عام ١٨٥٧ لم يكن بالمدينة الا القليل من الشوارع المبلطة .
وفى عام ١٨٨٠ وقع عقد مع شركة خاصة لصيانة الطرقات ولكنه قسح
فى عام ١٨٨١ ، وتولت الحكومة المصرية بنفسها المهمة .

تولت الحكومة تبليط الشوارع الآتية على التوالى مستخدمة الحجر
الجيرى ، شارع الاسماعيليه وقصر النيل وعابدين والسيدة زينب وشارع
شبرا وميدان العتبة الخضراء والموسكى وباب اللوق . وبين عامى ١٨٩٧ :
١٩٠٠ أعيد تبليط بعض تلك الشوارع بحجر البازلت المقتلع من محاجر
أبو زعبل بدلا من الحجر الجيرى - ألش القادم من طرة - وفى عام ١٩٠٦
أجريت أولى المحاولات لسفلتت الطرقات . وفى عام ١٩١١ وقع عقد مع
شركة سويسرية لتنفيذ تلك المهمة .

فى عام ١٨٨٢ بلغ طول الطرق المضاة سبعين كيلو متر نيزهم
٢٤٥٩ مصباحا غازية .

وكانت الاضاءة تخفض فى الليالى الممطرة . وفى عام ١٩٠٥ وقعت
الحكومة اتفاقا جديدا مع « شركة غاز لوين » Jas Lebon فاستبدلت
فوهات مواشير الغاز بنظام « أور » Auer وبلغ عدد المصابيح فى عام
١٩١٣/٨١٦٤ . وفى عام ١٩١٤ أدخلت مصابيح الغاز ذات الضغط
العالى التى كانت مستخدمة فى لندن فى هذا العهد . واليوم تضى معظم
شوارع العاصمة الكهرياء .



افتتحت محطة القاهرة المركزية للسكك الحديدية فى عام ١٨٥٦ .
وقد أعيد بنائها تماما عندما اتصلت بخط حديد وجه قبل .

وفى عام ١٩٢٦ حصلت « شركة طيران امبريال » Imperial Airways
على تصريح باستغلال مطار مصر الجديدة الحربي لتشغيل خط جوى
القاهرة - العراق . ثم ما لبث ان ازداد عدد الخطوط وشيد مطار ضخم
شمال ضاحية مصر الجديدة .



وفى ختام دراستنا أود أنه أكرس الفقرة الأخيرة للمظهر الجمالى لمدينة
القاهرة . لقد خلقت الياك كل من زارها من الرحالة على مدار السنين
بعمائرها الشرقية ومشربياتها الخشبية وكثرة حدائقها العامرة بأشجار
الفاكهة الممتدة بين دورها وطرقاتها المفعمة بالحياة التى قدمت لزائريها

حصورا جديدة على عيونهم وكانت الأشجار تحجب ببركها • أما الخليج الذى كان يشرقها فقد خلع عليها مظهرا جذابا • بيد أننا اذا استثنينا الفترة الأولى من عصر الأسرة الفاطمية والعصر الجالى لوجدنا ان أى من الحكومات التى تعاقبت عليها لم تبذل جهدا حقا فى تجميل المدينة •

لقد غرس الفرنسيون أشجارا فى الأزبكية أثناء حملة يونانزرت لكنها اجتثت بعد رحيلهم بشهرين وقبل هذه الحادثة بسنوات ضحى مراد بك بأشجار جزيرة الروضة لبناء سفن للاسطول •

وإعداد محمد على وابنه إبراهيم الحقائق إلى الروضة ، لكنها لم تمش طويلا • فسياء الفيضان التى تفرها جرفت معها الأشجار ولذا استبدلت بيزراعة الخضر •

وقد أدى بناء عدد من الشوارع الكبيرة فى عصر محمد على وحفيده اسماعيل الى هدم الكثير من الآثار الإسلامية • وأدى انشاء شارع الخليج والسكة الجديدة والأزهر والأمير فاروق الى اختفاء عدد من الأحياء الرائعة • وقد أدت عدم المبالاة التى يبديها المصريون نحو آثارهم الى خسارة فنية لا يمكن تعويضها ، فعلى سبيل المثال اختفت المشربيات تماما من بعد أن بيعت للسائحين أو فككت الى أجزاء استخدمت فى صناعة الآثاث •

وفى عهد سعيد باشا قطعت الكثير من الأشجار خصوصا فى منطقة العباسية والقبه •

وبين عام ١٨٦٨ و ١٨٧٥ استغلّت منطقة الجزيرة فى عدد من المشروعات لارضاء نزوات الخديوى اسماعيل ، فقد اقيم هناك قصر تحيط به الحدائق من كل جانب (فندق عمر الخيام) ليستقبل فيه ضيوفه من الأمراء والملوك المعرّين لحضور حفل افتتاح قناة السويس • وهذا القصر يحكى على نحو أعظم قصر الهمبرا بأحواض زهوره وكهوفه وبحيراته والاكوريم •

كانت الأشجار والحدائق تغطى منطقة بولاق الدكرور والجزيرة فى ١٨٧٢ - ١٨٧٣ • وغرس الخديوى اسماعيل بين عام ١٨٦٨ و ١٨٧٨ الكثير من الأشجار حول الطريق الدائرى للجزيرة وطريق الجزيرة وشارع الهرم • وزرع عباس حلمى الثانى الكثير من الأشجار على أطراف العباسية • ولكن أى منهم لم يبال بانقاذ المنازل التاريخية ولا القصور والمساجد العتيقة من مهول الهدم • فاندثرت الى الأبد الكثير من العماثر التى أبدعها المعمار الإسلامى •

وتعد الأحياء الجديدة التي شيدت في هذا العصر إلى الشمال والشرق.
من مناطق الإسكان الفاخر • وهي تختلف في طبيعتها عن أحياء القاهرة.
القديمة • فشوارعها واسعة وظلالها الأشجار ومعظم دورها محاطة بالحدائق.
وفي بعض منها تتجلى صورة القاهرة القديمة « سلة أزهار تنبثق منها دور
بديعة وعمائر أنيقة » •

ثم بحمد الله ونعمته

فهرس المصطلحات

- ارش : مقياس فارسي يساوى الساعد من طرف الأصبع الأوسط حتى المفصل ويقدر ب ٤٠ سم .
- بيمارستان : أنظر مارستان .
- تلالى : النطق العربى لعملة المانية .
- تنور : ثريا .
- چماكنار : حامل صولجان السلطان .
- جوكندار : حامل مضارب لعبة البولو للسلطان .
- حارة : حى .
- خان : فندق .
- خطة : حى .
- درهم : وحدة موازين عربية تساوى ٣ر٢ جم .
- دينار : وحدة موازين قديمة تساوى مثقال (٤١٤ر جم) .
- أو درهم ونصف ، وتستعمل فى نفس الوقت كعملة .
- ديوان : مجلس من كبار الموظفين الإداريين والعسكريين .
- رهش : ضاحية .
- دبك : آلة وترية بوترين وتعرف بالقوس .
- ربع : بيت يتقسم الى وحدات مستقلة تسكن كل واحدة أسرة .
- رطل : وحدة موازين تساوى ٤٤٤ر كجم .
- رواق : المسافة الواقعة بين صفى أعمدة .
- ساج : نوع من الخشب .
- سارى : خاتم بالقصر .
- سبيل : مبنى به حوض للشرب لسقاية المارة .
- سلامك : غرفة استقبال .

- شمسية : مظلة أو خيمة •
- عزب : جندي مشاة تركي •
- عقبة : مدق جبلي •
- غاشية : غطاء جواد السلطان •
- فالودج : فطيرة من النشا والعلس •
- فندق : تستخدم قديما لفندق يقطنه الأجانب •
- قنطرة : وحدة أطوال فارسية تساوي ٢٤ شبرا •
- قنطار : وحدة موازين تساوي ٤٤٩٢٨ كجم •
- كخيا كم كتيخدا : نائب الباشا (والى القاهرة في العصر العثماني) •
- كنجبة : آلة موسيقية يوترين صندوقها الصوتي يتخذ من قشرة جوز الهند •
- مارستان : مستشفى •
- مثقال : وحدة موازين تساوي ٤٤١ رة جم •
- مجلس : حجرة تمقد فيها المجالس •
- مدرسة : طراز من الجوامع أدخل الى مصر في عصر صلاح الدين الأيوبي ويتألف فيه الجامع من أبوانين أو أكثر يفتحوا في فناء مفتوح أو مغلق •
- مدین : عملة تركية صغيرة •
- مرفق : هيئة تتولى الرقابة الصحية في المدينة •
- معوقة : هيئة تتولى الاشراف على نظافة المدينة •
- مقعد : حجرة تفتح على الفناء الداخل للمنزل •
- مقصورة : مقصورة تنصب للحاكم في المسجد قرب المحراب ليصلي فيها لصايبه من أعدائه •
- ملقف : بشر عودى يخترق سقف المنزل وتوجه فتحة نحو الشمال لاجتناب ربح الشمال المنعشة الى الداخل •
- من : وحدة موازين فارسية قديمة تساوي ٦٣٦٤ رة كجم •
- منورة : حجرة استقبال •
- ميدان : فضاء فسيح يستخدم للتدريبات أو الاستعراضات الحربية •
- ولسباق الخيل أو الألعاب الرياضية •
- مزر : مشروب يماثل البوطة •

فهرس

الصفحة	
٥	- مقدمة
	- الفصل الأول :
٩	الفتح العربى - القسقاط - العسكر
	- الفصل الثانى :
٣١	القطنع
	- الفصل الثالث :
٤٣	القاهرة
	- الفصل الرابع :
٨٠	صلاح الدين والقلة
	- الفصل الخامس :
٩٣	الماليك
	- الفصل السادس :
١٢٠	السيادة العثمانية
	- الفصل السابع :
١٣٩	الحملة الفرنسية
	- الفصل الثامن :
١٤٤	القاهرة الحديثة
١٥٧	- فهرس المصطلحات

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٦/٣٣٨٢

ISBN ٠ - ٩٩٤ - ٠١ - ٩٧٧ -

يتناول هذا الكتاب قصة القاهرة ، تلك المدينة التي تبعث في النفس - عبر تاريخها - صوراً وخيالات بطولية رائعة . .
مدينة الأهرامات بصروحها الهائلة التي تعبر عن فكرة الخلود . . مدينة القلعة التي تبدو كقائد حربى مختال يشرف على جنوده الذين تؤلفهم منائر العاصمة .

ويتبع هذا الكتاب قصة تلك المدينة الخالدة ، التي لا تتشابه مع غيرها من المدن الأوربية ، ولكنها تشكل مزاجاً من عدة مدن متباينة المصور والحضارات . . مدينة القسطنطينية القديمة بأكوأخها المتزامنة حول عدد الكنائس والأديرة ، والقاهرة الفاطمية بقصورها الزاهرة وحدائقها البديعة ، وهذه المدينة بدورها لا ترتبط مع المدينة الحالية المزدهمة بأى رباط سوى الرقعة الجغرافية .